وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية الآداب

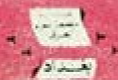


تاريخ ايران

دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة

٢١هـ - ٩٠٦هـ / ٦٤١م - ١٥٠٠م

الدكتور فاروق عمر
الدكتور مرتضى حسن النقيب



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية الاداب

تاريخ ايران

دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة

٢١هـ - ٩٠٦هـ / ٦٤١م - ١٥٠٠م

الدكتور فاروق عمر　　　الدكتور مرتضى حسن النقيب



منشورات بيت الحكمة
مطبعة التعليم العالي
بغداد ١٩٨٩

المحتويات

الصفحة

تمهيد

يعد الفتح العربي الاسلامي لبلاد فارس وبلاد ماوراء النهر، دون شك منعطفا مهما في تاريخ هذه الاقاليم لما حدث في اعقابه من تبدل في جغرافيتها السياسية ومن تطورات بعيدة المدى مكنت الدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية من الانتصار على الثقافات المحلية والعقائد المجوسية.

ثم قامت الدعوة العباسية في خراسان فألهبت المشاعر وأيقظت الاحاسيس ووعدت الناس بالتغيير والعهد الجديد. فكانت والحالة هذه منعطفا جديدا آخر في تاريخ هذه الاقاليم. فتحركت الجموع تطالب بالوضع الافضل والحالة الأحسن .واستغلت الحركات المناهضة للحكم العربي الاسلامي والعقيدة الاسلامية هذا الوضع الجديد وبدأت تروج لعقيدتها المجوسية الجديدة من زندقه وخرميه وتطالب باعادة المجد الفارسي القديم.

ومما زاد في الطين بلّة ان نشبت الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون فتحصن المأمون في خراسان وبعد نجاحه اتخذ من مرو عاصمة له وهكذا اصبحت خراسان مركزا للخلافة العباسية فتحفزت الميول الانفصالية والنزعات الاقليمية. وقد ادرك المأمون ذلك وانتبه الى خطورته ورأى ان خير وسيلة لعلاجه هي اللامركزية الادارية فمنح خراسان حكما ذاتيا وسار على النهج نفسه الخلفاء الذين جاءوا من بعده محاولين كبح جماح الحركات الخطيرة التي تستغل الميول الاقليمية والنزعات الانفصالية لتزرع من خلالها مبادئ هدفها تقويض الحكم الاسلامي والعقيدة الاسلامية والعودة بهذه الاقاليم الى ماكانت عليه في عهود الساسانيين المجوس. ولذلك نلاحظ أن الخلافة العباسية سلمت خراسان الى طاهر بن الحسين وبلاد ماوراء النهر الى أسد بن سامان وابنائه في حقبة مبكرة جدا وهي سنة ٢٠٤هـ ــ ٢٠٥هـ / ٨٢٠م. ومنذ ذلك الحين أستمرت التبدلات على الخريطة السياسية للمشرق الاسلامي حتى مجئ المغول واجتياحهم المنطقة.

ولكن هل كان هذا الاجراء الذي ابتدعه الخليفه المامون في المشرق اجراءا صحيحا من الناحية التاريخية؟ وما أثر هذه الكيانات السياسية المتعاقبة على الخلافة العباسية ــ الدولة الأم ــ وعلى الحضارة العربية الاسلامية ــ الحضارة الام؟ أو هل كانت هذه الكيانات مظاهر ايجابية ام سلبية؟

والذي يبدو لنا ان الخلافة العباسية في اواخر عصرها الاول بدأت تفقد السيطرة من الداخل وبمعنى أخر بدأت عوامل التجزئة والانفصال ترجح على عوامل الوحدة والتماسك. وحول هذه الظاهرة يرى توينبي ان الفرق الاساسي بين مرحلتي القوة والضعف هو أن الاقلية المبدعة ــ التي سماها ابن خلدون بالعصبية ــ في المجتمع في المرحلة الاولى تكون قادرة على القيام بردود فعل ناجحة على التحديات التي تواجهها ولكنها في مرحلة الضعف (المرحلة الثانية) تبدو عاجزة عن القيام بهذه المهمة ولذلك فهي تنقلب الى اقلية مسيطرة تحاول الحفاظ بالقوة على السلطة التي لم تعد تستحقها وعندئذ يبدأ عصر التفكك والاضطراب وهو بداية النهاية.

لقد بدت الخلافة العباسية في اواخر عصرها الأول وكانت غير قادرة على مجابهة التحديات بردود فعل ايجابية. فلقد تمسك الخلفاء الاوائل برابطة الدين بكل ماتمثله من مظاهر الوحدة السياسية والاجتماعية ... ولكن ظهرت بين سكان الاقاليم دعاوى جديدة سياسية ودينية لها علاقة بعقائد هذه الشعوب قبل الاسلام واستغلها زعماء طموحون لتحقيق مآربهم الخاصة وقد كانت ردود فعل الخلفاء العباسيين الاوائل ناجحة وقوية ضد هذه الحركات، الا ان من جاء بعدهم لم يجهد نفسه كما فعلوا ونزع المسؤولية عن عاتقه ليضعها على كاهل غيره في بغداد او الاقاليم مثل امراء الطاهريين او الصفاريين او السامانيين او غيرهم. ولعل هؤلاء الخلفاء كانوا يظنون ان اجراءهم هذا هو الصواب ولكن التاريخ أثبت انه كان اجراءا خاطئا من الناحية السياسية في الاقل.

فمن الناحية السياسية كانت ظاهرة الدويلات الاسلامية في بلاد فارس كما في غيرها من اقاليم الخلافة نزعات اقليمية وحركات انفصالية عن جسم الخلافة الام (العباسية) أعطت ثقلا الى عوامل الهدم والانهيار ليس بانفصالها سياسيا وعسكريا حسب بل في تبني بعضها مبادئ متطرفة او سماحها بانتشارها ولتشجيعها اللغة الفارسية والثقافة الاقليمية على حساب الثقافة العربية الاسلامية.

ولابد لنا ان نتذكر سقوط الخلافة العباسية ونسأل أكان بالامكان حدوث ذلك لو بقيت الارض واحدة والقيادة واحدة؟ لقد بقي الخليفة العباسي مسلوب السلطة وانشغل أمراء الدويلات بطموحاتهم الشخصية وتنافسهم على المزيد من الارض والنفوذ ... وتساهلوا او سمحوا بعقائد باطنية ومنحرفة بالنمو والانتشار .. بل حالف بعضهم العدو وارتبط به ضد الخلافة الام في بغداد وماتمثل من قيم روحية وحضارية ... فكانت النتيجة النهائية سقوط الخلافة وتساقط هذه الدويلات الواحدة تلو الاخرى.

اما الحضارة العربية الاسلامية فإنها قبلت التحدي وصارعته بنجاح واحتوته وفي هذا المجال يعلق الدكتور عماد الدين خليل قائلا:

« إن الذي حدث على مسرح تاريخنا اذن لايعدو أن يكون حركة تغيرات نسبية كانت تحدث دائما تبدلا من جغرافية العالم الاسلامي السياسية، ولكن حضارته ظلت تملك ديمومتها واستمراريتها عبر الحدود الاقليمية المتبدلة وعبر حركات الانفصال ... التي ماكانت لتنطفئ الواحدة تلو الاخرى لولا انها كانت بمثابة الشذوذ عن الارضية الواحدة لحضارتنا ووجودنا ».

تبحث فصول هذا الكتاب في تاريخ بلاد فارس السياسي منذ الفتح العربي الاسلامي لها حتى مشارف التاريخ الحديث حين بدأ الصفويون يسيطرون على مقاليد الحكم فيها. ولابد من الاشارة الى عدم وجود كتاب باللغة العربية يضم بين دفتيه التاريخ السياسي لبلاد فارس (ايران) خلال المدة موضوعة البحث ولهذا كان لابد من تأليف كتاب يتناول تاريخ ايران السياسي خلال العصور الاسلامية الوسطى فكان هذا الكتاب الذي نرجو ان يفي بالغرض الذي ألف من اجله.

اما الغرض من تأليف هذا الكتاب فهو مساعدة طلبة قسم الدراسات الشرقية (اللغة الفارسية) في التعرف على الخطوط العامة والمهمة لتاريخ ايران السياسي خلال الحقبة الاسلامية الوسطى منذ القرن الاول الهجري / السابع الميلادي حتى البداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. ومن الطبيعي ان تسير فصول الكتاب وفق المنهج المقرر لذلك.

على ان مافي هذا الكتاب المنهجي من معلومات تاريخية تفيد كذلك طلبة قسم التاريخ وكذلك المثقف العام الذي يود معرفة المعالم الرئيسية لتاريخ ايران خلال تلك الحقبة.

وقد قام الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي بكتابة المقدمة والفصل الأول والثاني والثالث والرابع وكذلك بحث الخوارزمية والحشيشية من الفصل الخامس. اما الدكتور مرتضى حسن النقيب فكتب الفصل الخامس عدا الخوارزمية والحشيشية، والفصل السادس والفصل السابع.

هذا ونسأل الله ان يوفقنا لخدمة جامعتنا ومجتمعنا ومنه نستمد العون فهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلفان

بغداد ١٩٨٨

المقدمة

الكتابة التاريخية الفارسية

لعل أهم نتيجة حققها قيام الدولة العربية الاسلامية هي إنتهاء تلك الحروب الطويلة الأمد والمدمرة بين الامبراطورتين الساسانية الفارسية والبيزنطية (الرومية) مما أدى الى حالة من الاستقرار والازدهار لم تشهدها المنطقة منذ قرون.

فقد عاش سكان الامبراطوريتين وخاصة الاقاليم الحدودية كالعراق والشام والجزيرة الفراتية حالة حرب شبه مستمرة خلال القرن وربع الأخير قبل ظهور الاسلام. وكان تأثير هذه الحروب واضحا في النزيف الدموي والاستنزاف الاقتصادي وتخريب الأراضي والمدن وارهاق الشعوب بالضرائب والتكاليف وسلب إلجهات العقالدية والخاصة.

وقد نجم عن حالة الأمن والاستقرار إزدهار حضاري في مجالات عديدة شاركت فيه شعوب عديدة مع العرب المسلمين صانعي الدولة الجديدة. والذي يهمنا هنا هو النهضة الثقافية وعلى وجه الخصوص الكتابات التاريخية وموقف الفرس منها.

ولابد ان نشير بدءا الى أن الفرس فئتان: الاولى آمنت بالاسلام واخلصت لمبادئه ووالت الدولة العربية الاسلامية وتبنت الفكر العربي الاسلامي وحاربت المبادئ المناهضه والمعادية. وقد ظهر من هذه الفئة العديد من المفكرين والمؤرخين والأدباء والعلماء الرواد. ويهمنا في هذا المجال مجموعة من المؤرخين على رأسهم الطبري صاحب التاريخ وكذلك التفسير، وابن قتيبة صاحب كتاب العرب وكتاب المعارف وعيون الاخبار وغيرهما، والجاحظ صاحب الكتب والرسائل المشهورة في الدفاع عن العروبة والاسلام تجاه مفتريات وأباطيل الشعوبية والزندقه. لقد اثبتت كتب هؤلاء الفرس المسلمين والموالين للفكر العربي الاسلامي والمخلصين للدولة العباسية قبل غيرهم من الكتاب وحدة التاريخ العربي الثقافي بحيث بات كل عصر متمما للآخر كما في عيون لاخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ. واثبتت وحدة التاريخ العربي السياسي كما في كتاب المعارف لابن قتيبة كذلك. وأشاد الجاحظ بعرب الجاهلية وكياناتهم السياسية والحضارية. بل راح هذا الكاتب نفسه يؤكد على وحدة الامة لا القبيلة ومالقبائل الا مظهر من مظاهر الأمة الواحدة(١). وتبنى الطبري في تفسيره «للشعوب» وجهة النظر العربية الاسلامية المناهضة لوجهة النظرا الشعوبية. فقد قال الطبري إن الشعوب وحدة إجتماعية اكبر من القبيلة والعشيرة ،بينما رأت وجهة النظر المعادية أن الشعوبية تعني الفرس وفضلتهم على العرب (٢). اما الفئة الثانية فهي التي تسترت بالاسلام ظاهرا وتمسكت بنزعتها الفارسية بكل ماتشمل هذه النزعة من مثل وقيم وتقاليد. وبقدر مايتعلق الأمر بالمجال الثقافي والتاريخي فقد حاولت هذه النزعة ان تشكك بدور العرب التاريخي وفضلهم في الاسهام بالحضارة الانسانية وحاولت التشويه والدس عبر حقب التاريخ العربي الاسلامي ماامكنها ذلك. ولعل الباحث يكتشف امثال هذه الروايات في كتاب الاخبار الطوال

للدينوري (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) حيث تبالغ في دور الفرس مثل ابي مسلم والبرامكة بل انها تجعل من بعضهم ابطالاً اسطوريين. كما ان الدينوري يهمل بعض المؤامرات الفارسية ضد الدولة كمؤامرة الحلاج مثلاً(٣). ونجد مثل هذا الميل كذلك في كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني(٤).

وتهتم كتب التاريخ المحلي الفارسية باقاليم بلاد فارس وتفصل في احداثها السياسية او غير السياسية ولذلك فإن بعض الاحداث او الحركات التي يشير اليها الطبري بسطر او فقرة قصيرة، تشير اليها مصادر التاريخ المحلي بكثير من التفصيل والاسهاب. على ان الموقف العدائي لكثير من هذه التواريخ للسلطة المركزية في بغداد وسياستها في بلاد فارس واضح تماما، كما أن ميل مؤرخي التاريخ الفارسي المحلي لحركات التمرد والمعارضة وتأييدهم لها واضح أيضا.

ومن التواريخ المحلية لبلاد فارس تاريخ طبرستان وتاريخ سيستان وتاريخ اصفهان وتاريخ قم وتاريخ بخارى وغالبيتهم يتميزون بنزعة إقليمية واضحة ويهاجمون السلطة العباسية(٥). حاول بعض المؤرخين كتابة تاريخ الفرس قبل الاسلام. بل ان بعض الرواة من الشعوبيين كانوا — على حد قول الجاحظ نفسه — ينتحلون الاخبار والروايات ويصنفون الكتب في تاريخ الفرس وتراثهم قبل الاسلام حتى اختلط على المرء الصحيح بالموضوع(٦). ولعل اشهر من كتب في ذلك ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) الذي ألف كتابة الموسوم (غرر سير ملوك الفرس)(٧). كما ان الفرس يؤكدون على (شاهنامه) الفردوسي(٨) ويعدونها كنزا زاخرا بتراثهم وقد ترجم (الشاهنامه) الى العربية الفتح بن علي البنداري. كما ان لدينا القليل من الوثائق والعهود التي تعود الى العصر الساساني. ولهذا تزخر كتب التاريخ العربية التي تذكر اخبار الفرس قبل الاسلام بالكثير من الاساطير والحكايات المفعمة بالخرافة(٩). ولهذا أيضا فإن من الحقائق المعروفة لدى المختصين بتاريخ بلاد فارس عدم وجود كتاب تاريخي باللغة الفارسية يتعلق بتاريخ فارس حتى بدايات العصر المغولي (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)، وان الذي يبحث عن تاريخ بلاد فارس في العصر الاسلامي (١هـ — ٦٥٤هـ / ٦٤٢ — ١٢٥٥م) لابد له ان يعتمد على كتب التاريخ العربي الاسلامي العام المكتوبة باللغة العربية في غالبيتها العظمى. ويبدو أن عملية التدوين التاريخي لم تلق اهتماما كبيرا لدى الفرس قبل الاسلام ودليلنا على ذلك عدم وجود كتاب تاريخي بالمعنى الحقيقي لدى الفرس قبل الاسلام. وقد دفع هذا النقص العديد من المؤرخين — ذوي الاصل الفارسي — كالطبري والدينوري والبيروني وابن قتيبة الى اتخاذ النموذج العربي في الكتابة التاريخية. هذا اضافة الى كونهم كتبوا باللغة العربية لغة الدين والدولة ،واللغة التي شاعت وانتشرت في ارجاء الحواضر الاسلامية بوصفها لغة الثقافة. ولذلك فلم يكن من الحكمة كتابة التاريخ بغير اللغة العربية.

لقد كانت اللغة العربية ــ لغة القرآن والدواوين والثقافة ــ بالنسبة للعالم الاسلامي كاللغة اللاتينية بالنسبة للعالم الاوربي الغربي في العصور الوسطى(١٠). فهي الواسطه المهمة للعلاقات والارتباطات بين شعوب الدولة الاسلامية الواحدة. ولكن هل كان كل الفرس ميالين الى تكوين هذه الارتباطات والنماذج؟ لقد كانت طبقة النبلاء والدهاقين ورجال الدين الزرادشت ضد هذه النزعة ،وهذا لم تكن تشجع انتشار اللغة العربية او الاسلام بين الفرس لأسباب اجتماعية واقتصادية خاصة بها. وقد استمرت هذه الطبقات الفارسية تشجع تداول اساطير الملوك الفرس القديمة وتستذوقها في مجالسها ولم تهتم من بعيد او قريب بتاريخ بلاد فارس في العصر الاسلامي(١١). فهذا أمر لايهمها ولعل ذلك يعد سببا آخر لعدم كتابة المؤرخين الفرس في هذه الحقبة المبكرة لكتبهم باللغة الفارسية. لقد ادرك هؤلاء المؤرخون ان من العبث كتابة تاريخ فارس الاسلامي لمجتمع لا يهمه هذا التاريخ حتى لو كتب باللغة الفارسية!!

على ان اللغتين العربية والفارسية اثرتا في بعضهما فدخلت العديد من الكلمات العربية في اللغة الفارسية كما ظهرت اشعار وحكم ورسائل ديوانية وقصص واسمار وخرافات وتوقيعات عربية في لفظها وأسلوبها ولكنها فارسية في معانيها وموضوعاتها. ولعل ذلك يدل على مرونه الفكر العربي ــ الاسلامي في مقابل الفكر الشعوبي المتزمت(١٢).ففي الوقت الذي استمر فيه الشعوبيون ومن يساندهم من الدهاقين ورجال الفرس في التمسك بما عندهم من أساطير ملوكهم وحكاياتهم الفارسية لايرتضون لها بديلا. تقدمت الثقافة العربية الاسلامية الى منتصف الطريق وابدت مرونة ورغبة للتمازج والتبادل الثقافي مع الفرس فنقلوا من الفارسية ما وجد من حكم وتوقيعات ورسائل ديوانية يدل اسلوبها في التفخيم والتبجيل على انها فارسية. ويمتدح ابن قتيبة(١٣) هذه النزعة الجديدة المرنة ويعطي امثلة ونماذج من الجيل الجديد من المثقفين الذين مازجوا اللغتين والثقافتين أمثال موسى بن سيار الاسواري والعتابي. بل ان الجهشياري نفسه شرع في تأليف كتاب يضم ألف سمر من اسمار العرب والعجم والروم «فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة .كل سمر تام يحتوي خمسين ورقة اقل او اكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء مافي نفسه من تتميمه ألف سمر» (١٤). واكثر من ذلك فإن خلفاء الدولة العباسية ووزراءها لم يجدوا حرجا في الاقتباس من الحكم والتعليقات الفارسية في «توقيعاتهم» على شكاوى الناس وعرائض المتظلمين.(١٥)

وليس يهمنا هنا ان نؤرخ لتطور الادب الفارسي الجديد ،شعرا ونثرا، تحت ظل الاسلام المتسامح الا اننا نقول ان هذا الادب بدأ بالظهور بقصائد بسيطة وقليلة مع بدايات القرن الثالث الهجري ثم نهض مع ظهور الامارات الفارسية الجديدة في بلاد فارس حيث تعددت المراكز الثقافية من طاهرية في خراسان وزيارية في الديلم وطبرستان وسامانية في بخارى وسمرقند وغزنوية في غزنة وبويهية في اصبهان والري .فقد كان لكل امارة من هذه الامارات دورها في حركة الاحياء الادبي الفارسي الجديدة وترعرع في بلاطها العديد من الشعراء لعل اهمهم الرودكي والدقيقي في العصر الساماني. ثم بلغ اوجه في العصر الغزنوي مع ظهور الفردوسي صاحب الشاهنامة (٣٠٨هـ ــ ٤١١هـ/١٠٢٠م)(١٦).

ونعود الى التدوين التاريخي الفارسي الذي دخل منعطفا جديدا بظهور الامارات الفارسية في اقاليم عديدة من بلاد فارس. ويمكن تقسيم هذه الامارات من حيث اهتماماتها بالتاريخ الى اصناف ثلاثة:

الاول: وهو الصنف الذي يمثل العودة الى القيم الزرادشية والمجوسية والى التقاليد الساسانية وخير من يمثل هذا الصنف الزياريون وامراء طبرستان ومازندران. ومن البديهي ان هؤلاء لم يكن يهمهم في شيء تاريخ بلاد فارس الاسلامي ،بل ان تأكيدهم كان على ايران المجوسية!!

الثاني: ويمثله أمراء الزيدية في جيلان والصفاريون سجستان الذين كانوا يخالفون مذهب الدولة العباسية .ولم يهتم هؤلاء بالتدوين التاريخي قدر اهتمامهم بتمييز أنفسهم عن الخلافة العباسية من الناحية المذهبية ولهذا ركزوا على تطور المذهب اكثر من التاريخ.

الثالث: ويمثله السامانيون في خراسان الذين دانوا بالطاعة للخلافة العباسية ولمذهبها وأدوا دورا بارزا في تطور التدوين التاريخي بالفارسية في ايران. فقد رعوا العديد من شعراء الفارسية. كما شجعوا البلعمي على ترجمة تاريخ الرسل والملوك للطبري. وكانت هذه الترجمة مهمة جدا ثقافيا وسياسيا. فمن جهة يعد كتاب البلعمي المترجم ٩٦٣م / ٣٥٣هـ من اقدم النصوص النثرية الفارسية(١٧)، ومن جهة اخرى فإن السامانيين ارادوا ان يعبروا بعملهم هذا عن اعتقادهم بان مصير اهل فارس لابد وان يتوحد مع مصير الجماعة الاسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة العباسية في بغداد.

ولكن الاوضاع السياسية سرعان ماتبدلت وغدت معظم اقاليم بلاد فارس تحت سيطرة كيانات سياسية تركية جديدة كالغزنويين والسلاجقة والخوارزمية. والغريب ان هؤلاء الترك تبنوا سياسة رعاية وتطوير اللغة الفارسية بحيث غدت اللغة الثانية في العالم الاسلامي خلال هذه الحقبة .وفي هذه الحقبة دخلت العديد من الكلمات والمصطلحات العربية الى الفارسية. خاصة وان الترك شجعوا أستخدام الفارسية مثلهم مثل امراء الامارات الفارسية السابقين .

ورغم انه لم يعرف عن الترك تشجيعهم لمؤرخين من الفرس لكتابة التاريخ الفارسي بل اكتفوا بتاريخ البلعمي ومايمثله من شمولية اسلامية، فإنهم سمحوا للفردوسي بكتابة الشاهنامة التي اصبحت دستور الحياة والمرشد المهم لفئات من الدهاقين والنبلاء الفرس الذين كانوا لايزالون يحيون حياتهم متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم الساسانية. بل ان السلاجقة في ايران تناسوا اصلهم التوراني واندمجوا في المجتمع الايراني، وتبنوا تقاليده بل عقدته تجاه العراق والخلافة العباسية.

ولكن ذلك لايعني انتصار الفارسية في بلاد فارس على العربية فقد ظلت الثقافة في بلاد فارس بعد ذلك اكثر من ثلاثة قرون ثنائية اللغة وكانت الكتب تؤلف بالفارسية والعربية على السواء .كما ان الترك لم يكونوا قانعين بكل ماكتبه الفردوسي في (الشاهنامة) خاصة في تمجيده الزرادشتيه وماضي ايران الساساني، ذلك لأن فئة من هؤلاء الترك دخلت الاسلام لأسباب عقائدية صرفة

وليست مصلحية ،ولهذا لم يسمحوا بانتشار اراء او وجهات نظر معارضة للاسلام او منافية له مصدرها الفرس المتسترين بالاسلام.

ولقد مرت مدة انتقالية كتب فيها المؤرخون الفرس باللغتين العربية والفارسية ،رغم ظهور كتب تاريخية فارسية خالصة لاتعتمد على مراجع عربية ولاتعرفها. وقد حدث ذلك قبل اواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي(١٨).

وبعد هذه المدة الانتقالية يأتي الحكم المغولي لبلاد فارس فيحدث تغيرا مهما في الكتابة التاريخية هناك حيث تختفي اللغة العربية تماما لغة لكتابة التاريخ. كما شجعت هذه المرحلة على ظهور كبار المؤرخين الفرس امثال علاء الدين الجويني (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) صاحب تاريخ جهانكشاي ورشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) مؤلف جامع التواريخ.

ولابد لنا ان نشير الى أن قيمة المؤلفات التاريخية الفارسية قبل الحقبة المغولية ليست كبيرة وبأستثناء البيهقي (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٧م) الذي كتب تاريخه المعروف في ثلاثين جزءا. ويشير الدكتور مصطفى الى «ان مجمل الأعمال التاريخية السابقة له والتالية لم تؤد الا الى نتائج هزيلة والى مؤلفات يغلب عليها الطابع الادبي وجمع النوادر..»(١٩).

اما تاريخ الفرس القديم (قبل الاسلام) فإنه باعتراف المؤرخين الفرس أنفسهم مشكوك فيه ورواياته موضوعة وأسطورية حيث يقول حمزة الاصفهاني: «تواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة». ويشكك موسى الكروي بكتاب (خداي نامة) وهو تاريخ ملوك الفرس الذي كان مصدرا لأغلب ماكتب عن تاريخ الفرس القديم ويؤكد انه «لم يظفر من هذا الكتاب بنسختين متفقتين» مما يدل على كثرة الوضع والانتحال فيه(٢٠). ويبرز فيها غلبة الطابع الفارسي على غيره وتبدو وكأنها في معزل عن التجربة العالمية.

اما المصادر الفارسية في الحقبة المغولية فاذا استثنيا الجويني ورشيد الدين فان ماتبقى من كتب لاتضيف في غالبيتها معلومات جديدة او مهمة الى ماتقدمه لنا المصادر العربية عن المدة نفسها. كما ان هذه المصادر مختصرة في معلوماتها وتؤكد بصورة خاصة على تاريخ ايران وتفصل فيه مما يضفي عليها صبغة فارسية خاصة على عكس مصادرنا العربية المعروفة ذات الصبغة الاسلامية والعالمية. كما تعتمد هذه المصادر على لغة فارسية مكتوبة بأسلوب فارسي فيه الكثير من التكلف والتفخيم والملئ بالمحسنات البديعية حتى ليصعب على الفرس انفسهم فهمه دون استعمال قاموس لغوي !! ولعل هذا ينطبق على كتاب (تجربة الامصار وتزجيه الاعصار) للشيرازي المعروف بوصاف الحضرة.

أن استعمال لغة ثانية غير العربية في التأليف كان بحد ذاته تطورا خطيرا احدث انفصاما فكريا وثقافيا ... كان له نتائجه في اتساع التدهور الثقافي والفكري في الاقاليم التي خضعت للسيطرة المغولية والايلخانية. وبقدر ما يتعلق الأمر بالكتابة التاريخية فاننا لانجد مؤرخا واحدا في

العراق مثلا بمستوى المؤرخين المعاصرين الذين ظهروا في بلاد الشام ومصر في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. هذا اضافة الى تأثر هذه المؤلفات منهجا ولغة واسلوبا بالمؤثرات الفارسية في الكتابة.

لقد اتخذ هذا الاسلوب في السرد التاريخي مثلا يحتذى به من قبل المؤرخين الفرس الذين جاءوا بعد وصاف الحضرة فأهتموا بالاسلوب وبلاغته اكثر من اهتمامهم بالحقيقة التاريخية بل ربما كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية. وقد استمر هذا النهج لقرون عديدة قبل ان تتخلص منه الكتابة التاريخية الفارسية .ولكن الاهم من هذا وذاك خلال الحقبة المغولية هو ـــ كما اشرنا ـــ ضياع اللغة العربية كلغة ثقافة وتأليف في المشرق وخاصة ايران بعد ان كانت هذه اللغة قد تمكنت وانتشرت على الصعيد الثقافي والعلمي خلال القرون الستة الاولى من تاريخ الاسلام .اما بعد الهجمة المغولية الشرسة فقد انتهت اللغة العربية لغة تأليف وإدارة وثقافة عامة رغم أن بعض الكتب الفقهية استمرت تكتب بلغة القرآن العربية.

وسنحاول استعراض المصادر التاريخية ذات الاهمية التي كتبت باللغة الفارسية او ترجمت اليها خلال الحقبة الاسلامية:

كتاب خداي نامة في تاريخ ملوك الفرس وسيرهم ... ويبدو ان معظم من كتب في تاريخ الفرس القديم قبل الاسلام اعتمد عليه واستقى معلوماته منه. ورغم أن حمزة الاصفهاني (ت ٣٦٠هـ تقريبا) لم يكتب بالفارسية الا ان ماألفه من كتب وخاصة تاريخ سني ملوك الارض والانبياء وتواريخ كبارالبشر من مضى منهم ومن غبر وكتاب اصبهان واخبارها اهتمت باخبار بلاد فارس واحداثها وملوكها مما أسهم في ترويج تاريخ الفرس قبل الاسلام وبعده.

وقد كتب مرزبان بن رستم بن شروين (مرزبان نامه) باللهجه الطبرية وأهداه لأحد امراء الدولة الزيارية ثم نقله سعد الدين الوراويني الى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري ٦٠٧هـ تقريبا.
وقد ألف العتبي (ت ٤٢٧هـ) كتابه اليميني للسلطان محمود الغزنوي (يمين الدولة) وترجم الكتاب الى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري ناصح الجرباذقاني.
وألف البيهقي (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٧م) كتابه تاريخ البيهقي عن الغزنويين في القرن الخامس الهجري وتتميز كتابته باسلوبها السهل. ولم يبق منه الا خمس مجلدات طبعت عدة طبعات كما ترجمت سنة ١٩٥٦ الى العربية.

وكتب الكرديزي (اواسط القرن الخامس الهجري) كتابه عن تاريخ خراسان وسماه (زين الاخبار) الذي يتناول تاريخ خراسان من الفتح العربي الاسلامي حتى اواسط القرن الخامس تقريبا. كما ألف في القرن نفسه ناصري خسرو (ت ٤٨١هـ/١٠٨٧م) كتابه (سفرنامة) بالفارسية. ونظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) كتابه سياسة نامة.

آما القاشاني الذي وزر للعباسيين والسلاجقة وتوفي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م فقد كتب بالفارسية كتابا سماه (فتور زمان الصدور المبني عن القرون الخالية في العصور)، كما كتب نظامي عروضي السمرقندي (ت ٥٦٠هـ / سنة ١١٦٤م) كتابه مجمع النوادر أو (جهار مقالة) بالفارسية. وألف ابن فندق البيهقي الخراساني (ت ٥٦٥ هـ / سنة ١١٦٩م) كتابة (مشارب التجارب وغوارب الغرائب) بالعربية والفارسية وينتهي سنة ٥٤٩هـ. كما أتم البيهقي الثاني عمل البيهقي الأول بأن الف ذيلا لتاريخ بيهق نهج به منهج التراجم لا الاحداث.

وكتب النيسابوري كتابا في تاريخ السلاجقة بالفارسية سماه (سلجوقنامة) يحوي أخبار السلاجقة حتى سنة ٥٩٠هـ / سنة ١١٩٤م . وقد ذيل عليه عدد من المؤرخين. كما ألف الراوندي (ت ٥٩٩هـ) كتابه (راحة الصدور وآية السرور) ،ومبارك شاه فخر الدين (شجرة نساب الفرس) في حوالي سنة ٦٠٢هـ / سنة ١٢٠٢م.

ولفخر الدين الرازي محمد بن عمر التميمي (ت ٦٠٦هـ بهراة) كتابا في التاريخ بالفارسية اسمه (حدائق الأنوار في حقائق الأسرار) واهداه الى سلطان الخوارزمية علاء الدين تكش.وقد كتبه بالعربية كذلك واعطاه اسما جديدا هو (جامع العلوم).

وألف عميد الملك بن الكرماني (ت ٦١٢هـ) ثلاثة كتب بالفارسية كلها في تاريخ كرمان هي (عقد العلى للموقف الاعلى) و(بدائع الزمان في وقائع كرمان) وذيل وقائع الزمان.

وظهر في هذه الحقبة تاريخ طبرستان بالفارسية لابن اسفنديار (ت ٦١٧هـ) وظهر قبله عدد من كتب التواريخ المحلية مثل تاريخ سيستان وتاريخ هراة وتاريخ همذان وكلها لمؤلف مجهول او اكثر.

ثم ظهر كتاب (لباب الالباب) بالفارسية لمحمد عوفي (ت ٦٣٣هـ) وهو معجم لشعراء الفرس .وألف النسوي (ت ٦٤٧هـ) صاحب كتاب سيرة جلال الدين منكبرتي كتابا أخرا بالفارسية سماه (نفثة المصدور في فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور). اما الجوزجاني (ت ٦٥٩هـ) فله بالفارسية (طبقات ناصري) الذي انتهى من تأليفه سنة ٦٥٩هـ واهداه للأمير ناصر الدين محمود شاه. وللمؤلف كتب تاريخية اخرى بالعربية.

اما ماكتب من المصادر الفارسية في الحقبة المغولية فلعل رسالة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) في فتح بغداد تعد أول تاريخ لسقوط بغداد كتبه شخص شارك في العملية لأنه كان مقربا لهولاكو وعن طريقه إتصال بشخصيات سياسية بالعراق.

وربما كان أهم كتابين عن هذه الحقبة باللغة الفارسية كتاب عطا ملك الجويني (٦٨١هـ) الموسوم جهانكشاي اي فاتح العالم خاصة وانه كالطوسي رافق حملات المغول ثم استوطن بغداد بل تولى مسؤولية الادارة والحكم فيها لأكثر من عشرين سنة. ثم كتاب رشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨هـ) الموسوم (جامع التواريخ) وقد اكمله حافظ أبرو (ت ٨٣٤هـ) بذيل

وضعه له. وتأتي بعدهما عدد من التواليف منها ما اشرنا اليه مثل طبقات ناصري وتاريخ وصاف ومنها مالم نشر اليها مثل : خوندمير ومؤلفه (حبيب السير في أخبار افراد البشر) والراوندي (راحة الصدور وآية السرور) والقزويني (تاريخ كزيدة) (ونزهة القلوب) وميرخولد (روضة الصفا) ولاتضيف هذه المصادر المتأخرة معلومات مهمة الى ماتقدمه لنا المصادر العربية، ومن الطبيعي ان تركز إهتمامها بأحداث بلاد فارس اكثر من بقية الاقاليم الاسلامية.

لقد أدرك الباحثون المحدثون في تاريخ بلاد فارس في العصر الاسلامي الوسيط محاولات فئات عديدة في ذلك الاقليم لابقاء «التديم على قدمه» وقد ظهرت هذه المحاولات بمظاهر عديدة منها التميز او الانحراف اوعدم الامتزاج في الخط العربي الاسلامي العام ،الذي تبنته الخلافة وعملت على توكيده فكرا وسياسة في كل اقاليم الدولة، او التعالي والفطرسة التي لامبرر لها غير النزعه الشعوبية(٢٣).

كما لاحظ الباحثون تعلق هذه الفئات الفارسية بتاريخ بلاد فارس قبل الاسلام والقيم التراثية الفارسية المجوسية ومحاولة الحفاظ عليها بشتى الوسائل بل جعلها بديلة للقيم العربية الاسلامية الجديدة. ولسنا هنا بصدد إستعراض وتحليل الدراسات التاريخية الحديثة عن بلاد فارس في العصر الاسلامي الوسيط،الا أننا نود أن نشير الى استغلال المستشرقين لهذا الموقف الفارسي «المتعالي» او «المتمرد» او «المنحرف» او سمه ماشئت من الاسلام والخلافة. حيث جابهت الدين والدولة نزعة فارسية ـــ مجوسية معارضه قادها فئات من الدهاقين والنبلاء ورجال الدين المجوسي هدفها إعاقة كل الجهود الرامية لنشر الدين الجديد بمثله وقيمه وعرقلة جهود الدولة في تثبيت حكمها لبلاد فارس .والتشبث بالقيم المجوسية بما تمثله في قيم دينية ونزعة عنصرية ضيقة.

بدأ إهتمام الاستشراق بتاريخ بلاد فارس مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي ولعل المحاولات الجادة الأولى بدأت مع السيرجون مالكولم حين نشر سنة ١٨١٥م كتابه الموسوم «تاريخ بلاد فارس» وتبعه براوان في كتابه «تاريخ الادب الفارسي» سنة ١٩٠٢م ثم كتب السيرسايكس كتابه «تاريخ بلاد فارس» سنة ١٩١٥. وكما هو معروف فان من الدوافع البارزة الى ظهور الاستشراق الحديث هو الدافع السياسي الأستعماري ،فالمنافسة بين الدول الأستعمارية للسيطرة على الهند واقاليم الشرق الأوسط اظهرت الحاجة الملحة الى معرفة احوال الشرق وتاريخه ونشر معلومات موثقه عن هذه المناطق التي غدت مهمة بالنسبة للحكومات الأوربية التي كانت لها مصالح حيوية في الشرق. على ان الدافع السياسي الاستعماري على اهميته لم يكن الدافع الوحيد للدراسات الاستشراقية فأزدهار التجارة مع الشرق وارتفاع مستوى الثقافة في اوربا وحب الأطلاع ساعد على إزدياد الرغبة لمعرفة تاريخ الشرق وحضارته في اوربا.(٢٤)

لقد اشار السيرسايكس حين تكلم عن هدفه من كتابة تاريخ بلاد فارس الى الحاجة الى وجود معلومات موثقة وحديثه لموظفي الحكومة البريطانية وعبر عن أمله من ان يكون الكتاب ذا

فائدة للحكومة البريطانية وصانعي القرار السياسي البريطاني والذين يؤثرون في تكوين الرأي العام البريطاني. واهدى كتابه الى موظفي حكومة الهند البريطانية والحكومة البريطانية في لندن.

واستمرت هذه السلسلة من المستشرقين المهتمين بتاريخ بلاد فارس بعد مالكولم وبراون وسايكس ولم تنقطع حتى وقتنا هذا رغم تغير الظروف والدوافع وتعددها. وبرز من بين هؤلاء المستشرقين نفر اكدوا على هذه «الخصوصية الفارسية» او الايرانية وابرزوها في بحوثهم. كما حاولوا بشتى الطرق والوسائل تسويغها بالرجوع الى تاريخ ايران القديم قبل الاسلام مستندين الى مصادر اسطورية وملاحم فلكلورية من تلك التي جمعها وأشاعها الفردوسي في شاهنامته. أما في تاريخ إيران الاسلامي فقد خلقوا مايسمى بـ«مشكلة الموالي» أي المسلمين من غير العرب وخاصة الفرس «وسوء معاملة العرب لهم» مستندين على روايات شاذة غير متواترة وعلى حالات استثنائية مؤكدين الزعم القائل «عن سياسة التمايز الاجتماعي والاقتصادي بين العرب والموالي التي سارت عليها الدولة».(٢٥)

لقد إنطلق بعض المستشرقين من هذه الاسس الخاطئة وبنوا عليها فرضيات خاطئة في تفسير تاريخ ايران الاسلامي فإذا بالثورة العباسية عندهم «ثورة قامت على اكتاف الفرس» واذا بالنظم الادارية والسياسية في العصر العباسي «نظم مبنية على افكار فارسية» واذا بالحضارة العربية الاسلامية «لم تزدهر الا بالعلماء الفرس، وان جل علماء الملّة الاسلامية من العجم»!! واذا بالشعوبية «حركة تدعو الى المساواة بين فئات المجتمع الواحد» وهي حركة «تنزع منزعا انسانيا ذا افق عالمي واسع يهدف الى خلق حضارة عالمية أساسها الثقافة الفارسية الآرامية» اما النزعة العربية ـــ الاسلامية المضادة للشعوبية فعند الفئة نفسها من المستشرقين «نزعة اقليمية ضيقة الافق رجعية»!! وهكذا عكس هؤلاء المستشرقون الأية تماما لأن الجاحظ وهو المفكر الاسلامي العالمي ـــ وكان فارسيا في أصله ـــ اكد في اكثر من مناسبة عنصرية الشعوبية وضيق افقها وعدم مرونتها امام النزعة العربية الاسلامية.(٢٦)

أما الزنادقة فهم ـــ عند الفئة نفسها من المستشرقين ـــ مفكرون احرار يحاولون الوصول الى الحقيقة. اما الحركات الخرّمية المسلحة في فارس وكذلك الحركات الانفصالية فهي نزعات استقلالية لتتخلص من «التسلط العربي الاسلامي» وبدايات «للنهضة الايرانية الجديدة»!!(٢٧)

ورغم أن التشيع مذهبا دينيا لم يظهر في بلاد فارس الا متأخرا في بداية العصر الحديث وان الحركة الشيعية العلوية كانت في مدة الخلافة الاسلامية حركة عربية، فإن العديد من المستشرقين ألصق التشيع العلوي ببلاد فارس منذ بداية الاسلام. فالبروفسورة لامبتون تقول:(٢٨)

«رغم أن التشيع غدا مذهب الاكثرية في فارس في العصر الصفوي فانه (اي التشيع) كان مذهبا متوطنا **endemic** في بلاد فارس»

بل أن بعض المستشرقين قال بالاصل الفارسي للتشيع العلوي. ومنهم ملّروفون كريمر وجويدي ودادمستتر، بل ان دوزي زعم أن التشيع فرقة فارسية بحتة !! فهو يقول:(٢٩)

«كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسية وفيها يظهر بصورة جلية ذلك الفارق بين العرب المحبيّن للحرية والفرس الذين اعتادوا الخضوع كالعبيد».

الواقع ان دوزي بالغ كثيرا بحيث إنحرف عن الصّواب، وربما كان من الاجدر القول إن مذهب التشيع شأنه شأن المذاهب الاسلامية الاخرى تبدلت وتغيرت وشوهت بعد دخولها الى بلاد فارس بفعل عوامل ومؤثرات عديدة.(٣٠)

وعلى هذا فإن الباحث المؤرخ لتاريخ إيران في العصر الاسلامي يفاجأ بالعديد من التخريجات الاستشراقية المغرضة هدفها إبراز موقع ايران «الخاص» ودور الفرس «المميز» في العالم الاسلامي ولسنا هنا في مجال حصر هذه التخريجات ولكننا نضرب بعض الامثلة على ذلك:

ففي سنة ١٩٠٠م كتب جولدشيهر(٣١) مقالا يؤكد النزعة الفارسية في مقابل النّزعة الاسلامية اختار له عنوانا مثيرا هو النزعة الاسلامية والنزعة الفارسية **Islamism and Parsism** وكتب بارتولد عن الشعوبية والعلم الحديث **Shubiyya and modrn science** أبان فيها اثر الشعوبية في التقدم الحضاري في عصر الخلافة!!

واكد فان فلوتن كلزنر وولهاوزن وفراي الامبراطورية العباسية «الفارسية»(٣٢)...

The Persian Empire of the Abbasids ...

بل أن المستشرق ويت(٣٣) يسمي الخلافة الاموية «بيزنطية جديدة» والخلافة العباسية «ساسانية جديدة»

The neo - Sassanid Empire of the Abbasids ...

ثم إن دخول بلاد فارس ضمن الدولة العربية الاسلامية لم يغير شيئا يذكر في تلك البلاد في نظر المستشرق فراي(٣٤) .. وهو يحاول ضمنا ان يطمس اي دور او اثر للعرب المسلمين في بلاد فارس.

Yet the transition from Persion to Arab eule apposeutly was neither agreat uphcaval nor agreat inuovation

ويلاحظ الباحث تعابير وتخريجات اخرى كثيرة في تفسير مواقف سياسية فارسية، كلها تؤكد الفكرة نفسها محاولة ابراز الدور الفارسي ... ففي تفسير ردة الفعل الفارسية ضد القيم العربية الاسلامية وضد السلطة السياسية الاسلامية نقرأ العناوين التالية:

الاسلام وايران متضادان ... **Islam Versus Iran**

الغزو الفارسي للأسلام ... **The Persian Conquest of Islam**

النهضة الفارسية الجديدة ... **The new Persian renaissance**

بل ان المستشرق فراي يزعم أن الشعوبية ارادت ان تحول الديانة الاسلامية الى ديانة فارسية — عالمية بدلا من بقائها ديانه عربية محدودة!! فهو كما اشرنا سابقا يقلب الصورة تماما لصالح الفرس!!

By the time of the Abbsid, the question at stake Was not Islam or Iran but rathr a persianised Internatonal Islam or a narrow Arab Islam

هذه نماذج قليلة من تخريجات بعض المستشرقين المهتمين بتاريخ بلاد فارس وكما لاحظنا فهم يحاولون دون جدوى ايجاد مسوّغات للنهج المتعنت والمعارض الذي سارت عليه ايران في العصر الاسلامي الوسيط ومن جانبنا فاننا نكتفي بالرد بالاقتباس فقط من محاضرة المستشرق أربجاني المتخصص بتاريخ ايران الذي قال قولة حتى اصبحت مثلا في كلامه أمام المؤتمر الدولي للاستشراق:

The persians are in the Islamic world but not ,, of it ... They always look with nostlgia across thirteen hundred years to pre - Islamic Iran ... Their heart is still in the suins of perso polis.

«إن الفرس ضمن العالم الاسلامي (جغرافيا) ولكنهم ليسوا من العالم الاسلامي. فهم لايزالون يتطلعون شفوقه عبر ١٣ قرنا الى ايران قبل الاسلام. ان قلوبهم لاتزال شفوفة بخرائب پرسوبولس (اصطخر)

حول تاريخ الكتابة التاريخية الفارسية راجع:

Browne, E : Literary history of persia, 2 vols. Combridge, 1902.

Sykes, P.M. : A History of persia, 2 vols. London, 1915.

Storey : Persian litteratur, London, 1935.

Barthold, W : Turkestan down to the mongol wvasion, London, 1958.

Spuler, B. : Iran in fruh ' Islamis cherzeit ... Wiesbaden, 1952.

B. Lewisand P.M. Holt : Historians of the Middle East, London 1962.

Malcolm, Sir John : History of Persia, London, 1815.

أحمد الحوفي: تيارات ثقافية بين العرب والفرس، القاهرة ١٩٦٨.
شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون،الجزء الأول والثاني ١٩٧٨ /١٩٧٩.
(خاصة الفصل الثامن عشر)
حسن احمد محمود: الاسلام في أسيا الوسطى القاهرة ١٩٧٢.
محمد عبد الهادي شعيرة: تاريخ المغول والدول الاسلامية الأسيوية القاهرة ١٩٦١.
(عن كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني)

Tibawi, A.L. English speaking Orientalsts, London, 1964.

عبد القهار داود العاني الاستشراق والدراسات الاسلامية بغداد ١٩٧٣.

Sadighi, Les mouvements religieu Iraniens ..., paris, 1938.

الهوامش

(١) الجاحظ ،ثلاث رسائل تحقيق كان كلاتن ص ٤٤.

(٢) الطبري، جامع البيان .. جـ١٠ ص ١٢٨.

(٣) الدينوري، الاخبار الطوال، ليدن، ١٨٨٨.

(٤) حمزة الاصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ،ليبزك ١٨٤٤.

(٥) راجع على سبيل المثال: تاريخي بخارى وتاريخي سيستان ووقوفهما بجانب الحركات المناهضة للخلافة العربية الاسلامية.

(٦) الجاحظ ،ذم اخلاق الكتاب، في رسائل الجاحظ، ص١٩١ فمابعد.

(٧) ابو منصور الثعالبي، غررسير ملوك الفرس ،بارس ،١٩٠٠.

(٨) الفردوسي، شاهنامة ،القاهرة، ١٩٣٢

(٩) كرستنسن، تاريخ ايران في العصر الساساني، مترجم ،القاهرة، ١٩٥٧، ص٤٦ — ٦٠.

(١٠) Browne, E., Literary history of Persia, 2 vols. Cambridge, 1902.

(١١) كرستنيسن ،المصدر السابق ،ص ٥٦.

(١٢) فاروق عمر، حول طبيعة الحركة الشعوبية ... مجلة المجمع العلمي العراقي ،١٩٨٥.

(١٣) ابن قتيبة ،في رسائل البلغاء ،ص٣٤٤ تحقيق محمد كرد علي.

(١٤) راجع حسن محمود ،الاسلام في أسيا الوسطى، القاهرة ١٩٧٢.

(١٥) المصدر السابق ص١١٤.

(١٦) راجع المصدر السابق ص٧٧ فمابعد.

كذلك: Browne, op.cit. p.235

(١٧) بلعمي، ترجماي تاريخي طبري، ١٩٠٦م

(١٨) راجع : شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون، جـ٢ بيروت ١٩٧٩، ٣٦٢ فمابعد عماد عبد السلام رؤوف ،التاريخ والمؤرخون العراقيون، بغداد ١٩٨٣، ص١٥ فمابعد.

(١٩) شاكر مصطفى، المصدر السابق.

(٢٠) المصدر السابق نفسه.

(٢١) الجويني، جهانكشا، عن المغول.

(٢٢) رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ ،عن المغول.

(٢٣) فاروق عمر الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، أفاق عربية ١٩٨٦

(٢٤) ادوارد سعيد، الاستشراق ،بيروت، ١٩٨١ (مترجم).

طيباوي، المستشرقون الانكليز، لندن، ١٩٦٤.

(٢٥) فان فلوتن، السيادة العربية، ليدن ،١٨٩٠، (مترجم)

ولهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، كلكتا، ١٩٢٢ (مترجم).

(٢٦) حول هذه الآراء راجع فاروق عمر، الاستشراق وتاريخ العصر العباسي ،دوريات آفاق ١٩٨٦

(٢٧) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين، بغداد ،١٩٨٥، ص ١٠٩ فمابعد.

(٢٨) Lambton, Islamic society in persia, London,1954

(٢٩) ولهاوزن،احزاب المعارضه في للاسلام، ص ٢٤٠ — ٢٤١

(٣٠) فاروق عمر ،الحركات الدينية — السياسية في بلاد فارس، آفاق عربية، ١٩٨٥.

(٣١) جولدتسهير الشعوبية ... ص ٢١

(٣٢) Frye, The Abbasid Conspiracy , I.I. 1952

(٣٣) Weit, L,empire neo - by 2antin, C.N.M., 1953

(٣٤) Frye, The heritage of Persia, 1962

(٣٥) Armajani, International Congress of the Oslwtalist.

(٣٦) فاروق عمر، العراق والتحدي الفارسي ،بغداد ،١٩٨٧.

الفصل الاول
الفتح العربي الاسلامي لبلاد فارس

فتح بلاد فارس:

لابد من الاشارة بدأ الى ان اصطلاح «بلاد فارس» يطلق على كل الاقاليم الايرانية رغم ان اقليم فارس هو احد الاقاليم الايرانية وهو يقع جنوبي غربي ايران. وكانت فارس في التاريخ القديم الولاية المركزية ومقر الحكومة في زمن الاخمينيين ولذلك استعمل اليونان اسم فارس (Perisis) ليدل على كل المملكة واستمر هذا الاستخدام الخاطئ في الكتابات الاوربية(١) ، حتى الوقت الحاضر.

كما ان اطلاق اصطلاح «بلاد فارس» على كل الاقاليم الايرانية كان معروفا لدى العرب المسلمين واستخدمه الرواة والمؤرخون المسلمون في العصور الوسطى الاسلامية.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أذن بالانسياح في بلاد فارس بعد سنة ١٧هـ /سنة ٦٣٨م (٢) وذلك للحفاظ على مكاسب الفتوح وأمن الدولة العربية الاسلامية ولمنع الملك الفارسي من تجميع اعوانه وانصاره. ففرق الامراء وبعث بالالوية مع سهيل بن عدي فكانت سبعة ألوية: لواء خراسان،لواء أردشير خره وسابور،لواء بسا ودار بجرد، لواء كرمان ،لواء سجستان،لواء مكران .والواقع ان معركة نهاوند سنة ٢١هـ /سنة ٦٤١م كانت مفتاح النصر الحاسم على الجيش الساساني حيث قصمت ظهر القوة الفارسية ولم يعد هناك مقاومة منظمة ولا موحدة كما لم يعد هناك وجود الى قيادة واحدة. وغدا كلُّ أمير او دهقان يقرر مصير مدينته او اقليمه كما يراه فمنهم من قاوم ومنهم منْ تعاهد على الصلح مع العرب المسلمين(٣). ومن هنا جاءت تسمية معركة نهاوند «بفتح الفتوح».

بعد معركة نهاوند دخلت عمليات الفتوح مرحلة جديدة فبعد ان كان المسلمون يفضلون جبهة الشام على جبهة العراق بدأت جحافل جديدة تهاجر الى البصرة والكوفة المصريين الجديدين للاشتراك في الجهاد حيث امر عمر بن الخطاب بالاندفاع في بلاد فارس لقطع دابر الشغب وليبأس الملك من عودة ملكه اليه حتى لا يكون كالشوكة في جنب المسلمين فعين رؤوساء الجند. ورغم ان الفرس تداعوا وتوافدوا وحاولوا تجميع انفسهم واثارة الحمية بينهم ،حيث اجتمع عليّه القوم مع الملك يزد جرد بنهاوند وتباحثوا في الامر وقالوا عن الخليفة عمر بن الخطاب:

«... ثم ملك عمر فطال ملكه وعرض حتى تناولكم وانتقصكم السواد والاحواز ثم لم يرضَ حتى أتى اهل فارس والمملكة في عقر دارهم. وهو اتيكم ان لم تأتوه فقد أخرب بيت مملكتكم واقتحم بلاد ملكم وليس بمنتَه حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين ثم تشغلوه في بلاده وقراره. وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا في ذلك كتابا وتمالؤوا عليه»(٤)

الا ان ذلك لم يغنهم من الامر في شيء .فقد إنساحت المقاتلة من العرب المسلمين في ديارهم واستولت عليها الواحدة تلو الأخرى.

ولكن لم تكن عملية فتح بلاد فارس سهلة ويسيرة. فقد كان المسلمون في العراق يحاربون في بلاد يعرفونها وساعدهم على تحريرها إخوانهم من عرب العراق. أما في بلاد فارس فهم يحاربون في بلاد غريبة عليهم وتضاريس وعرة ومناخ قارص كثير الثلوج. ثم أن سكان بلاد فارس من الايرانيين يختلفون في الجنس (آريين) واللغة والثقافة والدين (مجوسي). كل هذا وغيره جعل الفتح العربي الاسلامي لبلاد فارس اكثر صعوبة من غيرها .بل ان بعض الاقاليم أبدت مقاومة شديدة ولم تخضع الا لتتمرد ثانية ثم يعاد فتحها من جديدة وهكذا.(٥) كان العراق بمصرية البصرة والكوفة قاعدة العمليات الفكرية في بلاد فارس. وكان مقر الجند سواء كانوا من قبائل العراق او من الامدادات اخرى من عرب الحجاز والشام. هذا اضافة الى قاعدة عسكرية اخرى أدت دورها في الفتوحات الاولى عبر الخليج العربي ،وهذه القاعدة هي البحرين وقد تولت البصرة فتح الاقاليم القريبة منها من بلاد فارس مثل تستر وارمهرمز والسوس وجنديسابور وكذلك الاحواز. ثم أنها شاركت بنصيب كبير في فتح اقليم خراسان بحيث بلغ عدد مقاتلة اهل البصرة في خراسان على عهد سليمان بن عبد الملك اربعين ألف مقاتل(٦).

اما الكوفة فقد انطلق منها المقاتلة العرب المسلمون الى اقاليم بلاد فارس الشمالية فكان من مغازيها الري واذربيجان وأرمينية وطبرستان وجرجان(٧).

اما البحرين فقد كان من مغازيها اقليم فارس وكرمان، حيث محاولة العلاء بن الحضرمي الجريئة والخطيرة حين كاد يقع في مأزق حرج لولا الامدادات التي انقذته وجنده والتي وصلت في وقتها المناسب من البصرة. وقد تابعت البحرين فتوحاتها حيث هاجم الحكم بن ابي العاص اصطخر ثم امتدت الفتوح الى كرمان وسجستان(٨).

إن هذه القواعد الثلاث لم تكن منعزلة عن بعضها في خططها العسكرية في بلاد فارس بل أن احداثا عديدة جعلت التعاون والمشاركة ضرورة عسكرية وسياسية ملحة حيث كان اهل البصرة يساندوا أهل البحرين وأهل الكوفة يساندوا او يشاركوا اهل البصرة في عمليات عسكرية خاصة في الاقاليم او المدن التي تقاوم مقاومة شديدة أو الأقاليم التي تستسلم ثم تتمرد ثانية.

لقد تقدمت قوتان إسلاميتان لفتح اقليم فارس إحداهما من البحرين بقيادة عثمان بن ابي العاص ونجحت في احتلال بعض مدن الساحل الشرقي للخليج العربي ولقيت مقاومة عنيفة(٩). اما القوة الأخرى فتقدمت من البصرة باتجاه اصطخر ولم تحقق مكاسب استراتيجية مهمة في البداية. ذلك لأنها كانت عنيفة لما عرف من تعصب أهل اقليم فارس للدولة الساسانية التي ظهرت فيهم وبينهم ولهذا كانت معقل العصبية الفارسية ومن اهم مراكز المجوسية الزرادشتية بمعابد نيرانها. ومن هنا جاء حقدهم ضد العرب المسلمين حيث تشير رواياتنا التاريخية الى ان

اصطخر (بيرسيبولس) القديمة نزعت السلطان العربي الاسلامي عدة مرات قبل ان تذعن للدولة الجديدة(١٠). لقد اكمل والي البصرة عبد الله بن عامر على عهد عثمان بن عفان فتح المدن في اقليم فارس ثم فتح اقليم سجستان حيث عبر من هنا باتجاه خراسان. وكان لسياسة زياد بن ابيه والي فارس وكرمان على عهد علي بن ابي طالب أثر في خضوعها للسيادة العربية الاسلامية.

أما اصبهان التي كانت تعد احيانا من اقليم الجبال واحيانا من خراسان(١١). فقد فتحت بعد معركة نهاوند. ثم تقدم المسلمون الى اقليم الري وهي من فتوح اهل الكوفة. فقد كتب الخليفة عمر الى واليه على الكوفة عمار بن ياسر يأمره بفتح الري وماحولها. فصالح ملك الري المسلمين على جزية سنوية مقدارها ٣٠ ألف درهم سنة ٢١هـ /٦٤١م.

ثم فتح العرب المسلمون قم وقاشان وبهذا اتصلوا بارض الديلم. ولكن الري لم تذعن للسيادة الجديدة فظلت تتمرد ويعاد فتحها حتى كان أخر من فتحها قرضه بن كعب الانصاري على عهد الخليفة عثمان ولم تستقم للمسلمين الا سنة ٥١هـ /٦٧١م في ولاية زياد بن ابيه على الكوفة.

اما اذربيجان(١٢) فكانت من فتوح الكوفة كذلك ذلك ان بقايا المقاومة الفارسية تجمعت من اذربيجان بعد انسحابها من الري. وأمر الخليفة عمر حذيفة بن اليمان مع اهل الكوفة بفتح اذربيجان سنة ٢٢هـ /٦٤٢م وقد طلب مرزبانها الصلح على ان يدفع الجزية وان تترك لهم حرية العبادة ولايسبى او يقتل احد منهم.

ولكن أذربيجان شأنها شأن الاقاليم الايرانية الاخرى نقضت الصلح مرات ومرات ويبدو انها لما نقضت الصلح اتاها عتبة بن فرقد السلمي من الموصل واخضعها. ثم عادت ونقضت على عهد عثمان بن عفان فأخضعها الوليد بن ابي معيط سنة ٢٥هـ /٦٤٥م.

وكان والي الكوفة الوليد بن عقبة اول من اسكن العرب في اذربيجان فقد ارسل جيشا من اهل الكوفة مع الاشعث بن قيس الذي صالحهم على مثل صلح حذيفة وعتبة واسكنها ناسا من العرب من اهل العطاء والديوان. ويبدو ان العرب كانوا من اهل المصريين (الكوفة والبصرة واهل الشام). وبنى مسجدا في اردبيل ومصرها. ويبدو كذلك ان بعض العرب إمتهنوا الزراعة وفضلوا الاستقرار هناك.

أما سيستان التي اطلق عليها العرب المسلمون اسم (سجستان) فقد اشرنا الى اضطلاع عبد الله بن عامر والي البصرة بفتحها حيث ارسل اليها الربيع بن زياد الحارثي فقطع الصحراء وهاجمها فاضطرت لطلب الصلح. ولكنها عادت وتمردت فحاصر اهم مدنها زرنج ثم دخلها صلحا واقام الربيع الحارثي بها اكثر من سنتين.

ثم نكث اهل زرنج الصلح فارسل اليها عبد الله بن عامر عبد الرحمن بن سمرة فحاصرها وصالح اهلها ثم اتم فتح الاراضي من ناحية الهند وفتح زابل وبست. وتمردت زرنج مرة إخرى بعد مقتل عثمان واعيد فتحها على عهد علي بن ابي طالب.

اما كرمان فقد هوجمت من قاعدة البحرين في عهد الوالي عثمان بن ابي العاص في خلافة عمر وابدت مقاومة مما ادى الى قتل مرزبانها في جزيرة ابن كاوان. ولكن الذي استطاع فتحها هو عبد الله عامر والي البصرة الذي ارسل مجاشعا السلمي ففتح الشيرجان عنوة وكذلك جيرفت حيث هرب العديد من اهلها الى مكران وسيستان.

اما مكران وهي من ارض السند فلم تحدث محاولة جدية لفتحها الا في عهد معاوية وواليه على البصرة زياد بن ابيه الذي وجه سنان بن سلمة الهذلي ففتح مكران عنوة ومصرها. وقد اكمل محمد بن القاسم الثقفي على عهد الحجاج بن يوسف مد الفتوحات الاسلامية الى السند باستيلائه على مدينة الديبل وبقتله داهر ملك السند حيث انفتح الطريق امامه الى المدينة المقدسة الملتان.

اما اقاليم الديلم وهي ثلاثة قزوين وجرجان وطبرستان .فكانت قزوين اول من مصرٌ على عهد عثمان بن عفان وولاية سعيد بن العاص على الكوفة. ولم تثمر محاولة الوالي نفسه في فتح جرجان وطبرستان سنة ٣٠هـ /٦٥٠م ،وبقي الوضع على ماعليه حتى جاء يزيد بن المهلب واليا على خراسان في عهد سليمان عبد الملك سنة ٩٦هـ /٧١٤م فسار بجيش كبير من اهل الكوفة والبصرة وخراسان والري والشام وتمكن من اخضاع جرجان وبنى فيها مدينة جرجان(١٣).

ثم سار من هنالك الى طبرستان جنوبي بحر قزوين فطلب الاصبهبذ الطبرستاني الصلح على جزية مقدارها ٤ ملايين درهم. ولكن اقاليم الديلم لم تهدأ وظلت تنتقض وتغدر خلال العصر الاموي والعباسي معا.

أما خراسان(١٤) فهي من اهم المقاطعات الايرانية وتقع شمالي شرقي ايران وكانت بعيدة عن مركز الامبراطورية الساسانية لذلك ظهرت فيها العديد من الفرق الدينية التي لاتدين بالمذهب الرسمي للدولة .ثم ان خراسان اقليم مزدهر تجاريا حيث تمر عبرها القوافل التجارية وفيها مراكز صناعة عديدة في مرو وهراة ونيسابور وخاصة النسيج والأسلحة.

ونظرا لازدهار خراسان وثروتها ولبعدها ولقوة حاميتها العسكرية فقد لجأ اليها الملك يزدجرد الثالث أملا في الاعتماد عليها في مقاومة العرب المسلمين. كما لجأ اليها العديد من الزعماء والنبلاء الفرس الذين هربوا من المقاطعات الايرانية الغربية امام المد العربي الاسلامي(١٥).

تم فتح خراسان في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد عبد الله بن عامر وقائده الأحنف بن قيس .ولكن المدن الخراسانية كانت تتمرد بين حين وآخر وتبدي مقاومة عنيفة للعرب المسلمين الذين عقدوا مع مرزبان كل مدينة صلحا منفردا(١٦).

وحين ولى الخليفة معاوية عبد الله بن عامر البصرة سنة ٤١هـ منحه صلاحيات حرب سجستان وخراسان مما يدل على استمرار الاضطرابات في مدن خراسان(١٧). ثم عين معاوية على خراسان قيس بن الهيثم السلمي الذي اعاد السيطرة على خراسان وقمع اضطرابات بلخ وهرات وباذغيس. وقد إستمرت عمليات الفتح وخطط استقرار العرب المسلمين في خراسان

خلال العصر الاموي وخاصة في زمن ولاية زياد بن ابيه على البصرة حيث ضمت اليه خراسان واهتم بأمرها اهتماما كبيرا.

ومن خراسان بدأ احتكاك المسلمين بالترك في بلاد ماوراء نهر جيحون وتركستان .وكان اول من اصطدام بهم الاحنف بن قيس في عهد عثمان بن عفان (رض).ثم قام المسلمون في العصر الاموي بعدة حملات ناجحة في تلك المناطق. على ان الفضل كل الفضل في فتح بلاد ماوراء النهر يعود لقتيبه بن مسلم الباهلي. ولكن التقدم العربي الاسلامي في هذا المجال لايدخل ضمن نطاق بحثنا فهو خارج حدود بلاد فارس(١٨).

ولعل أهم مايميز الفتوحات العربية الأسلامية في الجبهة الشرقية (خاصة بلاد فارس) هو عنف المقاومة الفارسية للزحف العربي الاسلامي واستمرار الارتداد ونقض الصلح .فلم تكن المقاطعة او المدينة تصالح حتى تنقض الصلح وتتمرد على الحكم العربي الاسلامي. ولعل ذلك طبيعي في حالة كهذه فالشعبان مختلفان في الدم واللغة والثقافة والعادات ... على ان الفارق المهم ان العرب كانوا اكثر اندفاعا وحماسا لنشر عقيدتهم الجديدة التي بثت فيهم روحا جديدة ،فكان عصر العرب عصر النهوض الجديد بينما كان عصر الفرس عصر الانحسار والادبار.

واذا كانت مدة الأمويين مدة إنتقال إستطاعت خلالها الدولة الجديدة ان تسيطر على امور بلاد فارس ردحا من الزمن كما ان الفرس تنفسوا خلالها وآفاقوا من الصدمة الكبيرة التي حلت بهم بسبب الفتوحات الاسلامية، فإن العصر العباسي ، شهد أعنف الاضطرابات والقلاقل في بلاد فارس .ولانحيد عن الصواب إذا قلنا ان العباسيين لاقوا من الاقاليم الفارسية ومن المؤامرات الفارسية أشد وأعنف مما لاقوه من الاقاليم والشعوب الاخرى في الدولة العربية الاسلامية .وقد انتهى هذا النزاع بتشكيل مايسمى الامارات الفارسية في بلاد فارس في العصر العباسي الثاني.

على ان عنف المقاومة لم تشمل كل شرائح المجتمع في بلاد فارس وطبقاته فلابد ان يكون هناك شرائح مستضعفه مغبونه وجدت في الاسلام منقذا وفرصة تاريخية للتخلص من قيودها ،وفئات تحققت من عدم جدوى المقاومة فقررت الدخول في الاسلام.ولعل من يمثل الاتجاه الثاني الاساورة الذين كانوا يشكلون تنظيما في الجيش الساساني ولكنهم قرروا الدخول في الاسلام بشرط السماح لهم بالنزول أينما شاءوا وان يلحقوا (بشرف العطاء) وحالفوا تميما في البصرة، ومنهم السيابجه والبخارية. ومن هذا الصنف أيضا من الدهاقين والمرازبه والنبلاء الصغار الذين خضعوا للحكم الجديد بموجب إتفاقيات بينهم وبين الامراء العرب المسلمين. ونصوص هذه المعاهدات يظهر انها كانت مرنة ومتوازنة ضمنت مصلحة هؤلاء الامراء والدهاقين وحفظت كيانهم.وضمنت كذلك مصلحة العرب المسلمين الجدد(١٩).

ان اهم الظواهر التي برزت من عملية الفتوحات على الاطلاق هو بروز دور العراق الطليعي في الحركات العسكرية والادارية قاعدة للعمليات العسكرية في كل البلاد الفارسية شمالها وجنوبها

والمهيمين على ادارة اقاليم بلاد فارس كلها، حيث كان ولاة العراق يعينون ويعزلون امراء الاقاليم الفارسية، ويعلون مسؤولين امام الخلافة الراشدة ثم الاموية عن هذه الاقاليم.

وبعد .. الا يكفي هذا سببا للعداوة والحقد الفارسي على العراق وعرب العراق. ذلك الاقليم الذي إحتله الاخمينيون بقيادة كورش سنة ٥٣٩ق.م وظل محتلا طوال العهد الفرثي والساساني ثم انقلب عليهم ولقنهم درسا قاسيا في ذي قار في بداية القرن السابع الميلادي ثم لقنهم في عصر الاسلام الهزائم تلو الهزائم في الحيرة والبويب والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند فكان العراق الساحة التي إنهزم فيها الفرس عسكريا وسياسيا، والساحة التي انهزم فيها الدين المجوسي الفارسي عقائديا.

ثم ألم يكن العراق منذ القدم وخلال العصر الاسلامي الوسيط خنجر عقبة وعائقا شديدا امام طموحات الفرس غير المشروعة لايجاد موطئ قدم لهم ومنطقة نفوذ في اقاليم الخليج العربي ممر التجارة الدولية وبلاد الشام المطلة على البحر المتوسط موطن التجارة والحضارة.

إدارة بلاد فارس:

كانت اقاليم بلاد فارس يديرها ولاة العراق في البصرة والكوفة ذلك أن عمر بن الخطاب قسم العراق الى ولايتين اثنتين إختلفتا في تشكيلاتها الادارية ومنابع ماليتها ومناطق فتوحاتهما. فكانت الاقاليم الفارسية شمالي شرقي الهضبة الايرانية مثل الري وقومس ونهاوند وطبرستان وزنجان واذربيجان من فتوح الكوفة. أما فتوح البصرة فكانت اقاليم بلاد فارس الجنوبية والجنوبية الغربية مثل الأحواز وفارس وكرمان وسجستان واصبهان وخراسان.

وقد سار الامويون على هذا التقسيم مع بعض التعديلات والتغييرات حسبما تقتضيه الحالة الادارية او الامنية او المالية للدولة.

وقد غدا والي العراق اكثر سيطرة على اقاليم بلاد فارس حين جمع المصران (الكوفة والبصرة) بيد الى واحد من سنة ٥٠هـ /٦٧٠م وسار على هذا النظام اكثر خلفاء الامويين(٢٠). فكان العراق مركزا للمشرق كله. يقول ياقوت الحموي عن المدائني:(٢١)

«عمل العراق من هيت الى الصين والسند والري وخراسان وطبرستان الى الديلم والجبال ... وانما قالوا ذلك لأن هذا كله كان في ايام بني اميه يليه والي العراق.»

أما أقاليم بلاد فارس التي كانت تابعة للعراق في صدر الأسلام فهي:(٢٢)

(١) اقليم فارس وهو احد اقاليم بلاد فارس ويقع في جنوبي غربي ايران ويحده جنوبا الخليج العربي وشمالا المفازة وشرقا كرمان وغربا الاحواز .وقد بقيت التقسيمات الادارية الساسانية معمولا بها في هذا الاقليم حيث قسم الى خمس كور هي: اردشير خرّه. سابور. أرجان. دار أبجرد. إصطخر.

(٢) اقليم سجستان ومن اهم مدنها بست وزرنج. وكانت تضم اداريا في بعض الاحيان الى خراسان ويعين عليها وال واحد. وقد لاقى العرب المسلمون مقاومة شديدة في سجستان بسبب تمسك اهلها بدياناتهم وتقاليدهم الموروثة.

(٣) اقليم كرمان ومن اهم مدنها الشيرجان . وقد سكنها العرب المسلمون مع بدايات الفتح بسبب هرب كثير من اهلها الى الاقاليم المجاورة .فاقطعت العرب منازلهم وارضيهم فعمروها واحتفروا القنى فيها.

(٤) اقليم مكران وكانت تعد من ارض السند وتابعه لملكها. واهم مدنها الديبل والملتان . وكان للامويين الفضل الكبير في مد الفتوحات الى مكران ثم السند. كما بنوا فيها مدنا جديدة عدت مراكز لعمالهم منها المحفوظة والمنصورة.

(٥) اقليم الجبال وهو المنطقة المحصورة بين حدود العراق الشرقية غربا الى صحراء فارس شرقا ومن الري شمالا الى الاحواز جنوبا. واصبحت هذه المنطقة خلال الحقبة السلجوقية تسمى بالعراق العجمي تمييزا لها عن العراق العربي وكان احد القاب سلاطين السلاجقة «سلطان العراقين». ومن اهم بمقاطعاتها ماسبذان ومدينتها السيروان. ومن اقليم الجبال الصميرة همذان والدنيور واحيانا اصبهان.

(٦) اما قزوين وجرجان وطبرستان فكانت تسمى ارض الديلم .واول مقاطعة مصرت فيها هي قزوين واهم مدنها ابهروزنجان ثم اخضعت جرجان زمن يزيد بن المهلب والي خراسان حيث بني مدينة جرجان فأصبحت اشهر مدنها.

وقد طلب اصبهبذ طبرستان الصلح من يزيد بن المهلب والي خراسان اثناء حملته على جرجان فصالحه. ولكن طبرستان ظلت صعبة المراس غير منقادة للسيادة العربية الاسلامية الجديدة وقد ساعدها على ذلك تضاريسها وانشداد اهلها الى ملكهم وتقاليدهم ودياناتهم المجوسية القديمة.

(٧) اقليم خراسان ونظرا لأهمية هذا الاقليم من بين اقاليم بلاد فارس ولكون ماحدث على مسرحه السياسي من احداث تعكس في مجموعها طبيعة العلاقة بين الحكام الجدد من العرب المسلمين وبين الفرس ولامكان عد اسلوب ادارته نمطا لطبيعة الادارة الاسلامية في اقاليم بلاد فارس فاننا سنفصل في احداث هذا الاقليم.

يعني اصطلاح «خراسان» بلاد المشرق او بلاد الشمس المشرقة. وكان يشمل خلال العصر الساساني منطقة واسعة جنوبي نهر جيحون الذي يكون الحدود الطبيعية بين الشعوب الايرانية والشعوب التورانية.

اما العرب فقد اطلقوا هذا الاصطلاح على كل الاقاليم الشرقية حتى نهر الاندس بما في ذلك بلاد أسيا الوسطى (تركستان).

ولعل اول ماثير إنتباه الباحث هو ذلك الاهتمام الكبير الذي اعطاه العرب المسلمون للأمن والاستقرار واعادة النظام في اقاليم بلاد فارس المفتوحة .وهذا ما نلاحظه في سرعة جنوحهم للسلم والمصالحة مع سكان المدن والاقاليم التي طلبت الصلح على مبلغ من المال يقدره الدهقان أو الأمير الفارسي. وبالرغم من انتقاض المدن الفارسية المرة تلو الأخرى فإن الفاتحين الجدد رضوا ـــ في الاعم الاغلب ـــ بالصلح والسلام المرة بعد الاخرى.

ثم أن إندفاع الفاتحين وتوغلهم في مناطق جديدة كان في البداية يهدف الى حماية المكتسبات التي حققوها وذلك عن طريق فتح مناطق سَوْقية مهمة. ويبدو ذلك واضحا من تقدم العرب المسلمين لفتح الارض الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي بعدما ادركوا ان الفرس يخططون للقيام بحركة التفاف على الجيوش التي في العراق. كما يظهر ذلك جليا من حركة الانقضاض الكبيرة التي قامت بها مدن بلاد فارس ضد الحكم الجديد ولذلك ارسل الاحنف بن قيس الى الخليفة عمر يقول:(٢٣)

« وان ملك فارس حيٌ بين اظهرهم وانهم لايزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم. ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه. وقد رأيت انا لم نأخذ شيئا بعد شئٍ الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم .ولايزال هذا رأيهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته .فهنالك ينقطع رجاء اهل فارس ويضربوا جأشا».

وهنا أذن عمر بن الخطاب بالانسياح في بلاد فارس، ويبدو واضحا أن احد الاسباب المهمة لذلك كانت أمنية ولحماية الانجازات التي حققتها الدولة العربية الاسلامية لحد ذلك الوقت .وقد ظل هذا الشعار هدف السياسة العربية الاسلامية خلال عصر صدر الاسلام لأن الثقة بالحكام الجدد لايمكن ان تأتي الا باشاعة الأمان والاطمئنان بين سكان البلاد المفتوحة على انفسهم وعوائلهم واموالهم. فإذا مانجح العرب المسلمون في تكوين الثقة المتبادلة انفسح المجال للتعاون المشترك ولانتشار الاسلام العقيدة التي حملها العرب الى هذه الديار. ويبدو أن المسلمين حققوا بعض النتائج الايجابية في بعض المناطق. ففي رواية للطبري: أن اهل فارس صالحوا الاحنف بن قيس ودفعوا اليه بخزائن كسرى وتراجعوا الى بلدانهم واموالهم على افضل ماكانوا زمن الاطامرة «فكانوا كأنما في ملكهم الا ان المسلمين أوفى لهم وأعدل»(٢٤)

ولكن الدولة وحدها لاتستطيع ان تشيع الأمن والاستقرار عن طريق الوالي بل لابد من تضامن الناس وتعاون سكان المدن والمقاطعات مع اجراءات الدولة. وهذا مااعلنه زياد بن ابيه سنة ٤٥هـ /٦٦٥م حين جمع له معاوية البصرة وخراسان وسجستان وكذلك الهند والبحرين وعمان. حين قال: «واني لاقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالعليل ». ثم قال: «... فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم»(٢٥).

والمعروف أن الفرس المحتلين إنسحبوا هاربين من العراق، كما أن الاسرة المالكة والنبلاء والامراء هربوا من الاقاليم الفارسية الاخرى وتركوا اراضيهم واملاكهم بدون مالك شرعي ولذلك فقد صادرت الدولة أراضيهم بأسمها، وغدا للخليفة حق التصرف بها .اما المدن والضياع والاراضي الاخرى التي كانت تحت إمرة الامراء الصغار او الدهاقين والذين ادركوا أن قوة الحكومة الساسانية قد تحطمت الى غير رجعة وان ليس من نتيجة مثمرة للمقاومة فقد عرضوا الصلح على العرب المسلمين فقبل العرب ذلك العرض .وتدل شروط الصلح ،بصورة عامة ، على المرونة والتسامح اللذين ابداهما العرب المسلمون تجاه البلاد المفتوحة .فقد أقروا الدهاقين والأمراء على مدنهم او قراهم واقروا الفلاحين واهل المناطق على اراضيهم واملاكهم على ان يؤدوا الجزية او الخراج او على مقدار من المال يؤدي سنويا لايزيد ولاينقص ومناصحة المسلمين(٢٦). وتدل روايات تاريخية عديدة على ترك العرب المسلمين للادارة المحلية خاصة المالية مع الدهاقين والمرازبة. ففي رواية ان الزينبي صالح نعيم بن مقرن «على اهل الريّ فمرزبه عليهم فلم يزل شرف الري في اهل الزينبي». وكذا كان الحال مع اصبهبذ بلخ وملوك الطالقان والفارياب والجوزجان ومرو الروذ. وبذلك تركت الادارة المحلية المدنية بيد البيوتات الحاكمة في بلاد فارس قبل الاسلام(٢٧)

واذا كانت الحكومة العربية الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب قد اتبعت الادارة المركزية فإن الخليفة عثمان بن عفان لم ينهج النهج ذاته حيث خول ولاته سلطات واسعة وكان واليه على البصرة عبد الله بن عامر حيث جمع له معها خراسان وسجستان .اما واليه على الكوفة فكان الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص.

ولعل ماقام به عثمان بن عفان كان بداية لما تحقق في العصر الاموي من تطبيق الادارة اللامركزية بسبب تطور الاوضاع السياسية والاجتماعية والمالية في الدولة وباعتبار اللامركزية حلا جيدا لاعادة الاستقرار والنظام وسلطة الخلافة الى الاقاليم بعد مدة من القلاقل والاضطرابات. وبقدر مايتعلق الامر بالاقاليم الشرقية فقد كانت جميعها، ماعدا خراسان وسجستان أحيانا تابعه اداريا وعسكريا وسياسيا لولاة العراق كما اشرنا الى ذلك سابقا. واعتمدت الخلافة على ولاة اكفاء من امثال سعد بن ابي وقاص وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبه وعبد الله بن عامر وزياد بن ابيه والحجاج بن يوسف وخالد القسري وقتيبة. مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ونصر بن سيار وغيرهم في ادارتها.

على ان نظام اللامركزية الادارية لم يكن واحدا في كل عهود الخلفاء الامويين بل نلاحظ ان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز ضيق من صلاحيات الولاة وقام ببعض التعديلات.ففي العراق مثلا أعاد النظام القديم بتعيين واليين الاول للكوفة والثاني للبصرة وجعل خراسان وسجستان مرتبطة بالخليفة وله حق تعيين وال لهما كما ربط عمان به ايضا.

واوقف عمر بن عبد العزيز الفتوحات في بلاد ماوراء النهر وأمر بانسحاب المقاتلة بذراريهم. وقد لاق هذا الأمر معارضة من المقاتلة المسلمين. كما كتب الخليفة نفسه الي عقبه بن زرعة الطائي يوجهه في امر جباية الخراج من خراسان فيقول:

«.. وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم الي من خراسان. فاستوعب الخراج واحرزه من غير ظلم فإن يك كفافا لاعطياتهم فسبيل ذلك. والا فاكتب الي حتى أحمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم».

والمعروف ان عمر بن عبد العزيز كان يعين عمال الخراج بأوامر منه ليجعلهم احرارا غير مقيدين بولاة الاقاليم او امرائها ويمنع تأثير هؤلاء الولاة عليهم خلال عملية الجباية.(٢٨)

إن السياسة العامة التي إتبعها غالبية خلفاء بني امية كانت الادارة اللامركزية ولهذا تلاحظ الخليفة معاوية بن ابي سفيان يعين زياد بن ابيه على العراق (الكوفة والبصرة) وجمع اليه خراسان وسجستان والبحرين وعمان والهند ،مانحا إياه صلاحيات واسعة في ادارة الاقاليم الشرقية .ولعل حسن سياسته تتمثل في قول أهل فارس عنه:

«مارأينا سيرة اشبه بسيرة كسرى انو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة»(٢٩).

وقد سار ولاة العراق بعد زياد بن ابيه على السياسة نفسها تجاه اهل بلاد فارس ففي روايه للطبري ان والي العراق عمر بن هبيرة أمر مسلم بن سعيد أمير خراسان ان يستخدم عمال العُشر ثم إستطرد يوضح له من هم فقال:

«مر أهل كل بلد ان يختاروا لأنفسهم فاذا اختاروا رجلا فوله فاذا كان خيرا كان لك وان كان شرا كان لهم دونك وكنت معذورا»(٣٠)

معنى ذلك ان على الوالي ان يطلب من اهل المدن والمقاطعات الخرسانية ان يختاروا او يعينوا هم بأنفسهم العمال المسؤولين عن الادارة المحلية والمالية.

ومع ان هذه الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها والي العراق وبلاد فارس استمرت ،بصورة عامة خلال العصر الاموي. وكان مردودها كبيرا في تحقيق الأمن الداخلي وفي الفتوحات على الساحة الشرقية. فأن تطور الاوضاع السياسية والإقتصادية ادى الى لجوء الوالي الاموي على العراق واستنجاده بالخليفة اثناء الأزمات الحادة طلبا للعون العسكري. فحين تمرد عبد الرحمن بن الاشعث على سياسة الحجاج الثقفي اعتمد هذا الاخير على المقاتلة من اهل الشام في قمع حركته .وحدث الشئ نفسه حين تمرد يزيد بن المهلب في فارس وكرمان والاحواز وحين تحرك زيد بن علي في العراق(٣١).

إن المحصلة النهائية لما ذهبنا اليه هي ان هذه السياسة الادارية المرنة التي اتبعت في صدر الاسلام مع سكان البلاد المفتوحة كان لها فضل كبير في تثبيت سلطة الدولة واتساع رقعة الاسلام اولا ثم ماأدت اليه من امتزاج واختلاط مجموعة شعوب في امة واحدة ودولة واحدة ولكن

هذا الهدف كان على طرفي نقيض منذ البداية مع النزعة «العنصرية» المتعالية للفئة المتعصبة من الفرس والمتمسكه بعقيدتها السابقة والتي ظلت تفرض قيادتها على شريحة كبيرة من المجتمع في بلاد فارس.

لقد كانت هذه الفئة من الفرس ضد الاختلاط والتمازج مع العرب اولا وضد نشر الاسلام في بلاد فارس ثانيا وضد انتشار اللغة العربية في تلك الربوع التي غدت ضمن الدولة العربية الاسلامية ثالثا. وكانت المقاتلة العرب المسلمون قد هاجروا بعيالاتهم اثناء الفتوحات الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب على أن أول من اسكن العرب في بلاد فارس كان أمير بن أحمر ثم الربيع بن زياد الحارثي حيث استقرت العرب بمرو وسواها من البلدان في خراسان(٣٢)، ويقدرهم ولهاوزن بحوالي ربع مليون عربي منهم حوالي ٥٠ ألفا من المقاتلة(٣٣). ولم يكن دفع هذه الأعداد الى بلاد فارس من اجل الحفاظ على مكاسب الفتوح فقط كما يتوهم البعض بل لهدف اعمق وهو نشر الاسلام والعربية في تلك الربوع ثم كسب جموع الناس من خلالهما.

وليس ادل على عنف المقاومة التي ابداها السكان المحليون بقيادة الدهاقين ورجال الدين المجوسي لنشر الاسلام من الرواية التاريخية التي يوردها النرشخي وهو مؤرخ محلي حيث يشير الى ارتداد بخارى اربع مرات عن السيادة العربية الاسلامية مما جعل قتيبة الباهلي يأمر العرب المسلمين بالاقامة مع اهل بخارى ويناصفونهم بيوتهم ليختلطوا بهم ويراقبونهم في سلوكهم وعباداتهم وبهذه الطريقه «ألزمهم بأحكام الشريعة وأزال اثار الكفر ورسم المجوسية ...!!(٣٤)

على أن عملية الاختلاط لم تكن سريعة وميسورة فلم يكن من مصلحة الدهاقين الفرس ذلك لانه يسرع بانتشار الاسلام والتعريب، كما لم يكن كذلك من مصلحة بعض الولاة والقادة العرب لانه يعجل باستقرار العرب المسلمين وامتهانهم الزراعة والصناعة او التجارة وتركهم الجيش في الوقت الذي كانت الدولة بأمس الحاجة اليهم مقاتلين. الا ان عملية الامتزاج رغم هذا وذاك سارت بطيئة متعثرة ولكن الى أمام. وفي رواية لابن رسته(٣٥) مايدلل على عناد الارستقراطية الفارسية ورجال الدين الزرادشت ووقوفهم حجر عثرة ضد انتشار الاسلام. يقول ابن رسته ان عاصم بن يونس عامل العباسيين على اصفهان — والحقبة العباسية حقبة متأخرة — لم يجد في هذه المدينة من المسلمين الذين يقرأون القرآن الا ٨٠ (ثمانين) رجلا، ومن هؤلاء ثلاثة فقط حفظة.

ورواية إبن رسته المذكورة آنفا نفسها تصلح دليلا على بطء إنتشار اللغة العربية في بلاد فارس حيث لم يكن يقرأ العربية في مدينة اصفهان سوى ثمانين رجلا فقط !! .ويعزز هذا الاعتقاد رواية للجهشياري(٣٦) تشير الى تأخر تعريب الدواوين في خراسان حتى مدة متأخرة من العصر الاموي. فقد بقيت الدواوين بالفارسية وكتابها من المجوس حتى عربها نصر بن سيار سنة ١٢٤هـ ٧٣٢م وهو آخر امراء خراسان في العصر الاموي. وقام بنقلها من الفارسية الى العربية إسحق بن طليق !!

بل أن الفرس وقفوا حجر عثرة في طريق عملية تعريب الدواوين في العراق في ولاية الحجاج الثقفي لان تعريبها في العراق سيؤول حتما الى تعريبها في سائر اقاليم بلاد فارس وسيؤدي من ثم الى انتشار اللغة العربية على حساب اللغة الفارسية ثم الى سرعة تقبل الفرس للاسلام بعد اتقانهم العربية لغة القرآن والصلاة والحديث. يقول البلاذري(٣٧) ان الذي تولى مسؤولية نقل دواوين العراق من الفارسية الى العربية هو الكاتب صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم بأمر الحجاج الثقفي. وتمضي الرواية التاريخية فتقول بان مردانشاه بن فروخ الفارسي اتصل بصالح واغراه بـ ١٠٠ ألف درهم من اجل ان يمتنع عن عملية التعريب هذه ويظهر عجزه للحجاج ولكن صالحا ابى ذلك ونقله !! وقد ادى ذلك الى اسراع الموالي من الفرس في تعلم العربية للاحتفاظ بوظائفهم. ثم ان تعلمهم العربية ادى الى زيادة تفهمهم وتفقههم بالدين الاسلامي.

أما لماذا كان الدهاقين ورجال الدين للزرادشت ضد انتشار الاسلام والعربية وضد الاختلاط فالسبب يعود الى كون الدهاقين والامراء المحليين وحسب معاهدات الصلح — مسؤولين عن جباية الضرائب من جزية وخراج وغيرهما وتسليم المقدار المتفق عليه منها الى الوالي العربي .فاذا ماانتشر الاسلام قل بطبيعة الحال عدد دافعي الجزية وقل مقدار الاموال المحصلة. فالدافع المالي كان أحد اسباب وقوف الارستقراطية الفارسية ضد انتشار الاسلام العربية .اما السبب الثاني وراء مقاومة الارستقراطية الدخول في الاسلام فهو خوفها من فقدان نفوذها بين الفرس. فإذا ماأصبح الفرس موالي إنضموا بالولاء الى قبيلة عربية او ارتبطوا بالوالي العربي .وبهذا يتضاءل نفوذ الارستقراطية الفارسية تدريجيا.ولقد كافحت الارستقراطية الفارسية يعاونها بعض الكتاب الفرس من اجل رد اعتبارها الاجتماعي والحصول على اعتراف من المجتمع الجديد على منزلتها «المرموقة» في المجتمع القديم واستمرار هذه المنزلة بطريقة او باخرى في المجتمع الجديد. اما السبب الثالث وراء هذه الظاهرة فيعود الى النزعة العنصرية المتعالية للارستقراطية الفارسية وفئة من طبقة الكتاب الموالي يتبعها بطبيعة الحال شريحة من شرائح المجتمع في بلاد فارس(٣٨).

ان هذا الوضع هو الذي يفسر رواية الطبري بان الدهاقين استمروا باستحصال الجزية ممن أسلم من فقراء الفرس وضعفائهم وفلاحيهم واعفوا منها النبلاء والمتنفذين الفرس الذين لم يسلموا: يقول الطبري:(٣٩)

«واخذوا ضريبة الرأس ممن أسلم من الضعفاء» !!

ومعنى ذلك بقاء الحال على ماكان عليه زمن الساسانيين !! ولهذا حين حاول نصر بن سيار اخر ولاة الأمويين على خراسان اصلاح الوضع المالي وايقاف التدهور السياسي والاضطراب الاجتماعي لاحظ ان هناك ثمانين الفا من الفرس المشركين معفوين من الجزية وثلاثين الفا من الفرس المسلمين (الموالي) يدفعون الجزية رغم اسلامهم(٤٠) ... كل ذلك من تدبير الدهاقين المسؤولين عن الجباية !!

ولابد هنا ان نعيد الى الاذهان ان العرب المسلمين انفسهم كانوا كذلك منقسمين في بلاد فارس حول السياسات العسكرية والمالية الاموية فمنهم من فضّل الاستقرار والاختلاط وامتهان الزراعة والحرف الاخرى على استمرار الفتوحات في بلاد ماوراء النهر ومنهم على العكس من ذلك تماما. كما ان الامويين حين احسوا بالعجز المالي فرضوا ضرائب اضافية بعضها كان إحياءا لتقاليد مالية ساسانية وبعضها كان جديدا ،على إن هذه الضرائب لم تكن ثابتة او مستمرة وقد ألغاها عمر بن عبد العزيز في عهده ثم اعيدت من بعده. ودون شك فإن هذه السياسات كان لها ردود فعل من شغب وقلاقل واضطرابات بين العرب والموالي في بلاد فارس. ثم ان هذا الوضع لاينطبق على العصر الاموي فحسب بل يستمر خلال العصر العباسي.

موقف الفرس من الدولة الجديدة:

إن موقف الفرس من النظام العربي الاسلامي الجديد تمثل بأتجاهين رئيسين: الاول ـــ الدخول في الاسلام عن عقيدة وايمان لما فيه من مبادئ تفضل ماألفوا في المجوسية أو لأن الاسلام سينقذهم من التعسف الاجتماعي الاقتصادي الساساني القديم. اما الاتجاه الثاني فيتمثل في الفئة التي استسلمت للنظام الجديد بعد أن قاومته بشدة ثم ادركت عبث المقاومة فأسلمت ولم تؤمن بالاسلام بل تسترت به واتخذته برقعا لتمرير أهدافها وتنفيذ خططها.

اما الفئة الاولى التي سارت على خط الاسلام وضمن اطاره الفكري وكانت مواليه للدولة العربية الاسلامية ولقيمها الحضارية فقد انتجت علماء متميزين من الموالي في شتى حقول الحضارة والمعرفة وخاصة في العصر العباسي .كما ظهر من هذه الفئة مفكرين كانوا من اوائل من تصدوا للتيارات الشعوبية والخرمية والزندقة. وبعد هذا وذاك فإن هذه الفئة من الموالي اذا مااستنكرت سياسة وال او عارضت نهج أمير لم ترتد على عقبيها او تلجأ الى حركات هدامه او مخربه بل كانت تعبر عن معارضتها ايجابيا بالانتماء الى مذاهب او حركات تعمل ضمن اطار الاسلام والعروبة مثل الشيعة والخوارج والنابته والمعتزلة والمرجئه وغيرها لاضدها مثل الخرمية والزندقة والشعوبية. فالحركات من الصنف الاول لم يكن من اهدافها تجزئة الامة وهدمها وإلغاء كيانها السياسي والحضاري بل ان بعضها نشأ وتولد في خضم المعترك الفكري بين خصوم الامة من الشعوبيين والزنادقة وبين المدافعين عن مبادئها وقيمها.

اما الفئة الثانية التي تبرقعت بالاسلام ورفعت اما شعارات اسلامية عامة او شعارات مذهبية خاصة لتحقيق غاية في نفسها ... فهي المسؤولة عن النزعة الهدامة في بلاد فارس التي شوهت الاسلام وعرقلت سبل انتشاره واعاقته عن تحقيق اهدافه. بل ادخلت على المذاهب الاسلامية طقوساً وقيما مجوسية ليست من الاسلام في شئ.

وهكذا فإن المذاهب الاسلامية التي دخلت بلاد فارس من خوارج او كرامية او شيعية حرفت وعُدلت وذلك بعملية «توفيقية» بينها وبين القيم المجوسية القديمة لأن الفرض لم يكن تبني هذا المذهب او ذاك او فهمه وتطبيقه بصورته الصحيحة التي ظهرت في بلاد العرب بل كان القصد استغلاله ورفعه شعارا ضد الخلافة وعقيدتها الاسلام الصحيح.

لقد حاولت فئة من الفرس الا يظهر الاسلام في بلاد فارس بمظهره الصحيح الذي جاء به رسول الله محمد (ص) وحاولت كذلك الا تظهر المذاهب الاسلامية بطبيعتها واهدافها الصحيحة التي نشأت عليها بين العرب المسلمين وفي بلاد العرب .وقد ساعدت عدة ظروف منها مايتعلق بطبيعة الفرس وتعلقهم بتقاليدهم القديمة ومنها مايتعلق بظروفهم الاجتماعية والاقتصادية قبل الفتح وبعده على ان تكون هذه الفئة العنصرية من الفرس صاحبة القيادة والريادة في توجيه حركة المجتمع الفارسي.

لقد حاول بعض المستشرقين امثال فان فلوتن وبيكر وبروكلمان وغيرهم تأكيد ظاهرتين في تاريخ هذه الحقبة:

الاولى ــ اظهار سياسة الدولة العربية الاسلامية على انها سياسة تعسفية تجاه الموالي (المسلمين من غير العرب) مما ادى الى بروز تمايز اجتماعي واقتصادي حاد بين العرب والموالي في المجتمع الجديد فالموالي ــ على زعم هؤلاء المستشرقين ــ كانوا محرومين من المشاركة في الادارة ومحرومين من العطاء.

والثانية ــ ان هذه الحالة ادت الى تذمر الموالي ودفعهم للانضمام الى حركة الشيعة العلوية باعتبارها حركة معارضة وباعتبار العلويين البديل الطبيعي للأمويين. وهكذا ربط هؤلاء المستشرقون بين حركة الشيعة وبين الموالي الفرس وربطوا بين بلاد فارس والمذهب الشيعي.

لقد شاعت هذه الاراء وغدت حقائق مسلما بها بعد ان نقلها بعض مؤرخينا المحدثين لابسبب استنادها الى دلائل تاريخية موضوعية بل لكثرة تكرارها ... فكأن الموالي الفرس تشيعوا منذ الايام الاولى لدخولهم الاسلام وكأن بلاد فارس قبلت التشيع في مدة مبكرة من انضمامها للدولة العربية الاسلامية.

اما الزعم الاول فإن عنصر المبالغة والتشويه واضح فيه. فمع اقرارنا بوجود تمايز ومنافسة الا انها لم تكن مقتصرة على الموالي الفرس بل شملت العرب كذلك. فالتمايز والمنافسة ظاهرة طبيعية في كل المجتمعات قديمها وحديثها. والخلفاء الاكفاء هم وحدهم الذين استطاعوا ان يحققوا نوعا من التوازن بين شرائح المجتمع المختلفة. واذا كان اصحاب هذا الرأي يوردون امثله للدلالة على سوء حالة الموالي واحتقار العرب لهم فان هناك امثلة على احتقار الموالي الفرس للعرب والنيل منهم ثم هناك امثلة على التعاون والاختلاط والاشتراك في السلطة. اما أن نختار امثلة عن حالات شاذة ونجعلها سياسة عامة للدولة او موقفا عام للمجتمع فهذا مالايقره التاريخ. واذا فرضنا جدلا ان

هناك سياسة مقصودة في عدم اشراك الموالي في الادارة والسلطة .أليس من الطبيعي ان يسيطر العرب صانعوا الدولة الجديدة على زمام الامور فيها ثم يأتي إشراك الاخرين في مهام الادارة مع مرور الزمن؟

ولكن السؤال المهم هو لماذا يقتصر ذكر «مشكلة الموالي» على العراق وبلاد فارس؟ ألم يكن هناك موال في بلاد الشام ومصر وغيرها من اقاليم الدولة؟ ان الجواب على ذلك ليس بالعسير فالنزعات الفارسية كانت قوية في الاقاليم الشرقية وكان يقودها الدهاقين ورجال الدين الزرادشت وكتلة الكتّاب المثقفين من الفرس. إن هؤلاء هم الذين جعلوا من الموالي «مشكلة» وعملوا جهدهم على ديمومتها واستمرارها واستغلالها في خلق الاضطرابات للسلطة في العراق وبلاد فارس !! ولم يعمل المستشرقون اكثر من نقل روايات الشعوبيين والاعتماد عليها من اجل تشويه التاريخ العربي !! وليس هنا مجال الرد بأسهاب وسرد الامثلة على هذا الزعم الاستشراقي ولكننا نقول ان الموالي كان لهم نصيب جيد في المشاركة في الادارة حسبما تقتضيه الحاجة .بل ان نصيبهم في الادارة المحلية والدواوين كان اكبر من نصيب العرب. فمعاهدات الصلح وروايات التاريخ تشير الى ان العرب الفاتحين اقروا الدهاقين والامراء المحليين على وظائفهم ومسؤولياتهم التي كانت قبل الفتح. بل ان الموالي الذين أدوا دورا في تسهيل حركة الفتح ادخلوا في شرف العطاء او كان لهم نصيب فيه. كما سمحت الدولة للموالي بالاستقرار في الاماكن التي يختارونها والالتحاق بمن يشاؤون من القبائل موالي لتلك القبائل او تشكيل تنظيمات مستقلة عن القبائل .وقد ظهر من الموالي في العصر الاموي ولاة وقادة عسكريون ورؤساء دواوين ومستشارون «وزراء» وعمال خراج .وعلى عكس مايذهب اليه بعض المؤرخين فالموالي لم يكونوا محرومين من منصب القضاء وشواهد التاريخ الاموي حافلة بأسمائهم امثال شريح القاضي وعامر الشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبير وعبد الله بن يزيد الصنعاني ويزيد بن ابي حبيب والليث بن سعد وغيرهم(٤١).

ويكثر المؤرخون من الاشارة الى اهمية الموالي في العصر العباسي وخاصة الى تعلق الخليفة المهدي بهم وكثرة استخدامه لهم ولكنهم يهملون عن قصد او دون قصد رأي زياد بن أبيه والي العراق والمشرق حين يوصي الخليفة معاوية بن ابي سفيان باستخدامهم لأنهم «انصر وأغفر واشكر» ورأي عبيد الله بن زياد الذي استخدامهم على الخراج «لانهم أبصر بالجباية واوفى بالامانة وأهون على المطالبة» !!(٤٢)

بل ان الدولة الاموية عاملت المجوس الفرس معاملة اهل الذمة تمشيا مع قول الرسول (ص) «سنوا بهم سنة اهل الكتاب» فكان كاتب زياد بن ابيه زادان بن فروخ المجوسي.ومما يؤخذ على خالد القسري والي العراق والمشرق على عهد هشام بن عبد الملك كثرة استخدامه المجوس في الادارة. بل ان اكثر كتاب الدواوين بخراسان كانوا مجوسا حتى امر نصر بن سيار بنقله الى العربية في اواخر عصر بني امية !!(٤٣)

اما بالنسبة للزعم الثاني وهو ارتباط الموالي الفرس بحركات الشيعة العلوية وارتباط بلاد فارس بالتشيع منذ وقت مبكر فليس له اساس من الصحة ولايستند على ادلة تاريخية. فالحركات السياسية الاسلامية ومنها حركة الشيعة العلوية كانت عربية في نشأتها وتطورها وعربية في قيادتها وغالبية عناصرها أو هيكلها وعربية في فكرها.

على ان الذي حدث هو ان بعض الزعامات العربية التي ثارت ضد الحكم الاموي هي التي نظمت الموالي واستغلتهم وكسبتهم الى حركاتها من شيعية او خارجية او سياسية بحتة ليس لها لون مذهبي وذلك من اجل زيادة عدد الانصار. وان الموالي انفسهم من جهة اخرى استغلوا هذه الحركات فانضموا اليها وتبنوا شعاراتها الشيعية او الخارجية ،بعضهم عن اقتناع وبعضهم الأخر من اجل تحقيق اهدافهم الهدامة.

فقد رفع الغلاة شعار التشيع لأل البيت رغم انهم لم يكونوا يعتقدون بأحقية آل البيت في الحكم بل من اجل تمرير آرائهم غير الاسلامية في المجتمع وبهذا يحققون اهدافهم في تفتيت المجتمع من الداخل وهدم الاسلام ... وليس هناك كبير فرق بين الغلاة والشعوبية فكلاهما من الفرس ــ بقدر مايتعلق الامر بالعراق وبلاد فارس ــ وكلاهما اراد تمرير اهدفهما في هدم الدين والدولة تحت شعارات لايعتقدون بها اصلا ولكنها براقة تستهوي الناس وتستدر عواطفهم. فالغلاة رفعوا شعار حق آل البيت بالخلافة والشعوبية عملوا تحت شعار «التسوية» اي النضال من أجل المساواة بين العرب والموالي !! وهم في واقعهم عنصريون متطرفون.

والغريب ان العرب إنتبهوا من مدة مكبرة الى هذا الاسلوب بل ان بعض الزعامات العربية الطموحة حاولت إستغلاله لتحقيق طموحاتها .ففي رواية للبلاذري أن المغيرة بن شعبة والي معاوية بن ابي سفيان على الكوفة قال وهو ينظر الى جموع الناس في سوق الكوفة:(٤٤)

« يالها من غارة وياله جمعا، انيّ لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق لاتبعوه ولاسيما الاعاجم الذين اذا ألقي عليهم الشيء قبلوه ،فقال له المختار :وماهي ياعم؟

قال المغيرة : يستأدون بآل محمد. فأغضى عليها المختار.»

وهذا مافعله زعماء فرق الغلاة ومافعله أخرون من امثال المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وعبد الله بن معاوية . ولهذا تبرأ الائمة العلويون من الغلاة وافكارهم في اكثر من مناسبة.

والواقع أن التاريخ لايشير الى حركات موالية للعلويين ظهرت في بلاد فارس في صدر الاسلام (العصرين الراشدي والاموي): ولكن العراق كان مسرحا لحركات رفعت شعارات علوية وكسبت اضافة الى فئات من العرب اعدادا من الموالي الفرس بالعراق. فالمختار الثقفي نظم موالي الكوفة وكسبهم الى حركته بوعود مغريه عديدة منها العتق من ارتباطاتهم بأسيادهم ومنها العطاء ولكن هذه الحقيقة ذاتها اضافة الى تبنيه لاراء الغلاة وتسامحه معهم كانت احد اسباب فشل حركته، اضافة

الى اسباب اخرى. فالموالي الفرس في الكوفة لم يكونوا قوة ضاربة يعتمد عليها ولم يكونوا ذوي صبر ومطاولة على القتال وان وعود المختار السخية للموالي اثارت القبائل العربية فسحبت تأييدها له ففشلت حركته(٤٥).

ويربط بعض المؤرخين بين حركة المختار الثقفي وحركة عبد الرحمن بن الاشعث الكندي ويعدونها «محاولة جديدة للموالي من الفرس للمطالبة بحقوقهم». ولكن التاريخ يؤكد مرة اخرى ان دور الموالي في الحركة كان ثانويا وان اشتراكهم جاء طبيعيا بسبب مشاركة أسيادهم او قبائلهم التي ينتمون اليها بالولاء.

واذا كان لعدد من الرؤوس التي انضمت الى حركة ابن الاشعث ميول علوية وسجل حافل في حركة سابقة هي حركة المختار الثقفي فإن ذلك لايضفي على حركة ابن الاشعث صبغة علوية. وان الحركة رغم اعلان عصيانها في بلاد فارس لم تكسب اي تأييد من الموالي الفرس هناك(٤٦).

ثم حدثت حركة زيد بن علي بالعراق على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فلم يتحمس لها موالي العراق كثيرا ولم يحرك الموالي في بلاد فارس ساكنا لتأييدها. وحين قتل نصر بن سيار يحيى بن زيد في خراسان لم ينتفض الموالي الفرس هناك مطالبين بثأره.

ثم وقعت حركة عبد الله بن معاوية الطالبي في اواخر العصر الاموي وامتدت من العراق الى بلاد فارس حيث استولى عبد الله بن معاوية على همذان وقومس واصبهان والري وفارس. وانضم اليه فئات من الموالي الفرس بالعراق وعبيد اهل الكوفة ... ولكن الموالي الفرس وتبني عبد الله بن معاوية لمبادئ الغلو (الجناحية) كانا من اهم عوامل فشله تماما كما حدث لحركة المختار الثقفي(٤٧).

فأين هو تشيع الفرس للعلويين في المدة موضوعة البحث، ولو كانت بلاد فارس قد اعتنقت التشيع منذ مدة مبكرة لانتفضت مدنها وقراها واقاليمها عن بكرة ابيها تأييدا لهذه الحركات التي رفعت شعارات «مواليه» للتشيع ومؤيدة «للمستضعفين من الموالي» خاصة وان هذه الحركات حدثت في ارض فارس مثل حركة عبد الرحمن الاشعث وحركة عبد الله بن معاوية ويحيى بن زيد او وقعت بالعراق القريب من بلاد فارس مثل حركة المختار الثقفي او زيد بن علي.

ويحق لنا ان نسأل بعد ذلك أكانت هذه الحركات مذهبية ام ذات صبغة عراقية عامة في غالبيتها .ولهذا فإن ولهاوزن نفسه يرى في حركة ابن الاشعث وهي اعنف حركة حدثت في بلاد فارس في تلك الحقبة انها «محاولة قوية ويائسة ومكررة من جانب اهل العراق لخلع سيادة اهل الشام» ويوافقه الدوري حيث يصف مواقف العناصر المؤيدة لهذه الحركات:(٤٨)

« ويلتبس علينا مبدئيا كما التبس على كثيرين في الماضي حقيقة شعورهم ـــ أفشيعة علي وآله هم أم شيعة العراق وحماة كيانه؟ ولكننا في ملاحظتنا لمواقفهم الحماسية من الائمة العلويين ... ثم انفضاضهم السريع عنهم حين تقوم السيوف الاموية والاموال الاموية بدورها نشعر ان عامتهم كانوا يفكرون بالعراق ولم يكن تأييدهم للعلويين في الغالب الا وسيلة لذلك. وهذا جعلهم يثورون احيانا تحت راية غير علوية مثل ثورة ابن الاشعث الواسعة الخطيرة ...»

الخاتمة:

ولابد أن نشير الى ظاهرة واضحة وهي ان زعماء هذه الحركات مثل ابن الاشعث في عهد عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب في عهد يزيد بن عبد الملك وعبد الله بن معاوية في عهد مروان الاخير لم يسفروا عن معارضتهم وتمردهم ضد السلطة الاموية بالعراق الا حينما كانوا في بلاد فارس. وهذا في رأينا له دلالته في تأثير مااصطلح على تسميته «بالعقدة الفارسية» وهو تأثير الجو العام في بلاد فارس المعادي للخلافة وللسلطة العربية بالعراق على هؤلاء بحيث شجعهم على التمرد. وستتكرر هذه الظاهرة بصورة اوضح خلال العصر العباسي فكل من يحكم بلاد فارس او جزءا منها لابد له ان يتقمص الشخصية الفارسية بكل عقدها تجاه الخلافة العربية الاسلامية وتجاه العراق خاصة وانه غدا مركز الخلافة والسلطة وموئل القيم الحضارية الاسلامية. والغريب أن حكاما غير فرس وغير ايرانيين مثل الخوارزمية والسلاجقة والمغول ومن تبعهم من ايلخانيين ثم صفويين إتخذوا الموقف الفارسي المعادي نفسه معبرين بطريقة او باخرى نظريا او عمليا عن تاييدهم لأمال الفرس وطموحاتهم وادعاءاتهم في العراق وتأكيد سيطرتهم على مايستطيعون نيله من ارض العرب.

إننا لاندعي أن «العقدة الفارسية» كانت العامل الرئيس في حركات الزعماء العرب في بلاد فارس ولكنها كانت دون شك احد العوامل وأدت دورها في بلورة موقف معادٍ للسلطة بالعراق والا فما الذي غير موقف عبد الرحمن بن الاشعث من والي العراق الحجاج الثقفي بهذه السرعة المفاجئة مع العلم ان التاريخ يؤكد وجود علاقات وديّه قوية تربط الرجلين قبل الثورة ؟؟ ثم ماالسبب الذي غير من إخلاص عبد الجبار الأزدي(٤٩) صاحب شرطة المنصور ،الذي عينه على خراسان لثقته العالية فيه، بحيث يتمرد على السلطة العباسية بالعراق ؟؟

بعد هذا كله فإن فرضية الربط بين «الولاء الفارسي» لأهل البيت والربط بين «ايران والتشيع» التي جاء بها الاستشراق وكررها بعض مؤرخينا ليس لها مايسوغها تاريخيا ومايسندها منطقيا. ان التشيع لم يتخذ مذهبا رسميا في بلاد فارس الا في تاريخها الحديث حين اعلن ذلك الصفويون حكام ايران في اوائل القرن السادس عشر الميلادي معارضين بذلك مذهب أعدائهم العثمانيين. هذا مع العلم ان الصفويين لم يكونوا فرسا ولا ايرانيين.

(١) **Le Strange, The Lands of the Eastesn Caliphate. Cambridge, 1930, P 248.**
E.I(2). كذلك

(٢) الطبري . تاريخ ، جـ٤ ص٩٤ — ابن الاثير ،الكامل، جـ٢ ص ٣٨٨
(٣) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت، ١٩٧٠ .ص
(٤) الطبري، جـ٤ ، ص٨٩ فمابعد.

(٥) صالح العلي، محاضرات في تاريخ الدولة الاسلامية ،ص٣٨

(٦) البلاذري، فتوح ، ص٣٧٨، ٣٨٤، ٣٠٨، ٣٧٠

(٧) المصدر السابق، ص٣١٧، ٣٣٠، ٣٢١

(٨) المصدر السابق، ص٣٧٨، — ابن سعد، طبقات ،جـ٤ ق٢ ص٧٨.

(٩) البلاذري، ص٣٧٩.

(١٠) الطبري، جـ٤، ص١٧٤ — خليفة بن خياط، تاريخ، ص١٤٦

(١١) اليعقوبي ،البلدان ، ص٢٦٩، ٢٧٤.

(١٢) البلاذري ،فتوح ، ص٣٢٣

(١٣) حول سيستان وكرمان ومكران: راجع البلاذري، فتوح ، ص٣٨٤، ٣٨٥ فمابعد.

(١٤) الطبري، حـ٥ ص ١٧٣ — البلاذري، فتوح ،ص ٣٩٤ — ابن الاثير ، حـ٤ ص١١٤، ١٢٥

(١٥) سبولر، ايران في العصور الاسلامية الاولى، ص٢٠٧ — صالح العلي، إدارة خراسان مجلة كلية الاداب، ١٩٧٢، ص٣١٥.

(١٦) البلاذري، فتوح، ص٣٩٤

(١٧) الطبري ،تاريخ ،جـ٥ ص ١٧٣

(١٨) بارتولد ،تركستان، (بالانكليزية) ص١٨٠

(١٩) صالح العلي، استيطان العرب في خراسان ،مجلة الآداب ١٩٥٩.

(٢٠) الطبري، تاريخ، جـ٥ ص٢٣٤ — ابن قتيبة ، المعارف، ص٢٤٨

(٢١) ياقوت، معجم البلدان، حـ٤ ص٩٤

(٢٢) راجع : نجدة خماش، الادارة في العصر الاموي، ص٦٤ فمابعد

(٢٣) الطبري ،المصدر السابق.

(٢٤) الطبري ،المصدر السابق.

(٢٥) الطبري ،تاريخ ، حـ٥ ص ٢١٨، ٢٢١

(٢٦) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية ،ص ٦٤ فمابعد

(٢٧) الطبري ،حـ٤ ص ١٥٠ — حـ٦ ص ٤٢٦

(٢٨) ابن عبد الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز، ١٩٥٤ ص١٣٢

(٢٩) نجدة خماش، المصدر السابق، ص١٢١، ص١٤٤

(٣٠) راجع فاروق عمر، النظم الاسلامية ،العين،١٩٨٣ ص

(٣١) دكسن ، الخلافة الاموية، بغداد ١٩٧٣ — الخربوطلي، العراق في اعلصر الاموي، دار المعارف، مصر ، ١٩٥٩.

(٣٢) ثابت الراوي ،العراق في العصر الأموي، بغداد، ١٩٦٥، ص ٢٠١، ٢٣٢.

(٣٣) ولهوزن الدولة العربية وسقوطها، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة، ص٢٣١

(٣٤) النرشخي، تاريخ بخارى، القاهرة، ١٩٦٥، ص٧٣

(٣٥) ابن رجته، ص١٩٦

(٣٦) الجهشياري، الوزراء والكتاب، القاهرة، ص٦٧

(٣٧) البلاذري، فتوح، ٢٩٨

(٣٨) فاروق عمر: الحركة الشعوبية، بغداد، ١٩٨٦ (نشر نقابة المعلمين، المركز العام)

(٣٩) الطبري جـ٧ ص٦٥

(٤٠) الطبري، جـ٧ ص١٧٣

(٤١) راجع مثلا: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١ ص٢٢٤ — ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ١ ص٦٢

(٤٢) البلاذري، أنساب، جـ٤ ص٢٣

(٤٣) الجهشياري، المصدر السابق، ص٤٨

(٤٤) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين، الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٨٠.

(٤٥) المصدر السابق.

(٤٦) دكسن المصدر السابق.

(٤٧) دائرة المعارف الاسلامية E.I2

(٤٨) الدوري ، مقدمة.... ص٤٢.

(٤٩) فاروق عمر ،العباسيون الاوائل جـ١ ص٦٣

مختارات من المصادر والمراجع

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير،ليدن ١٣٢٢هـ

(٢) ابن الفقيه، البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ

(٣) مصعب الزبيري، نسب قريش، تصحيح بروفسال.

(٤) ابو الفرج الاصبهاني، مقاتل الطالبين القاهرة ١٣٦٥هـ

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، مصر

(٦) خليفة بن خياط ،تاريخ ، بغداد ١٩٧٥

(٧) الدينوري، الاخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم النمر.

(٨) الطبري ،تاريخ ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم . عشرة أجزاء ،القاهرة

(٩) النرشخي، تاريخ بخارى، دار المعارف بمصر.

(١٠) الكوفي، ابن اعثم، الفتوح، مخطوطه

المراجع الحديثة

١ ـ شكري فيصل، المجتمعات الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت.

٢ ـ صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بيروت. طبعة جديدة

٣ ـ عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، بغداد ١٩٤٩

مقدمة من التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٩

٤ ـ عبد الامير دكسن ، الخلافة الاموية في عهد عبد الملك، بغداد، ١٩٧٠

٥ ـ حسين مولوي، الادارة العربية (مترجم) ١٩٥٨

٦ ـ دينت، دانيال ، الجزية والاسلام (مترجم).

٧ ـ فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية ترجمة عبد الهادي ابو ريدة

٨ ـ صالح العلي، إدارة خراسان مجلة كلية الآداب ١٩٧٢

٩ ـ فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين، الطبعه الثانية ،بغداد، ١٩٨٥.

الفصل الثاني

الخلافة العباسية وموقف بلاد فارس

المبحث الأول: خراسان معقل الدعوة العباسية:

اقر الخليفة الوليد الثاني نصر بن سيار على خراسان الا انه في نهاية عهده ربط خراسان بالعراق وامر واليه على العراق يوسف بن عمر بارسال كتاب الى نصر بن سيار يأمره بجمع بعض الأواني من الذهب والفضة وكذلك الصقور والخيول السريعة وغيرها وجلبها شخصيا الى الخليفة .وكان هذا الامر يعني عزل نصر عن خراسان وقد فهمه نصر كذلك. ومن حسن الحظ فقد كان هناك سبب وجيه يسوغ التأخير حيث كان على نصر ان يجمع الهدايا الثمينة. ورغم الرسائل العديدة التي كانت تحثه على الاسراع بترك خراسان فقد أخر نصر رحلته قدر الامكان .ولذلك فحين قرر نصر الرحيل لم يسر الا مسافة قصيرة حتى جاءته الأنباء بمقتل الوليد الثاني وتبوؤ يزيد الثالث الخلافة وقد عاد نصر بن سيار الى خراسان واعاد الهدايا الى الدهاقين وحرر العبيد. على ان نصر تردد في الاعتراف بيزيد الثالث كما انه رفض بصورة قطعية تسليم سلطاته الى منصور بن جمهور الذي ارسل اخاه ليكون اميرا على خراسان. وقد استبقاه نصر في الري دون ان يسمح له بدخول خراسان.

إن ماقام به نصر بن سيار يعد تمردا على السلطة المركزية واعلانا لاستقلاله عنها بعد ان تحدى من هو اعلى سلطة منه. ولما كانت سلطته الشرعية واليا على خراسان قد انتهت بموت الوليد الثاني فقد حكم نصر بن سيار بدون حق شرعي واعتمد في سلطته على موافقة اهل خراسان وعلى تأييد ومساندة كتلة قوية منهم. ان هذا الموقف المتحدي والعمل التعسفي الذي بادر به نصر بن سيار كان سببا في المآسي التي تلت.

أن المفتاح الذي يوضح لنا فهم الاحداث السياسية في السنوات الأخيرة من الخلافة الاموية هي حقيقة ان القبائل القيسية كانت ولمدة طويلة صاحبة السلطة على حساب القبائل اليمانية التي كانت في الماضي السند الرئيس للامويين. ولهذا فقد كانت اليمانية تشعر بالامتعاظ وتتحين الفرصة للثأر. لقد تبنى الخليفة يزيد الثالث الجديد سياسة مواليه للقبائل الكلبية (اليمانية) وكان والي خراسان الجديد منصور بن جمهور كلبيا وعلى ذلك فان كلب توقعت تغيرا في الأوضاع في خراسان .ولكن عناد نصر بن سيار حال دون تحقيق ذلك، حين رفض ان يسلم خراسان الى الوالي الكلبي الجديد.

ولقد بدأت قبائل الازد اليمانية باظهار استيائها وكان من الممكن ان تعلن ثورتها ضد وال اقل احتراما واقل شعبية من نصر بن سيار ولكن رغبة نصر بالحصول على تأييد كافة الاطراف من اهل خراسان جعلته يظهر بمظهر الوالي المحايد الذي يعلو على العصبيات القبلية. ولكي يسند القول بالفعل عين العديد من اليمانية امراء على طخارستان وقوهستان وخوارزم ومناصب ادارية اخرى في خراسان مما ارضى اليمانية لبعض الوقت.

ولكن المشاعر الطيبة كانت وقتية ولم تلبث القبائل اليمانية ان اصبحت بؤرة التمرد والاضطراب تنتظر الفرصة لتضرب ضربتها القوية. وقد جاءت الفرصة حين حان وقت توزيع نصر بن سيار العطاء .فبعد صلاة الجمعة صاح احد موالي الازد بأعلى صوته مطالبا بالعطاء وتبعه الاخرون الذين تجمهروا حول شيخ الازد اليمانية جديع بن علي الملقب بالكرماني . وكان نصر بن سيار قد عامل هذا الزعيم اليماني باحترام وتقدير اكثر مما يستحقه حيث عينه رئيسا لديوان الرسائل ولم يحفل بطلب يوسف بن عمر الذي امره بقتله، كما اعانه في مواقف اخرى.ويبدو ان العرفان لم يكن من صفات الكرماني الذي كان في حقيقته وصوليا.

لقد بدأ جديع يحقق النجاح ، وحين استفسر نصر بن سيار عن اهدافه اجاب الكرماني «كانت غايتي في اطاعة بني مروان ان تقلدني السيوف فأطلب بثأر بني المهلب ..»

ولم يأخذ نصر بن سيار موقف الكرماني مأخذا جديا في البداية ولذلك حين طالب المضرية بقتله اجاب نصر:

«لا ولكن لي اولاد ذكور واناث فازوج بني من بناته وبنيه من بناتي قالوا لا قال فأبعث اليه بمائة الف درهم فانه بخيل ولايعطي اصحابه شيئا ويعلمون بها ويتفرقون عنه»

ولكن حين تعدت اجراءات الكرماني كل الحدود قرر نصر بن سيار سجنه في ١٤ تموز سنة ٧٤٤م/١٢٧هـ الا ان الكرماني لم يلبث طويلا اذ انقذه اتباعه الازدية من الاعتقال وحينما استعد نصر لاتخاذ اجراءات شديدة خضع الكرماني واعلن ولاءه وحصل على الامان من نصر بن سيار.

ان مدة الوفاق بين الكرماني ونصر بن سيار كانت قصيرة فقد عد الكرماني ملاحظتين ابداهما نصر بن سيار بمثابة اهانة للازد مسوغه للخروج على طاعة الوالي الاموي ،فقد اشار نصر بن سيار في الملاحظة الاولى في خطبة الى قبيلة الازد اليمانية قائلا «فنال الكرماني فقال ولد بكرمان وكان كرمانيا ثم سقط الى هراة فكان هرويا والساقط بين الفراشين لا اصل ثابت ولافرع ثابت ثم ذكر الازد فقال ان يستوثقوا فاذل قوم وان يأبوا فهم كما قال الاخطل

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت

فدلّ عليها صوتها حية البحر

اما الملاحظة الثانية فهي تلك التي أبداها نصر بن سيار حين علم بعزل والي العراق منصور بن جمهور اليماني وتعيين ابن عمر واليا جديدا على العراق حيث قال:

«فخطب الناس وذكر ابن جمهور وقال قد علمت انه لم يكن من عمال العراق وقد عزله الله واستعجل الطيب بن الطيب بن الطيب فغضب الكرماني لابن جمهور فعاد في جمع الرجال واتخاذ السلاح»

لقد عدّ الكرماني هاتين الملاحظتين إهانة شخصية له وتعريضا بقبائل الازد وبدأ بجمع الرجال والسلاح. ولم تجد محاولات نصر بن سيار معه للاقلاع عن خططه حيث انذره «... لقد لججت واخاف ان يتفاقم الامر فنهلك جميعا وتشمت بنا هذه الاعاجم»

اصر الكرماني على موقفه وقال أن نصرا ليس له سلطة شرعية واليا على خراسان وعليه ان يعتزل وان يشغل المنصب رجل من بكر بن وائل (من ربيعة التي رغم كونها مضرية الا انها منذ زمن بعيد حليفة للازد) حتى يعلم اهل خراسان قرار الخليفة حول الموضوع. ان هذا الاقتراح جرح نصر بن سيار في الصميم وكشف اضعف نقطة فيه. ولقد تنبأ الوالي بأن الحرب الاهلية واقعة لامحالة في الأمد القريب.

شعر نصر بن سيار بأن الصراع القبلي سيعطي الحارث بن سريج المرجئ فرصة ذهبية للظهور ثانية على المسرح السياسي. وكان الحارث المرجئ قد التجأ الى الترك وعاش معهم منذ مدة. وقد اخطأ نصر بن سيار خطأ كبيرا حين اعتقد بأن اصدار العفو عن الحارث المرجئ ودعوته من منفاه سيجعل منه عاملا محايدا في الصراع القادم. وقد نال نصر بن سيار تأييد الخليفة على خطوته هذه حيث كتب الى الحارث:

«اما بعد فإنا غضبنا لله ان عطلت حدوده وبلغ بعباده كل مبلغ وسفكت الدماء بغير حلها واخذت الأموال بغير حقها فأردنا ان نعمل في الامة بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .. فاقبل امننا انت ومن معك فانكم اخواننا واعواننا وقد كتبت الى عبد الله بن عمر برد ماكان اصطفى من اموالكم وذراريكم».

ولاشك من ان الرسالة نالت الاعجاب من شخص كان هو نفسه يدعو الى كتاب الله وسنة رسوله .وحينما وصل الحارث المرجئ الى مرو في ٢٧ جمادي سنة ١٢٧هـ / نيسان سنة ٧٤٥م استقبل استقبالا حارا. وقد منحه نصر خمسين درهما يوميا كما ان زوجة نصر اهدته جبابا من الفرو باعه بأربعون الف درهم مستخدما المال لجمع الاتباع واقترح نصر بن سيار توليته على احدى المدن مع ١٠٠ الف دينار ولكن الحارث المرجئ اجاب:

« اني لست من هذه الدنيا ولامن هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شئ وانما أسال كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال اهل الخير والفضل فإن فعلت ساعدتك على عدوك».

وقد اختلف المؤرخون حول شخصية الحارث المرجئ فبينما يدعوه دينت « المنافق القديم » يرى فلوتن بأنه «مسلم تقي زاهد ومصلح ثائر لتحرير المظلومين ولعب دور المنقذ»

ويعود دينت فيقول في تحليله لشخصية الحارث المرجئ بأنه من الاقرب الى الصواب القول بأن الحارث كان سياسيا بارعاً يتمتع بادراك ممتاز للشعارات التي تجذب جماهير الناس وكانت الدعوة الى كتاب الله وسنة نبيه شعارا براقا استخدمته كافة الاحزاب السياسية من شيعة وخوارج، بل ان الخليفة الأموي نفسه رفع هذا الشعار في اكثر من مناسبة ضد اعدائه والمتمردون على سلطته وكذلك فعل الحارث المرجئ .على اننا يجب نتذكر أن الحارث المرجئ في ثورته الاولى حين قاد الترك ضد العرب المسلمين كان مسؤولاً عن قتل الآف المسلمين الاتقياء وبعد اندحاره عاش مع الكفار الترك لعدة سنوات.

والآن وبعد ظهوره ثانية على المسرح السياسي عاد يدعو الى منهجه السابق الذي يوصله الى السلطة والذي اجبر على التخلي عنه في المرة الاولى. ان مخاوف نصر بن سيار من مما سيقوم به الحارث المرجئ لو بقي بين الترك بدأت تتحقق الآن بعد عودة الحارث المرجئ الى خراسان. فقد اتصل الحارث المرجئ بالكرماني واخبره بأنه سيكون الى جانب نصر اذا طبق الكتاب والسنة وعين ولاة عادلين وبعكسه فسيكون الى جانب الكرماني. واذا كان الحارث المرجئ لم يعد من الصعب عليه ان يتحالف مع الترك الكفار فلم يكن والحالة هذه صعبا عليه ان يتحالف مع رجل مثل الكرماني هدفه المعلن الثأر القبلي.

وفي الوقت نفسه وصلت أنباء انتصار مروان بن محمد الى خراسان وقد اعلن نصر بن سيار ولاءه الى الخليفة الجديد. اما بالنسبة الى الحارث المرجئ فان هذه الانباء قدمت له عذرا ممتازا فقد قال بأن الامان والعهد الذي حصل عليه كان مقدما من يزيد الثالث وليس من مروان ولهذا فهو (اي الحارث المرجئ) في حل من وعوده.وكان نصر بن سيار قد تلقى العهد بتنسيبه واليا على خراسان عن طريق ابن هبيرة وقد دعم ذلك موقفه في خراسان .ومع ذلك فان نصر بن سيار كان راغبا بالتعاون مع الحارث المرجئ ضمن حدود المعقول .وقد عرض نصر على الحارث اي منصب يرغب فيه. ولكن الحارث رفض العرض وطالب باقالة سلم بن احوز صاحب حرس الامير .وحين طالب نصر بأسماء الذين يرغب الحارث بتعيينهم في مناصب ادارية قدم الحارث الاسماء فوافق نصر على عرض الامر على لجنة تحكيم، وقد بدا واضحا ان الحارث المرجئ لايهدف الى تعيين عمال جيدين بل يخطط لوضع اتباعه في المناصب المهمة ثم اقالة والي خراسان نفسه من منصبه وحين ظهر الحارث المرجئ على حقيقته قرر نصر بن سيار ترك محاولات التوفيق والصلح واستعد لما هو اسوأ خاصة وان هدف الحارث المرجئ كان اسقاط الحكم الاموي من خراسان وتنصيب نفسه اميرا عليها.وحين اعلن الحارث المرجئ في المسجد:

«انا لانرضى بك (نصر) اماما»

اجابه نصر بن سيار:

«كيف يكون لك عقل وقد افنيت عمرك في ارض الشرك وغزوت المسلمين بالمشركين اتراني اتضرع اليك اكثر مما تضرعت»

وقد هزم نصر بن سيار الحارث ورجاله فالتجأ الحارث الى الكرماني الذي بايعه الازد واليا شرعيا على خراسان ،ولكن تحالف تميم مع الازد لم يكن طبيعيا ورغم ان الازد وتميم (مضر) اوقعوا الهزيمة بقوات نصر في احدى المعارك الا ان الازد كانوا يهزأون من تميم المضرية التي امتعضت من هذا الموقف اشد الامتعاض.واكثر من ذلك استعادت الايام الخوالي حين فر الحارث الى الترك فانتهزت الازد الفرصة وعاملت تميما معاملة قاسية في بلخ فقتلت خمسين رجلا وقطعت ايدي وارجل ثلاثمائة اخرين وصلبت عددا اخر. وحين علم نصر بن سيار بالخبر ادرك بأن التحالف الازدي ــ التميمي سينقلب الى خصومة شديدة قرر ان يتركهما يقتل بعضهما بعضا ،ولهذا انسحب نصر بقواته من مرو العاصمة الى نيسابور وكان ذلك في اذار من سنة ٧٤٦م/١٢٨هـ

وفي الحال قرر الكرماني احتلال مرو واعلن في خطبة الجمعة الشعار الذي رفعه الحارث داعيا الى «كتاب الله وسنة نبيه»

اما الحارث فكان يواجه المصاعب في معسكره. فقد خاطبه بشر بن جرموز الضبي حيث خرج بخرقان فدعا الى الكتاب والسنة وقال للحارث: «انما قاتلت معك طلب العدل فأما اذا كنت مع الكرماني فقد علمت انك انما تقاتل ليقال غلب الحارث وهؤلاء يقاتلون عصبية فلست مقاتلا معك واعتزل ... وقال نحن الفئة العادلة» وشعر اخرون الشعور نفسه فقد صرخ سلمة بن عبد الله متبرءا من الحارث وخيانته وغدّره:

« والله لااتبع الحارث ابدا فاني لم اره الا غادرا ».

وقال المهلب بن اياس:

«لا أتبعه فإني لم اره قط الا في خيل تطرد»

وحين بدأ عدد المدركين لحقيقة شخصية الحارث المرجئي بالازدياد حيث رأوا فيه مقاتلا فضا متعطشا لسفك الدماء هاجمه الكرماني وسحق اتباعه وقتله ،وقد صلب الكرماني الحارث على باب مرو في ٢٣ من رجب سنة ١٢٨ هـ/ نيسان ٧٤٦م. وبهذا انتهت حياة اكبر اعداء الامويين في خراسان.

ومهما يكن من امر فإن الحرب القبلية تأججت وذلك لان اتباع الكرماني من اليمانية لم يروا في القضاء على الحارث المرجئ التخلص من منافس سياسي فحسب بل عدوّه انتصارا على تميم المضرية. وحينا كانت هذه الاحداث تأخذ مجراها كان مروان بن محمد محاصرا حمص للمرة الثانية

.وقد زادت الحرب الاهلية بين قيس وكلب في العراق وانتصارات القيسية في بلاد الشام من حدة الصراع في خراسان .فلم تعد هناك حكومة محلية في خراسان حيث يسيطر الكرماني بقوة اتباعه من اليمانية على مرو. اما نيسابور وغربي خراسان فكانت تحت سيطرة نصر بن سيار الذي اجبر على اتباع سياسة موالية للقيسية رغم انه لم يكن يريد ذلك.

لقد غدت الحالة في خراسان مشابهة تماما لما حدث في العراق خلال ولاية النضر بن سعيد القيسي وابن عمر الكلبي. ففي العراق استغل الضحاك الخارجي هذا الانشقاق وضرب ضربته المعروفة وحقق نجاحا حين انضم اليمانية تحت لوائه. لقد حذت احداث خراسان حذو احداث العراق بدقة متناهية. ففي خراسان استغل الدعاة العباسيون وعلى رأسهم سليمان الخزاعي وابو مسلم الخراساني فقدان السلطة في خراسان وقاموا بثورتهم العباسية .كما حدث في العراق في البداية تحالف اليمانية والمضرية ضد العدو المشترك ثم انسحب اليمانية من التحالف وانضموا الى العدو (الدعوة العباسية) وبهذا حقق العباسيون النصر .ومع ذلك فاننا لا ننسى أن سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة حدثت في خراسان بل نتيجة ثورة حدثت في بلاد الشام اولا وقبل كل شيء.

واذا كان لابد من التفصيل في احداث خراسان فاننا نقول ان مقتل الوليد الثاني ادخل بلاد الشام ثم العراق ثم خراسان حرب اهلية وصراع قبلي دام ففي سنة ١٢٨هـ /٧٤٥ — ٧٤٦م كان مروان بن محمد مشغولا باضطرابات حمص وكان الضحاك الشيباني مسيطرا على العراق، اما خراسان فكانت تشهد صراعا بين نصر بن سيار والي الامويين وبين الكرماني زعيم اليمانية وحلفائهم .وقد ادرك الدعاة العباسيون ان الوقت قد حان لاعلان الثورة ضد الامويين.

ولما كان مروان بن محمد يحارب قبائل كلب السورية ولما كان العراق يسيطر عليه تحالف كلبي — خارجي فلابد والحالة هذه من ان تتوجه سوقية الدعوة العباسية لكسب القبائل الكلبية في خراسان .وبالفعل فقد حمل ابو مسلم الخراساني تعليمات الامام ابراهيم العباسي الى سليمان بن كثير الخزاعي الذي كان يسكن قرية سفيذنج اليمانية في ضواحي مرو في رمضان سنة ١٢٩هـ /١٦ مايس ٧٤٧م ليعلن الثورة ضد الامويين .وقد تم ذلك فعلا حيث رفع علم الثورة الاسود ونقشت عليه الاية القرآنية.

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير».

ثم تحرك ابو مسلم وخندق في قرية جيرانج ومعه حوالي الف مقاتل غالبيتهم من اليمانية ويقودهم عرب امثال زياد الازدي وخدان بن عمار الكندي. كما سيطر خازم التميمي باسم العباسية على مرو الروذ.

وخلال الصيف سنة ١٢٩هـ /٧٤٧م كان نصر بن سيار يحاول ان يستعيد مرو الشاهجان ويدحر الكرماني وحليفه الجديد شيبان الخارجي الا ان المحاولتين اللتين قام بهما نصر بن سيار فشلتا وتكبد المضرية خسائر فادحة قدرت في المعركتين بزهاء ١٠٠ رجل وبدا واضحا لنصر بان

الظفر لا يتم دون مساعدة من الخليفة مروان. وفي الوقت نفسه حاول رؤوس الدعوة العباسية ان يشعلوا نار الفتنة بين نصر والكرماني فكتبوا للطرفين المتحاربين يحثانهما على الطرف الاخر ويعدانهما بالمساعدة !!

لم يكن مروان بن محمد في وضع يمكنه من الاستغناء عن بعض جنده لمساعدة نصر ولذلك كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة يحثه على انجاد نصر ولكن حال ابن هبيرة لم يكن بأحسن من حال الخليفة .وفي احدى رسائله الى الخليفة اعترف بأن ليس لديه رجل واحد يمكنه الاستغناء عنه !! .والواقع أن عوامل عديدة حالت دون ارسال يزيد بن هبيرة لقوات اضافية من العراق الى خراسان لعل اهمها ان ابن هبيرة كان يواجه مصاعب بالعراق وانه لا يمكن ان يعتمد على اهل العراق لخوض حرب من اجل الامويين. ولم يدرك ابن هبيرة كما ادرك نصر بن سيار أن ارسال قوة عسكرية مهما كانت صغيرة الى خراسان سيكون له تأثير معنوي كبير ربما قلب موازين القوى رأسا على عقب.

ولم يكن امام نصر بن سيار والحالة هذه الا ان يسعى الى نوع من التفاهم مع الكرماني واليمانية الذين بدأوا يتسلمون مساعدات لابأس بها من قادة الدعوة العباسية ،وقد عرض نصر على الكرماني الاخطار المحدقة بخراسان واقترح عقد لقاء بينهما من اجل التفاهم. ووافق الكرماني على الاقتراح الا ان الشك وسوء النية كانا لا يزالان يتحكمان في العلاقة بينهما فقد اغتيل الكرماني في مكان الاجتماع اغتاله ابن الحارث بن سريج المرجئ ثأرا لابيه الذي قتله الكرماني قبل اشهر قليلة ماضية. ويبدو ان لنصر يدا في هذه المؤامرة التي وقعت في آب ٧٤٧م /١٣٠هـ .ولاشك في أن محصلة هذا الاغتيال كانت التباعد بين نصر بن سيار واليمانية في خراسان.

لقد ادرك نصر بن سيار أن لا امل في القبائل اليمانية في خراسان ولكنه مع ذلك عمل مافي وسعه من اجل ان يعقد هدنه مؤقته مع علي بن الكرماني وشيبان الحروري لكي يتفرغ على الاقل للشيعة العباسية. وقد عقد المؤتمر بالفعل وتكلم فيه يحيى بن نعيم بن هبيرة فنصح اليمانية بالتحالف مع نصر موضحا السبب فقال:

« صالحوا نصرا فإنكم ان صالحتموه قاتلوا (اي شيعة بني العباس) نصرا وتركوكم لان الامر في مضر وان لم تصالحوا نصرا صالحوه وقاتلوكم.

قالوا: ما الرأي؟

قال : قدموهم (اي اتباع نصر) قبلكم ولو ساعة فتقر اعينكم بقتلهم» !!

وقد اتفق الاطراف الثلاثة نصر بن سيار وعلي بن الكرماني وشيبان الحروري على هدنة لمدة سنة وبهذا نجح نصر في تحقيق نصر دبلوماسي مهم كان من اول ثماره تمكنه من اعادة السيطرة على مرو عاصمة خراسان.

لقد وجد قادة الدعوة العباسية انفسهم في حالة صعبة بعد الهدنة المذكورة أنفا الا ان نقيب النقباء سليمان بن كثير الخزاعي عزم على تقويض هذه الهدنة واستمالة ابن الكرماني الى جانب الدعوة العباسية .وقد نجح في ذلك حيث اثار في ابن الكرماني ذكرى اغتيال والده كما، انه اطمعه بولاية خراسان بدلا من نصر بن سيار. واكبر الظن ان ابن الكرماني لم يكن على علم بأسرار الدعوة العباسية او اهدافها وانما فهم أن الدعاة العباسيون هدفهم مثل هدفه وهو انهاء سيطرة نصر بن سيار من خراسان واسقاط الخلافة الاموية. وهكذا ففي ايلول سنة ٧٤٧ /سنة ١٣٠م انضم ابن الكرماني هو واتباعه من قبائل اليمن وغيرها الى صف الدعوة العباسية.

ورغم ان نصر بن سيار حاول محاولة اخرى للتفاهم مع الدعاة العباسيين واقترح عقد اجتماع لذلك فان هذا الاجتماع لم يأت بالنتيجة المرجوة فقد اعلن سليمان بن كثير الخزاعي نقيب نقباء الدعوة العباسية وخطباء آخرون غيره وقوفهم الى جانب اليمن ضد مضر، فقد قال مزيد السلمي من جملة ما قال:

«مضر قتلة ال النبي صلى الله عليه وسلم وأعوان بني اميه وشيعة مروان الجعدي ودماؤنا في اعناقهم واموالنا في ايديهم والتباعات قبلهم ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ اموره ... نحن من ذلك الى الله براء وان يكون مروان امير المؤمنين وان يكون نصر على هدى وصواب وقد اخترنا علي بن الكرماني واصحابه من قحطان وربيعة». وتمضي رواية الطبري فتقول: فنهض وفد مضر عليهم الذلة والكآبة ووجه معهم ابو مسلم القاسم بن مجاشع في خيل حتى بلغوا مأمنهم.

وهكذا اسقط في يد نصر بن سيار وبدأ اليمانية ينخرطون في صف الدعوة العباسية وكأن احداث العراق كررت نفسها في خراسان .وفي هذا اليوم انتصرت الدعوة العباسية على والي الامويين ابن سيار وكانت النتيجة المباشرة لذلك سقوط مرو بيد العباسيين في جمادي الثاني سنة ١٣٠ هـ/١٤ شباط ٧٤٨م.

وقد توالت الاحداث في خراسان بعد ذلك حيث هرب نصر بن سيار باتجاه نيسابور غربا وتوفي في الطريق ثم قتل الجيش العباسي شيبان الحروري في سرخس .وبدأت المدن الخراسانية تسقط الواحدة تلو الاخرى بيد الشيعة العباسية. وجاءت تعليمات الامام ابراهيم بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائدا عاما لقوات الدعوة العباسية.

وتحت قيادة قحطبة بن شبيب الطائي حققت قوات العباسيين نجاحا باهرا وسريعا في معاركها ضد قوات الامويين حتى وصلت العراق بعد ان تساقطت مدن بلاد فارس دونها الواحدة تلو الاخرى، حتى دخلوا الكوفة في المحرم من سنه ١٣٢ هـ/آب ٧٤٩م.

حقيقة الدعوة العباسية:

يقول ولهاوزن «ان اسقاط الدولة العربية جاء ممن اسلم من اهل خراسان (من الموالي) الذين قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين الى الاسلام». وهو يرى ايضا «أن حكم العرب انتهى بمجيئ العباسيين «وان الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الاممية الاسلامية».

ويرى الدكتور الدوري أن الدعوة العباسية انتشرت بالدرجة الاولى بين الموالي في العراق وخراسان ،اما بيكر فيرى أن أنتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب، ويقول الدكتور الجومرد «ربما كان الوضع في خراسان اقرب الى تبني الدعوة عنه في العراق العربي فهناك الشعب الفارسي برمته يخضع لقوة اموية هائلة ...».

ويرى دينت أن سقوط الامويين لم يكن الا نتيجة ازمة داخلية سببتها عوامل ضعف عديدة في كيان الدولة الاموية نفسها بدأت في دمشق وتشعبت الى الاقاليم وهذه الازمة ادت الى انقسام العرب انفسهم الى مؤيد او معارض للدولة الاموية مما ادى الى سقوطها. اما الدكتور شعبان فيرى أن الدعوة العباسية جذبت اليها المتذمرين من العرب وغير العرب المسلمين في خراسان باسم الاسلام ومن اجل تطبيق مبادئه. فما حقيقة هذه الثورة ياترى؟ وما التقويم الجديد الذي ينفذ الى اسبابها الحقيقية؟

لابد لمن يجيب عن هذا السؤال ان يستعرض باختصار حالة خراسان بعد الفتح الاسلامي وخاصة من حيث القبائل العربية التي هاجرت واستقرت فيها وعلاقة تلك القبائل العربية من أهل خراسان بعضها ببعض، تلك العلاقة التي لم تبق على ماكانت عليه في الجزيرة العربية او في العراق بل تطورت وتأثرت بالظروف الجديدة في خراسان التي اوجدت مصالح جديدة لم تكن موجودة في الحجاز والعراق. ان فهم حالة خراسان قبيل الثورة سيقودنا الى معرفة اسباب الاستياء والتذمر عند اهل خراسان (عرب وغير عرب) وموقف السلطة الاموية منهم ثم اسباب اندلاع الثورة هناك. يتفق المؤرخون المسلمون على أن خراسان فتحت ايام الخليفة عثمان بن عفان وعلى يد القائد عبد الله بن عامر (٢٩/٦٤٩ ــ ٣٥/٦٥٥).فبعد المعارك الحاسمة التي خاضها الجيش الاسلامي في العراق وغربي ايران فقدت السطلة المركزية الساسانية سيطرتها على الاقاليم وذلك لانهيار الجيش الساساني انهيارا تاما. وكان من نتيجة ذلك ان فسح المجال للمرازبة (وهم النبلاء المحليون) ليتصرفوا حسبما يرونه مناسبا وليقوموا بانفسهم بمهمة الدفاع عن مناطقهم دون الاعتماد على السلطة او ليعقدوا ماشاؤوا من المعاهدات مع العرب المسلمين. ولقد عقد مرزبان مرو معاهدة مع العرب أهم ماتقرر بموجبها اعطاء الدهاقين الحرية في تقرير الضرائب وتقسيمها ثم تسليمها الى العرب. اي ان الدهاقين هم المسؤولون عن الضرائب وليس للمسلمين شأن في تقريرها، وأن المعاهدة نصت على أن السكان المحليين الايرانيين فسح المجال لسكنى العرب في بيوتهم. ولهذه الفقرة اهمية كبيرة ذلك لانها كونت الاساس لعلاقات العرب المسلمين بالسكان المحليين.

على الرغم من قلة وافتقار الروايات التي تصف لنا استقرار العرب في مرو والقرى المحيطة بها، الا ان الموجود منها يمكننا في الواقع من تكوين فكرة بسيطة وواضحة عن استيطان العرب في خراسان.

تذكر روايات تاريخية اسماء اشخاص عرب عاشوا وماتوا في هذه القرية الخراسانية او تلك مثل قرية فنين وبوران شاه ومهرجان وسنان وجاروسا وغيرها.

ويذكر الطبري اسماء قرى حول مرو مثل باسان وبوينة تعود الى قبائل عربية. ويظهر ان طول اقامة هؤلاء العرب في تلك القرى ادى الى استقرارهم وامتلاكهم الاراضي. كما أن شيوخ القبائل العربية وافرادا من الارستقراطية العربية امتلكوا وعاشوا في قرى مع مجموعات من قبائلهم ومواليهم. وهناك روايات تاريخية مبعثرة تعطينا امثلة عن ذلك: فقد امتلك حرب بن عامر الواشجي وسليمان بن كثير الخزاعي واسيد بن عبد الله الخزاعي قرى. كما سكن بنو العنبر في قرية لهم في خراسان ،وكان غالبية سكان قصر اسد عربا وكانت منطقة خلم منطقة ازدية. وقد امتلك المحتفظ بن عثمان المضري بيتا في قرية اللين وربما كان يعيش معه في القرية عدد من افراد قبيلته.

اما بالنسبة الى مرو فقد كانت مركز الادارة العربية في خراسان ونقطة تجمع العرب المقاتلة الذين اعتادوا الجهاد سنويا في بلاد ما وراء النهر. ويصفها الطبري بأنها بيضة خراسان مشيرا الى اهميتها السوقية والادارية، اما المقدسي فيسميها أم القرى الا ان مصادرنا لاتذكر عدد العرب الذين سكنوا في مرو وقراها. ومهما يكن من امر فيظهر ان العرب المقاتلة اعتادوا السكنى في القرى المحيطة بالمدينة خلال عملية تعمير تلك المدينة. وهذا ماحدث حين فتح العرب دمشق وحين فتح قتيبة بن مسلم الباهلي بيع اتخذ قرية باروقان محلا لاقامته كما أن اسد بن عبد الله القسري امر ببناء قرى جديدة حول بلخ اتخذها مقرا لسكنى جنده حين نقل العاصمة من مرو الى بلخ.

من كل ذلك نستطيع القول إن من المحتمل جدا انه كان قد سمح للعرب المقاتلة بعد الفتح العربي لخراسان بالسكنى في القرى المحيطة بمرو. وهكذا فقد كانت سفيذنج واللين وفنين قرى خزاعية وكانت بوينه قرية طائية، اما باسان فكانت قرية لبني مضر، ولهذا فليس من المدهش ان نجد في المقدسي المثل القائل «رجال مرو من قراها» الذي يشير الى العرب الذين سكنوا في هذه القرى .الا ان هؤلاء العرب اختلطوا بمرور الزمن بالسكان المحليين فتكلموا الفارسية اضافة للعربية ولبسوا الازياء الفارسية وقلدوا العادات والتقاليد الفارسية وتزوجوا نساء فارسيات ، ولذلك يقول الجاحظ إنه من الصعوبة بمكان تمييز العرب الذين استقروا في خراسان عن سكان القرى المحليين.

لقد كان هؤلاء العرب القرويون هم هدف الدعاة العباسيين الذين حاولوا رفع شتى الشعارات من اجل جذبهم الى الدعوة العباسية .ويقول الطبري لقد كانت منطقة خرقانة العربية التي تضم قرية اللين من أول المناطق التي انضمت الى ابي مسلم الخراساني .ولقد اوت وحمت القرى الخزاعية الدعاة العباسيين اثناء بثهم الدعوة. فلقد ادرك الدعاة العباسيون بصورة بارعة أن العرب

وحلفهم يشكلون القوة الضاربة في خراسان واستطاعوا جذب عدد كبير منهم الى الدعوة عن طريق كسب شيوخ القبائل العربية .فإن مجرد كسب شيخ القبيلة كان يعني غالبا جذب القبيلة بكاملها. وتحفل المصادر التاريخية كأنساب الاشراف واخبار العباس وولده وتاريخ الرسل والملوك وتاريخ الموصل بأمثلة اخرى لامجال لذكرها في هذه العجالة.

يقول مؤلف أخبار إن (الصحيفة الصفراء) التي سلمها ابو هاشم عبد الله الى محمد بن علي العباسي حين عهد اليه قيادة الحركة السرية الهاشمية قبيل وفاته كانت تحتوي على معلومات ع الاحياء العربية التي ستنصر الدعوة السرية العباسية ويقول المصدر نفسه في محل «وطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها (بخراسان) من العرب حتى اضجر ذلك كثيرا من اصحابهما وجعلت نفوسهم تتطلع الى غير ما هم فيه والى امر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم ...

ولا تحتاج هذه الرواية الى ايضاح فانها تدل دلالة واضحة على الدور الرئيسي للعرب في الدعوة العباسية التي استطاعت ان تجذبهم اليها.

اما الازدي فينقل قول المنصور حيث يعترف بدور العرب اليمانية خاصة في الثورة حيث يقول «فيحق لنا ان نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا ويذكر الطبري قائمة بأسماء نقباء الدعوة العباسية الاثني عشر، احد عشر منهم عربي والنقيب غير العربي الوحيد مولى لقبيلة عربية ويوافقه الجاحظ والازدي في ذلك، على ان الاخير يبالغ حين يدعي أن جميعهم يمانية.

وهنا يجدر التحذير من(اولا: بعض الاسماء العربية لها ألقاب فارسية ولذلك يجب عدم الاسراع في الحكم على كونهم فرسا فإن الكثيرين من مشاهير العرب تسموا بأسماء مدن فارسية عاشوا فيها مثل جديع بن علي الكرماني (الازدي) خازم بن خزيمة المروزي (التميمي) الفضل بن سليمان الطوسي (التميمي) وقحطبة بن شبيب الطوسي (الطائي) وعامر بن عمرو السمرقندي والخ . وثانيا: هناك الكثير من العرب الذين تبنوا اسماء فارسية مثل الهيثم بن معاوية العتكي (هزارمرد) وعمر بن حفص المهلبي وكان يلقب ايضا (هزارمرد) وثالثا: بأن اصطلاح (اهل خراسان) قد اتخذه بعض المؤرخين المحدثين ليعني غير العرب من اهل خراسان ،اي الفرس. وليس هناك مسوغ لذلك على الاطلاق بمصادرنا الاصلية كالجاحظ والطبري تتكلم كثيرا عن العرب من اهل خرسان .يقول الطبري عن قائدين عسكريين (وهما قائدان من اهل خراسان من قبيلة طي)،وهناك الكثير من العرب تسميهم المصادر خراسانيين مثل عبد الملك بن يزيد ،مالك بن طريف، الهيثم بن معاوية حميد بن قحطبة بسام بن ابراهيم والعباس بن الاحنف. ولعل الغموض والارتباك عند المؤرخين حول هذا الاصطلاح المهم يعود الى سياسة الدولة العباسية نفسها التي حاولت ان تحتفظ بأهل خراسان ايا كانت قبيلتهم او اصلهم او منطقتهم كتلة واحدة او فرقة واحدة في الجيش العباسي

تتميز عن الفرقة الاخرى اليمانية والمضرية والربعية ونتيجة لذلك فإن الباحثين عدوا اهل خراسان فرسا في غالبيتهم تمييزهم عن الفرق العربية الاخرى. وما درى هؤلاء الباحثون بأن اغلبية رجال الفرقة الخراسانية في الجيش العباسي عرب من اهل خراسان.

اما وصية ابراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني التي يتخذها بعض المؤرخين دليلا على اعتماد الدعوة على العنصر الفارسي وشكها بالعنصر العربي فهي لاتقف امام النقد الموضوعي. وأول مايجب النظر إليه هو ان هذه الوصية غير متفق عليها عند المؤرخين المسلمين ولذلك لايمكن قبولها بدون تمحيص لرواياتهم .فمن جهة النقد الخارجي. فالرواية يذكرها الطبري بدون سلسلة رواة، ويذكرها ابن قتيبة ورواياته مرتبكة وغامضة وخاصة عن الثورة العباسية، ولاذكر لها في مصادر مهمة مثل البلاذري واخبار العباس وولده. اما كونها مذكورة في كتب تاريخية متأخرة فليس ذا أهمية لأنهم نقلوها منَ روايات سابقة لعهدهم دون تمحيص او نظر.

والجدير بالذكر ان رواية الدينوري وكتاب «العيون والحدائق» لاتذكر النص الذي يأمر فيه ابراهيم الامام ابا مسلم بقتل العرب دون تمييز او تفريق. اذ الوارد ان الامر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة او المشكوك فيهم «واقتل من شككت في امره» .وتؤيد مخطوطة اخبار العباس هذا فتنقل نصا لابي مسلم حين يقول «امرني الامام ان انزل في اهل اليمن وأتألف ربيعة ولا ادع نصيبي من صالحي مضر واحذر اكثرهم من اتباع بني امية واجمع الي العجم ..»

وفي مناسبة اخرى قال:

« لقد امرنا الامام باختصاص اليمن»

اما النقد الداخلي للوصية إن متنها مفصول في رواية الطبري الى قسمين تذكر بينهما حوادث الثورة، وانها ذكرت تحت عنوان سبب قتل مروان بن محمد لابراهيم الامام مما يدل على انها كلها او بعضها دعاية اموية ضد العباسيين وضعت لتسويغ قتل مروان لابراهيم. ثم ان متن الرواية يظهر تناقضات كثيرة. فكيف يصح ان يأمر ابراهيم الامام بقتل كل العرب وهو يدرك اهميتهم ويوصيه في بداية الرواية بتعهد اليمانيين والربعيين منهم. ثم ان سياسة ابي مسلم في خراسان لاتتفق ابدا مع الوصية المزعومة ذلك لانه تقرب الى اليمانيين والربعيين وقبل الكثير من المضريين الذين وثق بهم في صفوف الاتباع.

ان المجال هنا لايتسع الى الاسهاب في ذكر حوادث الثورة العباسية، ولعل القارئ قد ادرك أن هدفنا منصب بالدرجة الاولى على اظهار دور العرب الخراسانيين في الثورة العباسية ورد الاراء التي تؤكد ان الثورة قامت على اكتاف الفرس. فلقد اسهب فان فلوتن وولهاوزن ومن تبعهما من المؤرخين في تبيان الوضع الاجتماعي والمالي السيء للشعوب«المحكومة»من قبل العرب وابرزوا فقط الروايات القليلة المبعثرة التي تظهر تعسف بعض الولاة العرب في جباية الضرائب والتي تظهر

احتقار العرب لغير العرب اجتماعيا. وقد يكون بعض هذه الروايات صحيحا الا انها حالات فردية ولا يجوز اتخاذها قاعدة عامة. فلقد اظهر كب انه لم تشترك في بلاد ماوراء النهر اية مدينة ولم تعلن تأييدها للثورة العباسية .ولو كان الضغط الاقتصادي والتمييز الاجتماعي للشعوب الايرانية المغلوبة قد بلغ الوضع الذي يصوره هؤلاء المؤرخون لانتهزت هذه المدن الفرصة (فرصة الثورة) وأيدتها بحرارة.

هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن المتتبع لتطورات الثورة ومسيرة الجيش الخراساني الى الغرب يرى بوضوح ان قسما من الايرانيين قاتلوا الى جانب نصر بن سيار والي الامويين على خراسان. كما أن الكثير من المدن الايرانية آوت وحمت الجيش الاموي المنسحب وقاومت الجيش الخراساني المتقدم ومن هذه المدن جرجان ونهاوند.

واعتقد بأن الشئ الذي اهمله اغلب المؤرخين المحدثين هو أولا: سياسة الامويين المالية والادارية في خراسان ومدى تأثيرها على مصلحة القبائل العربية الخراسانية هناك، ثانيا: سياسة الامويين العسكرية في تركستان ومدى تقبل المقاتلة العرب من اهل خراسان لها.

ذلك لان العرب الخراسانيين انقسموا بمرور الزمن الى قسمين رئيسين:

أ ــ المستقرون المستوطنون الذين اتجهوا نحو الاستقرار وشراء الاراضي والاشتغال بالتجارة فأصبح القتال بالدرجة الثانية بالنسبة لهم. ب ــ المقاتلة وكان لهم عطاء معين من الحكومة ومهمتهم الرئيسية الحرب ضد الترك، وكانوا في العادة يجاهدون صيفا ويعودون شتاء الى عوائلهم في مرو او القرى المحيطة بها او في مدن خراسانية أخرى.

وكان لابد من حدوث مشاكل بين السلطة المركزية الاموية والوالي الاموي من جهة وبين زعماء القبائل العربية الخراسانية من جهة اخرى وذلك لتصادم المصالح .فالسلطة الاموية كانت تشجع الولاة على ارسال اكبر مقدار ممكن من الغنائم والضرائب الى الخزينة المركزية بينما عارض القواد وشيوخ القبائل المقاتلة ارسال اكثر من خمس الغنائم للخليفة وتقسيم الباقي على انه غنائم وفيء على المقاتلة وهو من حقهم.

وقد ادت هذه المشادة حول لمن يكون ريع خراسان؟ لدمشق ام للعرب من اهل خراسان ؟ الى:

١) ظهور تكتلات قبلية جديدة لاتستند في اساسها على العصبية القبلية القديمة بل على المصالح الجديدة للقبائل الخراسانية ولذلك نرى احلافا قبلية لاعلاقة لها بالاحلاف القديمة ،كما ان الفرد او الفخذ من قبيلة معينة انضم الى تكتلات اقوى نظرا لان مصلحته اقتضت ذلك بغض النظر عن العصبية أو الاحلاف القديمة.

٢) ادت الاختلافات الى ارتباك الوضع في خراسان والى مد وجزر في سلطة الخليفة الاموي مما اضطر الخلفاء احيانا الى التغاضي حتى عن حصتهم من الغنائم وارسال ولاة اقوياء لاعادة سلطة

الحكومة المركزية هناك أو ارسال ولاة قرشيين حياديين لحل الأزمة، او جعل خراسان ولاية مستقلة غير تابعة للبصرة اداريا.

٣) ادى الاختلاف مع الوالي في مرو الى ان العرب بدأوا يبحثون عن اماكن جديدة غير مرو للاستقرار فيها مثل طالقان، مرو الروذ، طوس، هرات ،نيسابور .وقد يكون استقرارهم في هذه المناطق وقتيا وذلك للتخلص من الاحتكاك بالوالي.

٤) ان استقرار العرب ربما دفع بعضهم الى امتلاك الاراضي وكذلك الاشتغال بالتجارة، وهذا ماجعلهم عرضة لدفع الضرائب الى الدهاقين الفرس حسب معاهدة مرو المذكورة أنفا. وهكذا اصبح العرب المستقرون يشاركون السكان المحليين شعور التذمر والاستياء من الضرائب المفروضة. الا ان شعور العرب بالتذمر كان اقوى ،ذلك لانهم شعروا بنوع من الحيف والغبن حيث سلط عليهم الوالي العربي الدهاقين الفرس لجباية الضرائب منهم في الوقت الذي كان عليه من وجهة نظرهم ان يعفيهم من الضرائب لأنهم عرب ومسلمون.

٥) ان شعور العرب المستقرين بالاخطاء التي كان يحس بها السكان المحليون نفسها اسرع في اندماج العنصرين ذلك لان مصدر تذمرهم واحد هو الامير الاموي والدهقان الفارسي.

وكان للمقاتلة العرب مصدر اخر للتذمر من السلطة — عدا مسألة الغنائم وحصة بيت المال منها — الا وهو سياسة التجمير، وهي ابقاء المقاتلة على خط القتال شتاءاً فيما كانت العادة المتبعة هي اعادتهم الى عوائلهم في الشتاء على ان يجاهدوا صيفاً. وقد قاوم الكثير من المقاتلة هذه السياسة وامتنع عن الانخراط في الحملات وفضل الاستقرار في المدن والقرى على الحرب الطويلة السنوية) وقد ظهر هذا — الاتجاه بصورة مبكرة ووقف منه الخلفاء مواقف نود ان نذكر منها الموقف المتعقل للخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ — ١٢٥/٧٤٣) .حيث امر واليه الجنيد بن عبد الرحمن المرى بأن يسقط اسماء هؤلاء المقاتلة الذين يرفضون الجهاد من الديوان وامره بأن لاحاجة به الى الضغط عليهم لانه سيرسل له مقاتلة غيرهم ممن يرغبون في القتال. ان هذه المعالجة المتزنة للموقف تدل ضمنا على ادراك الخليفة هشام بأن عملية الاندماج بين العرب والسكان المحليين قد بدأت ولذلك فالعرب من اهل خراسان يحبون الاستقرار، ولايمكن للسلطة الاموية معارضة هذا الاتجاه بالقوة. الا ان ارسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة او ارسال الجند السوري الى خراسان لتعزيز مركز الامير او لدعم سياسة الجهاد الاموية ادى الى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين حديثا وبين العرب القدماء من اهل خراسان. فتكونت كتلتان متنازعتان من اهل خراسان العرب اتخذت كل منهما ممثلا لها فكانت هناك كتلة نصر بن سيار والي خراسان وكتلة جديع بن علي الكرماني، خصم نصر العنيد ومنافسه على ولاية خراسان.

فحينما تولى الخليفة الاموي الوليد الثاني (١٢٥/٧٤٣ — ١٢٦/٧٤٤) عزل نصرا وجعل خراسان تابعة مباشرة لوالي العراق الا ان نصر اخر عودته من خراسان وفجأة قتل الوليد الثاني

وخلفه يزيد الثالث وقد تولى ولاية العراق منصور بن جمهور احد اقطاب المؤامرة ضد الوليد الثاني، وقد عين هذا اخاه منظور بن جمهور اميرا على خراسان ،الا ان نصرا رفض تسليم الولاية وكان عمله هذا بمثابة اعلان العصيان على السلطة في دمشق، وكان لذلك واليا غير شرعي لانه لايستند على تأييد دمشق. وقد استغل الكرماني هذه المحنة التي وقع فيها نصر.وكان الكرماني زعيم قبائل الازد وحلفائها وتصفه المصادر بشيخ العرب وشيخ خراسان وفارسها وكان طموحا يسعى لنيل ولاية خراسان ، وقد حاول نصر التقرب الى الكرماني من اجل ان يعزز مركزه في خراسان ضد دمشق فاغراه بالمال والمنصب دون جدوى ولذلك اعتقله وسجنه، الا ان الكرماني هرب من السجن بمساعدة اعوانه الكثيرين. واعلن الثورة ضد حكم نصر غير الشرعي واغرى الحارث بن سريج المرجئي بانضمام اليه. وتبع الكرماني الكثير من اليمانية والربعية حتى المضرية المتذمرين من نصر وسياسته. واستطاع الكرماني احتلال مرو وهرب نصر الى نيسابور، الا ان الكرماني غدر بالحادث وقتله.

وفي دمشق بويع مروان بن محمد (١٢٧/٧٤٤ ــ ١٣٢/٧٥٠) بالخلافة فأقر نصرا ثانية على ولاية خراسان، الا انه لم يستطع انجاده فأمر واليه الجديد على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة بمساعدته. ولكن العلاقة بين نصر وابن هبيرة لم تكن على مايرام مما ادى الى توانى الاخير عن نجدته. وقد اضطر نصر الى التقرب الى الكرماني ثانية واقنعة باللقاء والمفاوضة لحل الأزمة، ولكن الكرماني اغتيل في مكان المقابلة. إغتاله ابن الحارث المرجئ .وهكذا انتهت حياة هذا المغامر السياسي وبدأ نصر يستعيد سلطته على خراسان. الا ان امل نصر في استعادة سلطته لم يدم طويلا ذلك لأن هذه الظروف المضطربة في خراسان كانت بلاشك في صالح الدعاة العباسيين الذين انبثوا في مدن خراسان وقراها خاصة حيث يوجد العرب يدعون للثورة بحذر وكتمان. ولما حانت الفرصة لاعلانها ارسل ابراهيم الامام امره بالثورة الى سليمان الخزاعي وابي مسلم الخراساني. وقد اعلنت الثورة في مرو وقراها حيث يسكن العرب، وكما قال احد الدعاة «ان السيطرة على مرو تعني السيطرة على خراسان ذلك لأن تدمير الجذور يعني تدمير الاغصان».

وقد اتخذ ابو مسلم سفيذنج قرية خزاعة مقرا له .ورفع الدعاة شعارات عديدة منها (يامحمد يامنصور) وهو شعار حساس يشير الى اهتمام الدعاة بكسب اكبر عدد ممكن من العرب الخراسانية. فمحمد تشير الى محمد بن علي العباسي (ويامنصور)،شعار طالما رفع في ثورات سابقة مثل ثورة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الأشعث وزيد بن علي وهو شعار يثير بصورة خاصة القبائل اليمانية لأنه يذكرها بالمنقذ اليماني القحطاني المنتظر او منصور اليمن او منصور حمير.وكان سليمان بن كثير الخزاعي نقيب النقباء هو وجه الثورة والمتكلم باسمها، فهو الذي اعلن الثورة وفض اللوائين العباسيين الظل والسحاب وكان يؤم الناس في الصلاة واجرى اتصالات مباشرة مع نصر بن سيار، وابن الكرماني. فلو ان الدعوة اهتمت بغير العرب لجعلت من شخص آخر ممثلا لها.

ولقد تطورت الحوادث بين اخذ ورد حتى استطاع سليمان الخزاعي وابو مسلم ان يكسبا علي بن الكرماني الى جانب الثورة بعد ان ذكره بأن نصر بن سيار هو الذي غدر بوالده وقتله. ولقد كان كسب ابن الكرماني الى جانب الدعوة ذا اهمية بالغة لانه كان يعني كسب عدد كبير من العرب من اتباع ابن الكرماني وبهذه القوة الضاربة من القبائل العربية كانت نهاية سلطة الامويين في خراسان .ولم يكن هدف ابن الكرماني ان يعمل من اجل العباسيين بل ربما انه لم يكن يدرك بأن سليمان الخزاعي كان يعمل من اجل العباسيين انما كان هدفه المباشر التخلص من نصر وتسلم ولاية خراسان ولذلك فقد كان ابو مسلم وسليمان يسلمان عليه بالولاية ويصليان وراءه. وبعد فإن حقيقة الثورة العباسية تكمن في رأينا في وضعية القبائل العربية في خراسان وعلاقتها بالسلطة الاموية وان اي تقويم للثورة يجب ان ينفذ الى الاسباب الكامنة وراء تذمر العرب من اهل خراسان الذين أدوا الدور الاهم في الانتصار العباسي.

لقد احس ابو مسلم بمركزه القوي في خراسان وبامتلاكه طاقات بشرية واقتصادية جيدة تحت تصرفه ولذلك اراد ان يوسع نفوذه على حساب الخلافة العباسية فبدأ يعين ولاة على اقاليم غربي خراسان ويأمرهم بطرد الولاة الذين عينتهم الخلافة العباسية!! كما تخلص من العديد من قادة الثورة الذين عدهم منافسين له في خراسان وعلى رأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وابنه محمد ولاهز بن قريظ التميمي وعلي بن جديع الكرماني وعثمان بن جديع الازدي الكرماني وزياد بن صالح الخزاعي ومنصور بن جمهور وشريك بن شيخ المهري الذي ثار في بخارى ورفع في وجه ابي مسلم وسياساته شعار:

«ماعلى هذا اتبعنا ال محمد على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق»!!

وهكذا ثبتت ميول ابي مسلم التآمرية وخيانته للخلافة العباسية وتطلعاته الطموحة بالتخلص من مراكز القوى العربية في خراسان بهدف السيطرة ثم الاستقلال. على ان ابا جعفر المنصور كان له بالمرصاد، وكم حذر اخاه الخليفة ابا العباس بضرورة التخلص من ابي مسلم في اقرب فرصة مواتية مشيرا اليه «لست بخليفة ولا امرك بشيء ان تركت ابا مسلم ولم تقتله ... والله مايصنع الا ماراد»!! .وحين تولى المنصور الخلافة تخلص من ابي مسلم في اول فرصة مواتية.

انحراف الخلال:

إن انحراف ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال (وزير آل محمد) ووزير الخليفة ابي العباس عن خط الثورة العباسية يعد اول مؤامرة فارسية تواجه الخلافة العباسية وهي لم تعلن بعد!! فقد أمضى الخلال وهو مولى فارسي من الكوفة ثلاثين سنة في خدمة الدعوة العباسية وكان حلقة الوصل السرية بين امام الدعوة العباسية ابراهيم بن محمد العباسي وبين نقيب النقباء في مرو بخراسان سليمان بن كثير الخزاعي.

ولكن حين دخلت جيوش العباسيين الكوفة سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩م بقيادة الحسن بن قحطبة الطائي الح العباسيون على الخلال بضرورة اعلان اسم الخليفة ولكنه كان يماري ويماطل، وقد ظهر انه اتصل بثلاث شخصيات علوية عارضا عليهم الخلافة الا انه لم يستلم جوابا شافيا منهم كما ان الدعاة استطاعوا بجهودهم الشخصية ان يتعرفوا على مكان وجود ابي العباس فاظهروه واعلنوا خلافته رغم الخلال الذي جاء صاغرا وبايع ابا العباس بالخلافة واعتذر عن سلوكه فقبل الخليفة الجديد اعذاره وارجأ حسم قضيته الى حين.

ومهما كانت الدوافع التي دفعت الخلال الى هذه الحركة ... وهي دوافع يختلف المؤرخون في تفسيرها فمن الواضح ان الخلال خان الامانة ودفعه طموحه الشخصي الى ان يلعب بالنار فينصب خليفة صوريا ويحتفظ لنفسه بالنفوذ القوى في الدولة.

المبحث الثاني:

مراكز القوى الفارسية في الادارة العباسية وسياستها تجاه بلاد فارس

حين حدثت الثورة العباسية لم يحدث تغيير جوهري في ادارة خراسان او بلاد فارس عامة بل ان خلفاء بني العباس كانوا يعتمدون على سجلات الامويين ودواوينهم حين تستعصي عليهم مشكلة ادارية او مالية.

على أن مجرد حدوث الثورة في خراسان وهي جزء من بلاد فارس ثم نجاح هذه الثورة ومجئ نظام حكم جديد لابد ان يحدث رد فعل وان يأخذ رد الفعل هذا اشكالا متعددة. فقد عملت الثورة العباسية كأي ثورة جذرية على ايقاظ جماهير الناس في ايران وبعثت فيهم آمالا ، كما ايقظت فيهم روح التحسس القديمة بكيانهم ومعتقداتهم فانفسح المجال لانطلاق آراء ومعتقدات متأصلة في بلاد فارس قبل الاسلام وهي المجوسية.

أبو مسلم أميرا على خراسان:

لقد اصبح أبو مسلم الخراساني بعد نجاح الثورة اقوى شخصية سياسية في خراسان بل في بلاد فارس كلها. وحين عينه الخليفة ابو العباس واليا على خراسان كان هذا التعيين اعترافا بأمر واقع .وفي خراسان سار ابو مسلم قدما في عملية الاستمرار في الحرب في بلاد ماوراء النهر وتركستان. ورغم نجاح هذه الحركة في ادخال مجموعة من السكان المحليين في المشرق الى الاسلام الا انها من جهة ثانية خلقت مشكلة جديدة امام ابي مسلم الخراساني وهي تمرد المقاتلة من اهل خراسان الذين املوا الاستقرار والعودة الى الحياة المدنية وهي وعود قطعها الدعاة العباسيون على انفسهم حين كانوا يبثون الدعوة للثورة ضد الامويين.

ان السياسة التي اتبعها ابو مسلم الخراساني في خراسان ادت الى التذمر والعصيان بين المقاتلة من اهل الخراسان في قلاع بخارى وترمذ والطالقان وقد قمع ابو مسلم العصيان المسلح بنفسه وبشدة وعنف.

ورغم ان الخلافة العباسية في العراق اتبعت الأسلوب الاداري المركزي في ادارتها لاقاليم الدولة على خلاف اسلوب اللامركزية الذي اتبعه الامويون في الاعم والاغلب. على الرغم من ذلك فان الخليفة العباسي ارخى العنان لابي مسلم الخراساني لان الدولة كانت حديثة عهد وربما لكي يختبر ميول ابي مسلم وتطلعاته او ربما كان اعترافا بامر قد وقع فعلا.

وبدلا من ان يقوم ابو مسلم هذه الثقة من جانب الخليفة فانه على العكس استغل ذلك وبدأت «العقدة الفارسية» تظهر في تصرفاته وسياساته تجاه رؤوس العرب وكبار الدعاة في خراسان اولا وتجاه الخلافة العباسية في بغداد ثانيا.

لم يكن من الممكن القضاء على الخلال حتى بعد انكشاف تآمره على الدولة العباسية الفتية نظرا لسعة نفوذه وسطوته السياسية فبقي وزيرا حتى تحين الفرصة .وقد بدأ الخليفة ابو العباس يخطط تدريجيا للتخلص منه وذلك باقصاء اتباعه والولاة الموالين له. ثم اتصل الخليفه بابي مسلم واتفقا على ضرورة التخلص من الخلال. ورغم ان الخلال وابا مسلم من الموالي الفرس الذين ارتبطوا بالدعوة العباسية ولكن المنافسة على السلطة والمركز الاقوى باعدت بينهما. وفي رواية تاريخية ان ابا مسلم هو الذي اقترح قتل الخلال وارسل من قتله من خراسان سنة ١٣٣هـ/ سنة ٧٥٠م ويعد الخلال مثلا ضمن سلسلة من الوزراء الفرس الذين خانوا الدولة مثل ابن مقله وهو يبعث بالاموال الى بلاد العجم في قواصير من التمر الى اعوانه ليجندوا العساكر ويقصدوا بغداد لقلب الدولة ذلك انه «كان قد طمع في الخلافة». والوزير ابن العلقمي الذي خان الامانة وتعاون مع المغول بمساعدة نصير الدين الطوسي الذي كانت «العقدة الفارسية» والكره للعروبة والاسلام لديه اقوى من علمه وفقهه!! ..

تسلط البرامكة على الادارة المركزية:

ورغم ان اتصال البرامكة بالخلافة العباسية يعود الى أيام الدعوة العباسية حيث كان جدهم خالد بن برمك مثله مثل الخلال وابي مسلم من الموالي الفرس الذين ارتبطوا بالدعوة العباسية، الا ان تسلطهم على الادارة وتوجيه سياسة الدولة جاء في عهد هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ/ سنة ٧٨٦م.

لقد كان يحيى بن خالد البرمكي ذا طموح كبير وقد فسح له الرشيد الطريق حين عينه وزيرا وفوض اليه امر الدولة. وكان يحيى البرمكي يتمتع بتأييد الخيزران (ام الرشيد) ونجح في ادخال افراد من عائلته والكثير من اعوانه ومواليه في الادارة. ويبدو ان يحيى البرمكي بدأ تدريجيا يستقل عن الخليفة لانه اخذ يختار بنفسه معاونيه في الادارة ويهيمن على الدواوين ويعين ولاة الأقاليم بعد ان يكتفي ظاهريا باتباع رأي الخليفة. وكان الفضل بن يحيى المساعد الايمن لابيه ونائبا عنه بعض الاحيان. وكان يضطلع بقيادة حملات عسكرية وكان مسؤولا عن الاقاليم الشرقية (وبلاد فارس) وخاصة غربي ايران مثل اقاليم الجبال وطبرستان وقومس ودنباوند واذربيجان وارمينية .كما قاد حملة عسكرية ضد الديلم لحرب يحيى بن عبد الله الذي اعتصم هناك. وقد صار الفضل البرمكي سنة ١٧٧هـ / سنة ٧٩٣م واليا على خراسان وتظهره الروايات التاريخية مصلحا أعطى الناس مؤخرات رواتبهم وزاد من رواتب الجند وبنى الجوامع.

اما جعفر بن يحيى البرمكي فقد غلب على الرشيد حتى صار لايقدم عليه احدا. وقد ارسل لقمع الاضطرابات في مصر وبلاد الشام وتقلد ولاية خراسان بصورة اسمية حيث لم يذهب اليها .ثم اصبح قائدا لحرس الخليفة الخاص ومستشاره. ومن خلال هذا المنصب أدى جعفر البرمكي

دورا هاما في سير الاداة . بل اكثر من ذلك اشركه الرشيد في النظر في المظالم وادارة البريد ودور الضرب (سك العملة) والطراز.

ولعل اشرافه على دور الضرب وديوان الخاتم حدث يحدث لاول مرة في تاريخ العباسيين لان هذه المهمة كانت من واجبات الخليفة الرئيسية. وظهر اسم جعفر البرمكي على القطع النقدية في اقاليم بلاد فارس اولا ثم في اقاليم المغرب. اما ديوان الخاتم فقد ضم اولاً الى يحيى البرمكي سنة ١٧١هـ / سنة ٧٨٧م ثم الى ابنه الفضل وجعفر حيث تداولوه بين سنة ١٧٣هـ الى سنة ١٨٠هـ .وقد اعطى المؤرخون اهمية كبيرة الى اسناد الرشيد ديوان الخاتم للبرامكة لان الخاتم يعد رمز السلطة وهذا يعني انتقال السلطة من الرشيد الى البرامكة.

ولكن الاهم من كل تلك الامتيازات والنفوذ هي سياسة البرامكة تجاه المشرق او بلاد فارس .فقد مارس البرامكة سياسة استثنائية تجاه بلاد فارس. وقد جلبت هذه السياسة الانتباه. وهنا تظهر «العقدة الفارسية» في سياسة البرامكة تلك العقدة التي لم يستطيعوا كسلفهم الخلال وابي مسلم الخراساني التخلص منها.

لقد تساهل البرامكة مع سكان بلاد فارس عموما في عملية فرض الضرائب وجبايتها. وحين قدم الفضل بن يحيى البرمكي الى خراسان عمل على انشاء جيش جديد من المجندين من خراسان والمشرق عموما مغريا اياه بزيادة العطاء والغاء الضرائب المتأخرة واحراق السجلات القديمة . كما وعدهم بأن عوائد ضرائب بلاد فارس ستنفق كلها على المنطقة ولايؤخذ بعضها الى العراق او الخزينة المركزية ... بل العكس فان العراق سيتحمل رواتب وعطاءات الجند اذا لزم الامر ذلك.

واذا كان البرامكة وهم المسؤولون عن ادارة اقاليم الخلافة قد فعلوا كل ذلك في بلاد فارس فمن المحتمل جدا انهم هم الذين بذروا البذرة الاولى لسياسة الانفصال للقادة والزعماء المحليين في المشرق تلك السياسة التي تبلورت بعد عهد الرشيد بقليل وغدت سياسة رسمية في عهد المأمون .ومهما دافع بعض المؤرخين عن الجوانب الايجابية لهذه السياسة فانهم لايمكن ان ينكروا انها زادت من عوامل التفكك والانحلال على حساب عوامل التماسك والوحدة في الدولة العباسية.

لقد أثارت سياسة البرامكة تجاه بلاد فارس معارضة قوية من كتلة الابناء في العراق ذلك لان الجند الجدد (العباسية) الذين جندهم الفضل البرمكي باتوا خطرا يهدد مركز الجند القديم الذي يمثله الابناء واهل بغداد وسيفقدهم مكانتهم المميزة في العراق. وقد ادى ذلك في نهاية المطاف الى سقوط البرامكة بعد ان فقد الرشيد ثقته بهم وادرك انه منحهم من السلطة اكثر مما يستحقون وكان هذا عاملا ضمن عوامل اخرى ادت الى سقوطهم.

لقد كان تعيين علي بن عيسى بن ماهان قائد الابناء في بغداد واليا على خراسان وبلاد فارس عامة محاولة من الرشيد لاتباع سياسة مخالفة لسياسة البرامكة هناك. وقد حاول علي بن عيسى بن ماهان ان يعيد سلطة الحكومة المركزية الكاملة ويلغي اجراءات الحكم الذاتي التي طبقها البرامكة بما فيها الاجراءات المالية والتسهيلات الضرائبية. وبدلاً من الوعد بان ينفق ريع اقاليم بلاد فارس على اهلها وان تقدم الحكومة المركزية في بغداد مساعدات مالية اضافية استطاع ابن ماهان ان يجبي من الشرق نحو عشرة ملايين درهم سنويا ويرسلها الى بغداد.

آل سهل نموذج للتخريب الفارسي في الادارة:

بعد وفاة الرشيد انفجر الصراع بين الاخوين الامين والمأمون وتطور هذا الصراع بفضل مراكز القوى السياسية الى حرب اهلية مسلحة بين العراق وخراسان (في بلاد فارس) وقد ظهرت خلالها، بعد ان انكشفت الاقنعة دسائس العناصر الفارسية التخريبية التي استغلت الازمة لتنقل مركز الخلافة الى مرو في بلاد فارس ولتضرب الكيان العربي وما يمثله من قيم ومثل اسلامية وتحل محله قيما وتقاليد فارسية كلما امكنها ذلك.

لقد استطاع الفضل بن سهل بما اوتي من مقدرة وذكاء ومكر ان يكون الرجل الاول الى جانب المأمون ،ومن خلال تأثيره القوي تمكن ان يعزل المأمون عن صحابته وخاصة العرب منهم واخذ يدبر الامور ويحوك المؤامرة من وراء الستار. والفضل بن سهل فارسي مجوسي. كان على الزرادشتية قبل أن يسلم على يد يحيى البرمكي في وقت متأخر أو حقبة متأخرة جدا سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م. فهو حديث عهد بالاسلام ومن صنائع البرامكة!!.

والواقع ان هارون الرشيد قد زرع اسس الخلاف بين ولديه الامين والمأمون بصورة غير مقصودة .فقد ارتأى تقسيم الدولة الى منطقتين تكون الري (في بلاد فارس) هي الفاصل بينهما يكون القسم الشرقي الفارسي للمأمون ويكون القسم الغربي العربي للأمين: على ان يتمتع المأمون باستقلال ذاتي تام في الادارة والمالية باستثناء الجيش فان عليه ان يساعد الحكومة المركزية في بغداد عسكريا اذا دعت الحاجة الى ذلك. ان الرشيد بفعلته هذه اخطأ خطأ يمكن ان تستغله العناصر الفارسية وذلك بانه جعل الاقاليم الفارسية مستقلة ذاتيا سياسيا وماليا وعين عليها اميرا شرعيا هو المأمون يمكن ان تلتف حوله العناصر المناوئة او الفئات ذات الميول الانفصاليه وكان لابد للامين ومن ورائه اهل بغداد والابناء ان يعدوا انفسهم لصدام لابد ان يقع.

بعد وفاة الرشيد في طوس (في بلاد فارس) انقسم الجيش معه على قسمين: قسم بقيادة الفضل بن الربيع الذي أمر المقاتلة بالعودة الى بغداد حيث الخليفة الامين .وقسم بقيادة المأمون والفضل بن سهل حيث واصل السير نحو خراسان. ورغم غضب المأمون من قرار الفضل بن الربيع نقض اوامر الرشيد التي كانت تقضي بمواصلة السير نحو خراسان فان الفضل بن سهل

هدأ من غضبه وروعه مؤكدا له انه «نازل بين اخواله» لان ام المأمون فارسية فالفرس هم اخوال المأمون!! وتعهد ابن سهل للمأمون بقوله: «اصبر وانا اضمن لك الخلافة»!!.

بدأ الفضل بن سهل منذ الان يحرك الامور بوصفه مستشارا للامير المأمون حيث لم يشغل بداية الامر منصبا رسميا عاليا. وتمكن بصورة تدريجية من حصر السلطة بيده. ولعل اكبر دليل على ذلك ظهور اسمه على النقود التي سكت في خراسان في هذه الحقبة من ولاية المأمون على خراسان. وقد رسم الفضل بن سهل خطة سياسية بارعة لمنهج المأمون الاداري في خراسان. فاشار عليه بالتودد لرجال الدين والقادة العسكريين واتباع سياسة مرنة مع ملوك المقاطعات الفرس والترك في شرقي خراسان وبلاد ماوراء النهر وفتح ابوابه للمظالم وتخفيض الضرائب عن الرعية. ومن الواضح ان الخطوط العامة للسياسة المالية هي نفسها التي اتبعها البرامكة في ضرورة محاباة سكان المشرق وتخفيض الضرائب عنهم. وهكذا ظهرت «العقدة الفارسية» مرة اخرى في ابن سهل كما ظهرت قبله في البرامكة وابي مسلم والخلال.

ولابد من القول بان الفضل بن سهل وأخاه الحسن يعدان المسؤولين الرئيسين عن الاجراءات العسكرية الموجهة ضد العراق وخلافة الامين. فقد عارضا بقية مستشاري المأمون ورفضا الاذعان لشروط الأمين وقد نظم الاخوان الجيش وارسلا الجواسيس الى بغداد لتراقب تحركات جيش بغداد وخططه واختارا لقيادة جيش المأمون شخصية جديدة يوثق بها وهي طاهر بن الحسين البوشنجي (الفارسي) الذي عبأ من ابناء المشرق الآف المجندين. استلم الفضل بن سهل منذ سنة ١٩٦هـ /٨١٢م الادارة المدنية والعسكرية لكل الاقاليم من همذان الى التبت ومن الخليج العربي الى بحر الخزر وبذلك غدت بلاد فارس باجمعها تحت سلطته ومنحه المأمون لقب «ذي الرئاستين» رئاسة التدبير ورئاسة الحرب. كما اعطاه لقب «الأمير».

لقد كان الموقف من اشد المواقف السياسية والعسكرية حراجة وكان المأمون يدرك تفوق جيش العراق بالعدة والعدد والمعنويات ولكن الاعتداد بالنفس لدرجة كبيرة والاستهانة بالعدو وعدم الاخلاص للقضية من قبل بعض قادة جيش الامين جعل النصر الى جانب المأمون فقد قتل قائد جيش الامين علي بن عيسى بن ماهان كما لاقى حتفه القائد الذي تلاه في قيادة الجيش محمد بن ابي خالد. ثم ان موت عبد الملك بن صالح العباسي الذي كان حلقة الاتصال بين الامين والقوات السورية (أهل الشام) ادى الى تردد اهل الشام في القتال الى جانب الامين.

ورغم ان الامين بذل جهدا مضاعفا في شحذ الهمم واذكاء العزائم وتقوية المعنويات حيث اشار الى جند طاهر بن الحسين الفارسي قائلا:

«إنهم العجم وليسوا باصحاب مطاولة ولاصبر»

فقد سقطت بغداد سنة ١٩٧هـ/سنة ٨١٢م بيد جيش المأمون وقتل الخليفة الامين من قبل جند طاهر من الفرس رغم أن اوامر المأمون الصريحة تقضي بضرورة اسره.

ولكن مقاومة اهل بغداد لم تنته فقد اعلنوا ابراهيم بن المهدي (عم المأمون) خليفة عباسيا جديدا متحدين بذلك المأمون وكل بلاد فارس. وقد ظهر اهل بغداد قوة سياسية عسكرية فعالة ومسلحة وبدأوا مرحلة جديدة من الصراع ضد الفرس وخطط الفضل بن سهل الذي ارسل اخاه الحسن بن سهل ليكون واليا على العراق. وقد تفقت اهداف اهل بغداد مع اهداف (الابناء) وهي الفرقة العسكرية التي أدت دورا مهما في الحرب الاهلية في التصدي لحكم الحسن بن سهل الفارسي. بل ان تجار بغداد والموسرين من سكانها ابدوا استعدادا تاما لاثارة الناس وتجنيدهم وذلك بدفع نفقات الجيش الذي شكل قوة عسكرية لدعم سلطة الخليفة الجديد ابراهيم بن المهدي. وقد رفع اهل العراق شعار:

لانرضى بالمجوسي بن المجوسي الحسن بن سهل»

وقامت ثورة عربية اخرى في الجزيرة الفراتية بزعامة نصر بن شبث العقيلي وانضمت اليه سائر القبائل العربية هناك. وقد رفع هذا الشيخ العربي شعار.

«انما حاربتهم (اي المأمون ونظامه) محاباة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم»!!

فكانت والحالة هذه ثورات العراق ضد نظام المأمون في خراسان ثورات عربية ضد تسلط الفضل بن سهل وزمرته.

بل ان هرثمة بن اعين البلخي الذي كان احد قادة جيش المأمون جعل ولاءه للعباسيين وللمثل العربية الاسلامية تمرد على تمادي الفضل بن سهل في سياسته الفارسية خاصة بعد قتل الامين ولذلك خاطب المأمون صراحة بقوله مستغربا:

«قدمت هذا المجوسي على اوليائك وانصارك»!!

لقد اجبرت المقاومة العراقية بزعامة اهل بغداد الخليفة المأمون ان يعود الى بغداد من مرو في بلاد فارس ولكنه كان حذرا جدا يقدم رجلا ويؤخر رجلا اخرى حيث استغرق سفره الى بغداد زهاء سنتين!! وخلال رحلته الطويلة هذه تخلص من الفضل بن سهل وجمد اخاه الحسن بن سهل الا انه مع ذلك اعتمد على فارسي اخرى هو طاهر بن الحسين المسؤول الاول عن قتل الامين ،فلقد عاد طاهر واحتل بغداد ليمهد الطريق لدخول المأمون اليها دون ان يحدث مايعكر دخوله حادث .وهكذا انتصر العراق على خراسان وانتصرت بغداد على مرو سنة ٢٠٤/سنة ٨١٩م بعد كفاح طويل وثمن باهظ بالاموال والارواح.

طموح ال طاهر بداية للانفصال:

بعد عودة المأمون الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية وتخلصه من ال سهل اعاد لطاهر بن الحسين نفوذه الذي فقده في عهد ال سهل فولاه شرطة بغداد وعينه واليا على الجزيرة الفراتية والاشراف على المعاون في سواد العراق.

لم يكن طموح طاهر بن الحسين الفارسي البوشنفي باقل من طموح اسلافه الفرس مثل الخلال والخراساني والبرامكة وال سهل ولذلك فقد كان دوما يتطلع الى ولاية خراسان. وقد استطاع بعد سنة واحدة من دخول المأمون ان يحقق ذلك حيث عينه واليا على خراسان سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م كما منحه السلطة على الاقاليم شرقي العراق. وبذلك وبمرور الزمن استطاع طاهر وابناؤه ان يحققوا استقلالا ذاتيا عن الحكومة المركزية في بغداد، كما سنرى في مناسبة قادمة.

على ان المأمون باعتماده على شخصية احمد بن ابي خالد وهو من قادة (ابناء اهل بغداد) تلك الكتلة التي صمدت في وجه اجراءات الفضل بن سهل واخيه الحسن كان اعترافا منه بجهود تلك الكتلة واستمدادا منه للوصول الى حلول وسطية معها تضمن الاستقرار للخلافة وحكومتها المركزية. وهذا دون شك تراجع من المأمون عن سياسته الخراسانية السابقة وعودة الى سياسة العباسيين العربية التقليدية.

وعلى ذلك فاذا كان سقوط ابي مسلم الخراساني والبرامكة وال سهل محاولة جدية من الخلافة العباسية لاحتواء النزعة الفارسية المتنامية اذ نظم الكثير من شعراء الفرس قصائد في رثاء الفضل بن سهل كما رثوا البرامكة وأبا مسلم لانهم عدوا رموزا للتطلعات الفارسية ،فان اجراءات الطاهريين تعد بدايات رغم كونها اولية وغير محبوكة للاستقلال الذاتي لبلاد فارس ثم لانفصالها عن الحكومة العباسية المركزية فيما بعد.

لقد حاول المأمون بعد تجربته مع ال سهل ان ينهج الاسلوب المركزي القوي في الادارة تجاه اقاليم الخلافة العباسية وخاصة تجاه بلاد فارس. وبقدر مايتعلق الامر بالمشرق فان تدابير المأمون كانت توفيقية ومرنة.فقد خفض الضرائب على مناطق معينة مثل الري وحين طالبت قم بالمعاملة نفسها لم يستجب لها لان ضرائبها كانت معتدلة .كما ادخل تعديلات على نظام المقاسمة حيث خفضه الى خمسين بدل النصف.وزاد رواتب موظفي الدواوين.

وحين جاء المعتصم الى الخلافة بعد المأمون سنة ٢١٨هـ/سنة ٨٣٣م كان بفعل طبيعته العسكرية اكثر ادراكا لاهمية الشرق في رفد الجيش الاسلامي بالمجندين الجدد. فهناك شعوب كثيرة العدد في الشرق ليس بالضرورة من الفرس. بالامكان اقناعهم للانضمام الى الجيوش الاسلامية. ومن هؤلاء الشعوب الترك (الهياطلة) والقوقاس والخوارزمية والجرجانية وغيرهم.

والمعروف ان خطة المعتصم في اقناع المشارقة وامراء الاقاليم بالانخراط في الجيش العباسي ليست جديدة فقد بدأت مع بدايات العصر العباسي، ولكن الجديد فيها انها كانت في عهد المعتصم خطة محكمة وذات طبيعة جدية وانها نجحت في تجنيد اعداد كبيرة من اهل المشرق .على ان هذا التقارب الجديد مع المشرق لم يلغ الحقيقة التاريخية الا وهي استمرار القلاقل والاضطرابات في بلاد فارس خاصة والمشرق عامة .وان اكثر الاقاليم اضطرابا خلال العصر العباسي الاول هي الاقاليم الفارسية.

وبكلمة اخرى فان كل اجراءات الخلافة العباسية من اجل تقارب اكثر وتفاهم اعمق مع بلاد فارس كانت تصطدم على الدوام بالعقدة الفارسية وبموقف الفرس المتعنت تجاه العراق والخلافة!!

المبحث الثالث:

بلاد فارس بين المجوسية والاسلام:

ليس لدينا الكثير من المصادر عن اخبار الفرس وتاريخهم قبل الاسلام ،غير ان ماالستطاع المؤرخون جمعه وتحقيقه من عهودهم وحكاياتهم التاريخية وأساطيرهم وتراثهم(١) يوضح لنا ظاهرتين بارزتين بين الظواهر الاخرى على الاقل في مدة حكم الاسرة الساسانية وهي الاسرة الفارسية الاخيرة التي حكمت ايران قبل الفتح الاسلامي لها. وقد حكمت هذه الاسرة ايران والاقاليم المجاورة لها مدة تزيد على أربعة قرون (من حوالي ٢٢٤م ــ ٦٤١م). حيث انهارت الدولة الساسانية تحت وطاة الزحف العربي الاسلامي وخاصة بعد معركة نهاوند سنة ٢١هـ/ سنة ٦٤٢م التي سماها العرب (فتح الفتوح) لانها تركت ابواب ايران مفتوحة على مصراعيها بعد إنهيار الجيش الساساني.

أما هاتان الظاهرتان فهما:

اولا ــ إن النظام الساساني الجديد الذي أعلنه اردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية قام على اساس دعوة دينية ادت الى الثورة(٢). وكان نجاح «ثورة» اردشير يعني بعث تراث ايران الديني باحياء ديانتها المجوسية القديمة الا وهي الزرادشتية .ويعد ملوك الساسانيين اعادة الزرادشتية ديانة رسمية لايران بعد ان اضمحلت منذ ايام المقدونيين مكسبا «قوميا» مهما اذا صح لنا استعمال هذا التعبير مجازا لتوضيح ظاهرة تاريخية قديمة!!.

ولاشك فان هذه «الثورة» الدينية ثبتت أركان النظام الساساني في مدة حكمة الاولى ولكن وبمرور الزمن ظهرت نتائجها السلبية على المجتمع الايراني، فقد غدا رجال الدين الزرادشت طبقة متميزة ومن الطبقات العليا في المجتمع تحكموا بمصائر الفلاحين والمستضعفين وغدوا طبقه ملاكين كبار بعد ان منحهم الاكاسرة اقطاعات واسعة واعفوهم من الضرائب. والى هذا يشير كريستنسن ،وهو احسن من كتب عن الساسانيين ،حيث يرى أن رجال الدين الزرادشت كونوا «دولة» داخل الدولة يقول كريستنسن:

«،لايستند تأثير رجال الدين الى سلطانهم الروحي والى حق القضاء الذي خولتهم الدولة والى سلطانهم في اثبات شهادات الميلاد والتصديق على عقود الزواج وغيرها. والى قيامهم بالتطهير ورعاية القرابين فحسب ولكن تأثيرهم استند ايضا الى اراضيهم التي يملكونها مما جعلهم يتمتعون باستقلال بعيد المدى(٣) لذا كان لهم تأثير قوي على المجتمع في شتى مظاهر الحياة الدينية والادارية والاجتماعية والاقتصادية. ان هذا التحكم البشع بمصائر جماهير الايرانيين ادى على المدى البعيد الى ظهور مذاهب اخرى لقيت قبولا لدى الناس الذين ضاقوا ذرعا بتحكم طبقة رجال الدين الزرادشت، وهذه المذاهب هي المانوية والمزدكية كما سنفصل ذلك بعد قليل.

ثانياً ـ اما الظاهرة الثانية البارزة التي تميز النظام الساساني فهي تلك الطبقية الحادة الصارمة والمغلقة التي تفصل بين ابناء المجتمع الواحد. فقد كان المجتمع الساساني ينقسم على اربع طبقات مغلقة:

طبقة العظماء وتشمل الاكاسرة والامراء والنبلاء والاقطاعيين والملاكين الكبار.

طبقة رجال الدين وهم الزرادشت ومنهم العباد والفقهاء.

طبقة المحاربين ومنهم قادة الجيش ورجال الحرب والمقاتلون.

طبقة العوام من فلاحين وصناع واصحاب حرف وتجار صغار ومزارعين صغار.

وكان لايجوز لافراد من طبقة معينة ان تندمج مع افراد من طبقة اخرى. على ان المهم من هذا كله ان هذه الطبقية الجامدة غدت في حياة المجتمع الايراني نظاما له قداسته بسبب تأييد رجال الدين الزرادشت لهذا النظام الطبقي. ومما يدلل على ذلك ورود اشارات واضحة الى الطبقية في الكتاب المقدس لدى الزرادشتية المعروف باسم «الافستا» وفي شروحه.(٤)

وهكذا فقد ساند رجال الدين الزرادشت النظام الذي اقامه أردشير وتم التعاون بين الطرفين ضد اي تحرك يقوم به الايرانيون وابقائهم في ظل نظام قائم على التمايز الطبقي والعبودية. وقد أصبح اردشير عنوانا لسلطان الزرادشتية في ايران وهذا ماعبر عنه نفسه حين قال: «الدين اساس الملك» ... وبكلمة اخرى غدا الدين الزرادشتي لدى الايرانيين المقهورين يساوي طاعة رجل واحد طاعة عمياء!!

طبيعة الديانة المجوسية

ولكن ما هذه الديانات المجوسية الثلاث التي انتشرت في ايران في العصر الساساني وما الافكار التي بشرت بها؟؟

أما الزرادشتية(٥) فهي ديانة النظام الساساني الرسمية وتنسب الى زرادشت الذي عاش في ميديا شمالي غربي فارس وبلغ حوالي الثمانين من عمره ومات نحو سنة ٥٨٣ ق.م. ويرى كتاب الفرق أن زرادشت إدعى النبوة وأن الله (اله الخير) أرسله ليهدي الى الحق. وقد كتب كتابا مقدسا يسمى الافستا **Avesta** اي كتاب الحكمة وقد شرح بتفصيل جيد بكتاب أخر يسمى (الزند).

والمهم ان الزرادشتية ترى ان للعالم إلهين اله الخير (اهورا) وإله الشر (اهرمن) لكل منهما قدره الخلق والابداع. واله الخير يتمثل بالنور وقد خلق كل نافع وجيد واله الشر يتمثل بالظلمة وقد خلق كل ماهو سيء ومضر في العالم. والنزاع او الحرب سجال بين الالهين ... الا ان الفوز في نهاية المطاف للخير ولاله الخير

والانسان مخير لا مسّير وعليه ان يختار بنفسه أيا من هذين الاخين. فالاخيار يتبعون اهورا والاشرار يناصرون اهرمن.

هذه هي الخطوط العامة للزرادشتية كما بشر بها زرادشت ولكنها وبمرور القرون تطورت بحيث اصبحت في العصر الساساني مؤسسة كبيرة على غرار الكنيسة في العصور الوسطى الاوربية لها مصالحها الدينوية الكثيرة، تستغل العقيدة الدينية لخدمة المصلحة الدنيويه والشخصية لرجال الدين الزرادشت وللملوك الاكاسرة.

اما المانوية(٦) فقد ظهرت حركة اصلاحية للزرادشتية، وتنسب الى ماني الذي ولد حوالي سنة ٢١٥م ايام سابور بن اردشير. وكانت تعاليمه توفيقا بين الزرادشتية والنصرانية ولهذا يسميها المستشرق براون في كتابه (تاريخ الادب الفارسي) «زرادشتية منصرة اقرب من ان تعد نصرانية مزردشة» .ويبدو أن سابور بن اردشير قد تساهل مع المانوية وابدى مرونه تجاههم. والمهم في المانوية انها تتفق مع الزرادشتية في كونها ديانه ثنويه **Dualism** فالوجود اثنيني الاصل ولكن الخلاف بينهما هو اعتبار ماني للحياة الدنيا شرا ولهذا دعا الى الاعتزال والرهبنة وحرم النكاح أصلا حتى يستعجل فناء البشر .بينما الزرادشتية لم تدع الى الزهد والرهبنة وكانت إباحيه — من وجهة النظر الأسلامية والخلقية — حين حللت الزواج بين المحارم فيجوز للرجل ان يتزوج من أمه واخته وابنته!! .ويبدو ان الزاوج من المحارم عادة قديمة عند الفرس كما يلاحظ ذلك كريستنسن.(٧)

ثم ظهر مزدك في بلاد فارس سنة ٤٨٧م ودعا الى مذهب ثنوي جديد(٨) يقول بالنور والظلمة ولكنه دعا الى الاباحية في النساء والاموال (٩)

«لما كان اكثر ذلك (القتال) إنما يقع بسبب النساء والأموال احل النساء وأباح الاموال وجعل الناس شركة فيهما»

ويلاحظ ان المزدكية الفوضوية التي جنحت الى مشاعية الثروة والاسرة كانت رد فعل على الاضطهاد الطبقي والتمايز الاجتماعي — الاقتصادي الذي عانى منه سكان ايران في ظل النظام الساساني. بل ان المزدكية غدت الديانه الرسمية للدولة في عهد قباذ (٤٨٨ — ٥٣١م) ولكن الاكاسرة الذين خلفوه تصدوا لها واعادوا الزرادشتية الى سابق مركزها مذهبا رسميا للدولة.

إن التلاحم القوي بين الشاهنشاهات وبين الموابذة (رجال الدين الزرادشت) كان يستند على مصلحة مشتركة ومنفعة متبادلة ولهذا قمع الشاه بهرام الاول مذهب المانوية وشتت سنة ٢٧٦م اتباعها حيث غدا مذهبا سريا. كما اسقط كسرى أنوشروان المزدكية عن السلطة باعتبارهم مشعوذين يرفعون شعارات الاصلاح الديني وهدفهم الحقيقي اسقاط الدولة.

لقد ساندت طبقة رجال الدين الزرادشت إجراءات الاكاسرة القمعية ضد المذاهب المجوسية الجديدة ،وغدا كسرى «سلطان الله في الارض» ليس لأحد أن يناقش سياساته ذلك لأن حكمه

يستند على نظرية «حق الملوك الالهي المقدس» .فالاله هو الذي إختارهم لقيادة الشعوب الايرانية وليس عليها الا ان تطيع وتأتمر(١٠). لسنا هنا في مجال التفصيل في سياسات شاهات ايران من الاسرة الساسانية الا ان روايات التاريخ تسهب في تفصيل الحروب التي زجّ بها هؤلاء الاكاسرة شعب ايران سواء كان ضد البيزنطيين او ضد سكان تركستان والسند. ولعلنا نضرب مثلا واحدا عن خسرو الاول الملقب (انوشروان) ٥٣١ ــ ٥٨٩م الذي هاجم حدود الدولة البيزنطية لتحقيق مطامع شخصية واهداف توسعية اقليمية، واستولى على اجزاء عديدة من اراضيها واستمر يحارب بعناد لمدة تزيد على اثني عشر عاما(١١) فلما قلّ الرجال ادخل نساء ايران في الجيش!! .لقد استند خسرو الاول على «حق الملوك المقدس» وأيده الزرادشت في ذلك مشيعين بين جماهير ايران ان الّدين طاعة رجل. وبهذا افنى زهرة شباب ايران ودمر اقتصادها المبني حينذاك على الزراعة وتجارة المرور من اجل طموحات شخصية لم يستطيع الاحتفاظ بها، ذلك لأن جيشا بيزنطيا جديدا مالبث ان استرجع اراضي الامبراطورية البيزنطية بل دخل اراضي فارس ليساعد خسرو الثاني في للوصول الى السلطة!!

ولعلنا نستطرد بعض الشئ فنلاحظ بأن العرب لم تجذبها هذه الديانات المجوسية الغريبة والمعقدة وفضلوا عليها عبادة الاصنام(١٢). فلم تنتشر الزرادشتية بين عرب العراق .وحين لاقت المانوية الاضطهاد في ايران لجأ العديد من المانوية الى العراق واماكن اخرى شرقي ايران .وفي العراق حمى المانوية عمرو بن عدي احد ملوك الحيرة. الا ان انتشارها لم يكن كبيرا بين عرب العراق رغم ان بلاد بابل هي مهد المذهب المانوي. اما المزدكية فإن قباذ اراد فرضها على المناذرة فرفض المنذر بن ماء السماء ذلك فعاقبه بالطرد من العرش!!. كما رفض الحارث الكندي اوامر قباذ بأن «ينهض الى مكة ويهدم البيت ... ويزيل رئاسة قصي». وحقق اذنية ملك تدمر عدة انتصارات على الفرس ولم يذعن لسلطان الاكاسرة .وقد حدث ذلك كله قبل ذي قار. اما لماذا لم يتقبل العرب الديانة المجوسية باشكالها المتعددة فتفسيره ليس صعبا ذلك ان قيم العرب وتقاليدهم فيما يتعلق بالحكم والرئاسة والدين والأسرة تقف على طرفي نقيض مع القيم التي بشرت بها المجوسية دينيا واجتماعيا وسياسيا.

فالعرب قبل الاسلام كانت تختار رئيسها بطريقة الشورى وترى ان يقودها ألمع افرادها واقدرهم وكان لرئيس الملأ او لشيخ القبيلة عند العرب قول محترم ولكنه كان الاول بين اقرانه. ويبدو هذا جليا في قول ابي سفيان بن حرب «لست اخالف قريشا أنا رجل منهم مافعلت قريش فعلت» .فالعرب اذن لاترى للحاكم «حقا مقدما منحه له الاله» ولاتدين بالطاعة العمياء لرجل واحد كما كان يفعل الفرس مع اكاسرتهم. ولم ينشأ نظام الوراثة في رئاسة العرب قبل الاسلام لأن ظروف الحياة كما اشرنا تتطلب ان يقود القبيلة ألمع افرادها وأقدرهم. ولهذا فالشيوخ الذين توالت الرئاسة في نسلهم ثلاثة اجيال نادرين، على عكس النظام الساساني الوراثي المحصور في عائلة واحدة تحتكر وحدها «النور الالهي».

والعرب قبل الاسلام لاتميل الى التعقيد في العقيدة الدينية ولهذا لم تستسغ تعقيدات الديانات المجوسية وطقوسها واختلاطاتها بديانات اخرى وطبقة كهنتها المتميزة والمتسلطة على رقاب الناس . كما انها نفرت من اباحية الزرادشتية وزهد المانوية وتشاؤمها ومشاعية المزدكية واستحلالها المحرمات وعدم اهتمامها بالنسب الذي تعتبره العرب اهمية كبيرة ... وبعد هذا وذاك فالعربي قبل الاسلام ميال للحرية ولايميل الى تقييد حريته والانقياد الاعمى لطاعة رجل واحد (الشاهنشاه) وهذا ـ كما لاحظنا ـ ماتعاون عليه الاكاسرة والزرادشت من اجل اشاعته بين الايرانيين نظريا وعمليا في العصر الساساني.

وجاء الاسلام فكان للرسول (ص) سلطان ديني يعتمد على الوحي، وفي هذا المجال يكون الرسول (ص) منفذا لارادة الله تعالى على الارض ولامجال للاجتهاد البشري في الاحكام الموحى بها. اما في غير ذلك فان سلطان الرسول (ص) دنيوي ولذلك كان له من صحابته رضوان ألله تعالى عليهم مشاورون يستشيرهم (وامرهم شورى بينهم) (وشاورهم في الامر). وكان صحابة الرسول (ص) حين يجابههم بقرار او حكم،يستفسرون منه أوحي هو أم رأي؟؟ فإذا كان الاول قبلوه اما اذا كان الثاني تناقشوا وابدوا رأيهم فيه .وليس هنا مجال ذكر الامثلة ولكننا نشير فقط الى موقف العرب المسلمين من صلح الحديبية واعتراضهم عليه بقولهم يارسول الله ألسنا على حق وهم على باطل»؟ ... هذا هو الحكم العربي الاسلامي كما فهمه المسلمون الاوائل، وكما اراد لهم رسول الله (ص) أن يفهموه. واذا كان هذا هو موقف المسلمين الاوائل من بعض احكام رسول الله (ص) فكيف كان الحال اذن مع الخلفاء الذين جاءوا بعده؟؟.

إن الخلفاء الراشدين المشبعين بروح الاسلام الصحيح اكدوا التزامهم بنهج رسول الله (ص) وهذا ماأشارت اليه خطبة ابي بكر الصديق الذي اكد انه حاكم من البشر وان قراراته اجتهادية «اطيعوني مااطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله،فلا طاعة لي عليكم» وعلى هذا النهج سار بقية الخلفاء في صدر الاسلام .فكان الخليفة لاينظر الى نفسه الا على انه واحد بين الرجال المتميزين الذين هم بمرتبته ،على أنه (اي الخليفة) المقدم بين هؤلاء الاقران.

وفي العصر العباسي زاد التأكيد على الصبغة الدينية لمؤسسة الخلافة ... فأستغل الكُتّاب الفرس من الشعوبيين ذلك وحاولوا جاهدين ان يحشروا قيما فارسية سياسية غريبة في النظم الاسلامية ومنها منصب الخليفة .ولهذا يلاحظ الباحث ولأول مرة ظهور نبرة جديدة تزيد من «قدسية» الخليفة وتجعل الخلافة «خلافة الله» وترمز الى الخليفة بأنه «سلطان الله في أرضه» وبأنه « حبل ممدود بين الله وخلقه» وان من يتمسك بطاعته فقد استمسك «بالعروة الوثقى» وتلقب الخليفة المأمون ولأول مرة بصورة رسمية بلقب «امام» ويلاحظ هنا ان المأمون عاش في سني خلافته الاولى في البيئة الفارسية في خراسان ووقع تحت تأثير الفضل بن سهل المجوسي الحديث العهد جدا بالاسلام!!.

واظهر الكتاب الشعوبيون في الادارة العباسية الفكرة الفارسية القديمة بان الخليفة العباسي «فوق مستوى البشر» . ففي الخطاب الذي اعلنت فيه بيعه الأمين تبرز فكرة «الشجرة المباركة اصلها ثابت وفرعها في السماء» للدلالة على العائلة العباسية وكأن كاتب الخطاب يتكلم عن العائلة الساسانية المنحدرة من اصول الهية. ونبذ الكتاب بفكرة الأختيار والشورى العربية الاسلامية واشاعوا الفكرة الفارسية المجوسية بان الحكم يتداول بين «العائلة الالهية المختارة التي يتنقل في اصلابها النور الالهي» . فكأن هؤلاء الكتاب ارادوا ان يقولوا إن الخليفة العباسي هو الشاهنشاه الذي يعده الفرس في العصر الساساني «تجسيدا لروح الله التي تنتقل في الملوك من الاباء الى الابناء»!!. ففي رسالة الخميس التي دونت في عصر المأمون ــ لاحظ عصر المأمون أيضا ــ اشيعت الفكرة القائلة:

«بأن من لطف الله ورحمته ان رفع التخاصم وكفى المؤمنين عناء الأختيار» فالحكم والسلطة وراثية في للعائلة العباسية وليس بخارج منها الى يوم القيامة!! وكان الفرس البويهيون يحرصون على تطبيق هذه القيم الفارسية في المراسم الرسمية امام الرأي العام فحين عهد الخليفة الطائع الى عضد الدولة البويهي بالولاية على الاقاليم سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م .. دخل عضد الدولة وقبل الأرض فارتاع زياد القائد لذلك وقال لعضد الدولة ماهذا ايها الملك؟ اهذا هو الله؟ فالتفت اليه وقال هذا خليفة الله في الارض ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات ثم صعد وقبل الارض بين يدي الخليفة ثم دنا وقبل رجل الخليفة ولم يجلس الا بعد ان كرر عليه الخليفة بالجلوس. وحين اقسم عليه الخليفة بالجلوس قبل الكرسي وجلس!!

ورغم ان هذه المفاهيم والنظريات السياسية ذات اصل فارسي واضح اشاعها الكتاب الشعوبيون في المجتمع العباسي وانها لاقت قبولا من العباسيين لأسباب سياسية بحته ... الا انه ــ وهذا امر مهم ــ وكما يبدو لا الخلفاء العباسيون ولا الرأي العام كان مقتنعا بها. والدليل هو محاولات الخلفاء العباسيين تسويغ سياساتهم امام الرأي العام الاسلامي المرة تلو الاخرى .ونكتفي في هذا المجال بذكر بعض الامثلة عن المنصور مؤسس دولة بني العباس. فالمنصور حين قتل ابا مسلم الخراساني خطب امام اهل خراسان معللا اجراءاته بتآمر الخراساني على الدولة. والمنصور نفسه علل الصراع ضد محمد النفس الزكية في رسالتين طويلتين ارسلهما اليه. ولم يكن المنصور يأمل ان يقتنع محمد النفس الزكية بما جاء فيهما ولكن هدف الخليفة كان أعمق من ذلك بكثير الا وهو كسب الجماعة الاسلامية الى جانبه وتفسير موقفه من الثائر محمد النفس الزكية. وقس على ذلك حيث تحفل مصادرنا التاريخية بالعديد من الروايات عن وقوف الكثير من رجال السياسة والفقهاء والعلماء ــ ممثلي الجماعة الاسلامية ــ ضد سياسة هذا الخليفة او نهج ذلك الخليفه ناصحين محذرين منذرين. ولعل المعنى المستفاد من هذا كله ان الخليفة العربي عبر العصور الاسلامية المتتابعة لم يكن كالشاهنشاه الفارسي «سلطان الله في أرضه» لامناقشة او معارضة لسياساته او اجراءاته.

الاسلام وإيران :

أظهر الله تعالى الاسلام بين العرب وفي جزيرتهم، واختار لتبليغ الرسالة رسولاً عربيا هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وكان الاسلام منعطفا جديدا في حياة العرب بعث فيهم روحا جديدة فكانوا مادته الاولى في نشر مبادئه للعالمين. وقد استطاع الرسول (ص) ان يحقق نتيجة مهمة وهي توحيد العرب تحت سلطة مركزية وربطهم برابطة جديدة فوق القبلية وبعقيدة جديدة هي الاسلام .وحين نجح خليفة الرسول (ص) ابو بكر الصديق في القضاء على المرتدين ثبت نواة التوحيد الروحي والثقافي، فأصبح الاسلام عقيدة كل سكان الجزيرة العربية تقريبا وبمعنى أخر حصل تطابق بين العروبة والاسلام هنا مع ادراكنا لعالمية الدعوة الاسلامية.

ثم جاءت حركة الفتوحات الاسلامية ودخلت جيوش الفاتحين العرب المسلمين الى بلاد فارس فكان موقف الفرس من الاسلام واحدا من أمرين:

فئة اعتنقت الأسلام عن عقيدة لاعتقادها بمبادئه الهادية التي ستخلصها من الجبروت والطغيان الساساني ومن الطبقية الاجتماعية المغلقة ومن فداحة الضرائب المفروضة عليها فهي إذن أمنت بدعوة الاسلام للعدالة والحرية بصدق ويقين.

وفئة تعلقت بعقيدتها المجوسية وتمسكت بشعائرها الفارسية ولم تعر اية اهمية لمبادئ الاسلام الجديدة. وهؤلاء كما يؤكد كتاب الفرق نوعين منهم «إما راموا كيد الاسلام بالمحاربة» أو انهم «رأوا ان كيده على الحيلة انجح فاظهر قوم منهم الاسلام»(١٤) .اي تستروا بالاسلام ورفعوا شعاراته لتحقيق طموحاتهم في عودة «الدولة الى ماكانت عليه أيام العجم» قبل الاسلام.

ولابد لنا من ان نستدرك ونشير هنا الى ظاهرة تشمل الفئتين من اهل فارس وهي ان الدعوات الجديدة ــ ومنها الدعوة الاسلامية. تحتاج الى وقت ليس بالقصير لكي تهضم وتتمثل في وجدان الناس وعقولهم .. ومعنى ذلك أن الدعوة القديمة (المجوسية) لابد ان تصارع الدعوة الجديدة (الاسلام) صراعا يختلف من اقليم الى اقليم ومن جماعة الى اخرى في بلاد ايران نفسها. وقد ظهرت اثار هذا الصراع بين القديم والجديد في ناحيتين مهمتين في بلاد فارس: في تطور الاسلام عقيدة اولا وفي تطور تاريخ ايران السياسي والاجتماعي ثانيا عبر العصور الوسطى الاسلامية. ولايمكن لأي مؤرخ البحث في هاتين النقطتين دون ان يفهم ابعاد هذا الصراع الذي كان جليا حينا ومتسترا احيانا اخرى.

بدأ تأثير الموالي (المسلمين من غير العرب) يقوى بصورة تدريجية خلال القرن الاول الهجري وغدت مجتمعات الموالي في العراق وايران بؤرة تنطلق منها حركات التمرد والقلاقل ضد السلطة المركزية في المدينة المنورة او في دمشق .ومما عقد الأمر ان هذه الحركات اتخذت من مبادئ الاسلام اساسا مشروعا للتذمر كما رفعت بعضها شعارات علوية لا لاعتقادها بأحقية العلويين بالخلافة بل

لان العلويين — بسبب ماضيهم السياسي — غدوا أرادوا ام لم يريدوا البديل المناسب للسلطة القائمة ورمزا لمعارضتها!! .ومما زاد في الطين بلّه ان بعض الزعماء والطموحين من العرب هم الذين نظموا الموالي واستغلوهم في حركاتهم ضد السلطة المركزية من اجل تحقيق طموحاتهم السياسية الشخصية. ونشير هنا على سبيل المثال الى حركات المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث ويزيد بن المهلب بن ابي صفرة في العصر الاموي. وهكذا اختلط الحابل بالنابل ... وتستر المعارضون للسلطة العربية الاسلامية — مهما كانت دوافعهم واهدافهم — بالاسلام واصطبغوا بصبغته جاعلين هذا الشعار منفذا لبث دعاياتهم وارائهم الحقيقية.

إن هذه الفئة التي تسترت بالإسلام ورفعت مبادئه شعارا ظاهريا دون ان تؤمن بها هي التي تمثل التيارات المجوسية في ايران سواء كانت مزدكية او مانوية، التي حولت سخطهم على الساسانيين الى سخط وثورة على العرب المسلمين الذين — وحسب زعمهم ايضا — لم يبدلوا شيئا يذكر في الاوضاع القائمة وحالفوا الزرادشت والدهاقين على حساب جماهير الايرانيين .ثم بعد ذلك كله — ومن وجهة النظر الفارسية نفسها المتسترة بالاسلام — فان حكم العرب المسلمين يعد حكما اجنبيا لبلاد فارس.

. لقد تمثلت هذه الحركات في صنيع الإسلام بما سماه المؤرخون الرواد بحركات الغلاة (من الغلو وهو التطرف في الدين والانحراف عنه). فكانت السبأية والخطابية والمغيرية والمنصورية والكيسانية التي دانت بالتطرف وحاولت التوفيق بين اراء اسلامية واراء مجوسية فأشاعت مبادئ الحلول والتناسخ والبداء والقدسية والتأويل الباطني للنصوص المقدسة الدينية .وكلها مبادئ يرفضها الاسلام الصحيح(١٥) ولذلك نلاحظ ان الائمة العلويين رفضوا ماادعته هذه الحركات من ارتباطات علوية وفضحوا اهدافها التخريبية.

ولعلنا نلاحظ في هذه الحركات التي كان جلّ اتباعها من الموالي الفرس إقتصارها على اقليمي العراق وفارس من دون بقية الاقاليم التي تضمها الدولة العربية الاسلامية وهذا مايؤكد ان نزواتها تنظيمات مجوسية فارسية وعناصر تخريبية عنصرية تحاول اعادة «القديم الى قدمه» فيما يتعلق بكلا الاقليمين(١٦). بل ان هذه العناصر كانت وستستمر وراء «مشكلة الموالي» وديمومتها لا في القرن الاول الهجري فحسب بل في القرون التي تلته.

لم تشكل هذه الحركات خطورة كبيرة خلال العصر الراشدي والاموي فالعرب المسلمون كانوا لمّا يزالوا امة موحدة قوية ، وان سياسة الدولة كانت تقتضي سكنى العرب في قواعدهم العسكرية في الامصار وهذا مما يقلل امتزاجهم واختلاطهم بالاعاجم من موال او غيرهم. كما لم يكن من سياسة الدولة تشجيع هذا الامتزاج لئلا يتأثر العرب بسكان البلاد الفارسية المفتوحة الذين انهاروا اجتماعيا ودينيا قبل ان تنهار دولتهم سياسيا وعسكريا.

الواجهة الدينية للحركات السياسية الفارسية:

اشرنا سابقا بأن الدعوة العباسية تنظيم سري سياسي ديني ،له واجهاته المتعددة. وقد استطاع هذا التنظيم بقيادة محمد بن علي العباسي ومن ثم ابنه ابراهيم الامام ان ينجح في كسب اعداد كبيرة من المقاتلة العرب من اهل خراسان وخاصة من القبائل اليمانية والربعية. كما كسب اليه اعدادا من الموالي الفرس. الا ان القوة الضاربة في الدعوة العباسية كانت عربية بالدرجة الاولى(١٧).

على ان الثورة العباسية كأي ثورة جذرية ذات اهداف اجتماعية وسياسية واقتصادية ظهرت بواجهات متعددة وضمت اجنحة عديدة منها المتطرف ومنها المعتدل. اما الجناح المتطرف فكان يسمى الهاشمية ثم تطور الى الخداشية والراوندية وهذا الجناح لم يكن يختلف في ارائه التي نادى بها عن نزعات الغلاة التي اشرنا اليها سابقا. ورغم ان بعض الدعاة العباسيين في خراسان تساهلوا في امر ترويج هذه الاراء المتطرفة البعيدة عن الاسلام، الا انهم كانوا يتبرؤون منها في الوقت المناسب حين ينكشف خطرها او يدرك الناس مدى بعدها عن الاسلام. ولهذا تبرأ الامام محمد بن علي العباسي من الخداشية(١٨) وتبرأ المنصور — بعد تأسيس الدولة — من الراوندية(١٩).

وهكذا فإن نزعات الغلاة المتطرفة التي شجعها العباسيون اسلوبا سياسيا ولمرحلة وقتية انقلبت خطرا على سلامة دولتهم. ومن المتعارف عليه بين مؤرخي العصر العباسي ان الاقاليم الايرانية كانت اكثر الاقاليم اضطرابا وخطرا على الخلافة!! حيث نلاحظ كثرة الحركات التمردية ونشاط المزدكية بشكلها الجديد (الخرمية) ونشاط المانوية بشكلها الجديد (الزندقة)... ناهيك عن الحركة الشعوبية.

لقد اثبتت الحركات الفارسية خلال العصر العباسي بأن عداء الفرس وتمردهم تحت شعارات مختلفة في القرن الاول الهجري لم يكن بسبب سياسات بعض الولاة او الخلفاء الامويين التعسفية ، بل ان العداء كامن ومستمر ومتأصل ضد العرب اصحاب الدولة والاسلام عقيدة الدولة... والا فما تفسير تمردهم ضد العباسيين والدولة الجديدة لاتزال في بداية نشوؤها؟؟ ولم يعرفوا خيرها من شرها؟!!

ولكن الاهم من هذا وذاك ... هو ماكشفت عنه هذه الحركات الدينية الاجتماعية الفارسية من صراع بين القديم (المجوسية) والجديد (الاسلام) ومن محاولات توفيقية بين مبادئ العقيدتين يقوم بها زعماء هذه الحركات لاتلبث ان تنكشف على حقيقتها.

ولنبدأ مع هذه الحركات منذ البداية ... فلقد أدخلت الكيسانية — الهاشمية — الخداشية (وهي تسميات مختلفة للجناح المتطرف للدعوة العباسية) مبادئ مجوسية بعيدة عن الاسلام اثناء التبشير بالدعوة في خراسان وبلاد فارس عامة من اجل كسب اكبر عدد ممكن من جماهير الفرس للدعوة. ولعلنا نقف عند مبادئ ثلاثة :

(١) التأويل الباطني: فقد ذهبت فرق الغلاة عامة الى ان لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل(٢٠). ولهذا فالغلاة لايعتدون بالتفسير الظاهري للنصوص الدينية المقدسة بل يؤكدون على ان هناك تفسيرا أخر باطنيا لهذه النصوص. إن هذا التفسير لايعرفه الا الامام او من ينوب عنه ،ثم انتقلوا من هذا الى ضرورة معرفة الامام فمعرفة الامام تغني عن كل الفرائض لانها جوهر الدين. ولا اهمية بعد ذلك للشريعة والقرآن .لقد إستطاع الغلاة من خلال التأويل تحريف الاسلام الصحيح وسحبه الى المجوسية التي تحولت في العصر الساساني الى وسيلة لتسويغ الحكم الكسروي المطلق ونشر مبدأ الخنوع والطاعة العمياء للشاهنشاه. وبكلمة اخرى اراد الغلاة تحويل جوهر الاسلام الى الفكرة المجوسية القائلة بان «الدين طاعة رجل» طاعة عمياء!!

(٢) ان الامامة يمكن ان تنتقل من الامام الى خليفته بالعلم لا بالنسب او النص. فكل من احاط بعلم الامام من تلاميذه يكون اماما بعده(٢١). وقد كان للغلاة هدف من وراء هذا التخريج وسنلاحظ ان عددا من الفرق الغالية في العصر العباسي نقلت الامامة الى رجالات من الفرس وهذا هو بيت القصيد.

(٣) الحلول التجسيد اعتقدت فرق الغلاة بألوهية زعمائها اوائمتها وذلك بحلول الجزء الالهي وتجسده فيهم(٢٢). ثم إنتقلوا بعد ذلك واستنادا على الفقرة الثانية اعلاه (الامامة تنتقل بالعلم) الى ادعاء الالوهية لشخصيات فارسية!! ولهذا نلاحظ ان الكثير من الفرق الغاليه التي والت أبا مسلم الخراساني زعمت ان روح الاله حلت فيه ومنها الرزامية والحربية. وقد رد بعض المؤرخين هذه الفكرة الى اصلها المجوسي الفارسي ذلك لأن الفرس اعتقدوا ان ملوكهم منحدرين من اصلاب الالهة ،وان الشاهنشاه هو تجسيد لروح الله(٢٣). ان فكرة العائلة الالهية المختارة هي فكرة وثنية لاصلة لها بالاسلام حاول الغلاة نقلها الى الاسلام. وهذا بطبيعة الحال، يرتبط بالمبدأ الاول وهو الخضوع المطلق للأمام والطاعة له وينتهي الى ان الدين طاعة رجل ولا أهمية للفرائض الدينية. وقد أدرك ملر وغيره من المؤرخين(٢٤) ارتباط الفكرة بالمجوسية واوضح ان خضوع الفرس خضوعا اعمى كالعبيد الى الاكاسرة قد تحول في الاسلام الى طاعة مطلقة للأمام مقرونه بانتهاك المحرمات لأن معرفة الامام تجب كل شيء !! وبتعبير ادق (فناء الارادة) اي فناء الارادة الانسانية في ارادة الامام،ومعذرة للصوفية على استعمالنا مصطلحا من مصطلحاتهم ولو بطريقة تهكمية!!

إن حدوث الثورة في خراسان عمل — دون قصد من الدعاة — الى ايقاظ الوعي وأمل التطلع نحو مستقبل افضل لدى الفرس. وبقيت فيهم روح التحسس فانفسح المجال لانطلاق الكثير من الاراء المتطرفة ذات الأصل المجوسي الذي يضرب بجذوره في اعماق الارض الفارسية. فنشطت حركات الخرمية (مزدكية جديدة)(٢٥) والزندقة (مانوية جديدة) والشعوبية (عنصرية فارسية جديدة) بل ان الأمل خالج الزرادشت في احياء الزرادشتية من جديد على يد (المنقذ) الذي بشر به زرادشت. ولهذا ادعى بها فريد انه خليفة زرادشته ،وعد زرادشتيه أخرون ابا مسلم الخراساني ذلك المنقذ!!

اما الرزامية الخرمية فنقلت الامامة من ابراهيم الامام العباسي الى ابي مسلم الخراساني الفارسي واعتقدت بقدسيته ونسبت اليه الخوارق والمعجزات. وحين مات ابو مسلم انقسمت الرزامية الى جناحين الاول. نقل الامامة الى ابنه والثاني انكر موته واعتقد برجوعه.

اما الراوندية الخرمية فجعلت ابا جعفر المنصور الاها وابا مسلم نبيه وقد حاربها المنصور في الهاشمية وقتل حوالي ٦٠٠ من اتباعها.

اما الابو مسلمية فقد ادعت ان الامام بعد ابي العباس السفاح هو ابو مسلم الخراساني وان روحا الهية حلت فيه وان درجته اعلى من درجات الملائكة وانكرت قتله وبشرت بعودته. اما سبناذ الخرمي الذي تمرد في خراسان سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م فقد بشر الفرس بأن حكم العرب صائر الى زوال لامحالة وان دولة المجوس آتيه لاريب فيها!! ووعد اتباعه بالسير الى الحجاز وهدم الكعبة ودعى اتباعه الى التحالف مع الغلاة فلا فرق في رأية بين تعاليمهم وتعاليم مزدك.

وظهرت مبادئ الغلو والآراء الخرمية واضحة في حركة المقنع الخراساني الذي تمرد في خراسان سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م واكد صفته الالوهية وأسبغ على شخصيته صفة الغموض والقدسية فأتخذ من القناع لباسا يخفي بها ملامح وجهه مدعيا ان النور الالهي الذي يشع من وجهه سيحرق من حوله اذا ازال القناع ولجأ الى السحر والشعوذة لكسب طاعة اتباعه.

ونادى المقنع بالحلول والتناسخ فقال «ان الله خلق آدم في صورته ثم في صورة نوح ثم ابراهيم ثم موسى وعيسى ومحمد الى ابي مسلم الخراساني ثم إليه (اي المقنع)» وطلب من اتباعه السجود اليه. وكان يقدس ابا مسلم الخراساني وينادي بأفضليته على الرسل والانبياء!!. ونادى المقنع بترك الفرائض واسقاطها فالدين هو معرفة الامام فقط. وأباح المحرمات في النساء والاموال على نمط المزدكية المجوسية واعطى المقنع لاتباعه الحق بقتل من يخالفهم في العقيدة وسبي نسائهم واطفالهم والاستيلاء على املاكهم واراضيهم.

وحين حاصره الجيش العباسي وادرك ان لا أمل من النجاة وعد اتباعه بانه سيختفي وسيعود الى الدنيا لينشر العدل وليحكم الارض. ولهذا تشير الروايات التاريخية انه رمى بنفسه في النار ولم يعثر على جسده. كل هذا من إجل ان يبقى اتباعه مخلصين لفكرته في العودة الى هذه الدنيا متمسكين بمذهبة أملين الانقاذ على يديه!! ويستنتج الدوري من طبيعة حركة المقنع بانها كانت: «في اساسها خرمية فارسية وصبغتها قوميه ..لاتعترف بامامة العباسيين او بسلطتهم».

ثم كانت حركة بابك الخرمي على عهد المأمون والمعتصم(٢٦) ذروة التآمر الفارسي المسلح ضد العباسيين .وفي رواية تاريخية تكشف الحركة عن اهدافها:

«إن بابك سيبلغ بنفسه ويحكم امرا لم يبلغه احد .. وانه يملك الارض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعز ذليلكم ويرتفع به وضيعكم»

وقد غدا بابك زعيم الخرمية في أذربيجان بعد وفاة زعيمها السابق جاويدان وادعى بأن «روح جاويدان حلتّ فيه» .واشار ابن النديم ان بابكا كان يقول لمن استغواه انه إله ذلك لأن الخرمية تعتقد بان روح الله تحل في الزعيم .واشارت روايات اخرى الى ان معرفة هذا الزعيم (بابك) وطاعته واجبه ولازمة وهي اهم من الفرائض والعبادات. وربط بابك نفسه بابي مسلم الخراساني وادعى انه من نسل ابنته، مما يدل على النزعه الفارسية القوية لدى بابك. ولهذا كانت صورته(٢٧) تظهر على الكؤوس مثل صور الاكاسرة والفرسان الايرانيين القدماء.

ولسنا هنا في معرض مناقشة سياسة العباسيين تجاه بلاد فارس ولكن الذي نلاحظه ان العباسيين لم ينجحوا في تطبيق كل الشعارات التي طرحوها اثناء الثورة ،او في تحقيق كل الوعود التي اعلنوا عنها في مدة الدعوة مما خيبَّ أمال الفرس وغير الفرس. الا ان الفرس وبتأثير التيارات الخرمية والعنصرية المعادية استغلوا ذلك لهدم النظام القائم من اساسه «واعادة دولة المجوس». وكلما تقادم العهد بالدولة العباسية زاد التنافر بينها وبين الفرس. وهذا مايفسر اضطراب ايران في العصر العباسي وكثرة القلاقل والحركات المستمرة تقريبا أرجاء عديدة منها، وانتشار القاعدة المؤيدة للخرمية فيها. والاكثر من ذلك إجتماع كلمة الدهاقين والمثقفين والامراء الفرس مع العوام لأول مرة ضد السلطة العربية الاسلامية. فقد تعاون الاصبهبذ الطبرستاني (امير طبرستان) مع حركة بابك الخرمية وبعد ذلك بقليل أيدت جماهير ايران قيام الامارات الفارسية الانفصالية مثل الطاهرية والصفارية والسامانية والحشيشية كما سنرى في فصل قادم.

الخاتمة:

مع ادراكنا ان قوما من الفرس اعتنقوا الاسلام عن صدق مؤمنين برسالته السماوية ودعوته للعدل الاجتماعي والمساواة التي انقذتهم من الخضوع الاعمى لسلطة الشاهنشاه المطلقه ولنفوذ الموباذ موبذان (رئيس طبقه رجال الدين الزرادشت)، وخلصتهم من الضرائب التعسفية وكسرت طوق التمايز الاجتماعي الصارم بين طبقات الشعب الايراني. وان هذه الفئة الموالية للدولة وسياستها وللفكر العربي الاسلامي ونهجه انتجت علماء ومفكرين واداريين بارزين وكانوا من اوائل المتصدين للتيارات الشعوبية والخرمية الحاقدة ... ثم ان هذه الفئة نفسها اذا ماستنكرت سياسة وال او نهج خليفة او لم تنسجم مع مذهب الدولة الرسمي لم تنكص او ترتد على عقبيها او تلجأ بالانضمام الى حركات معارضة سلبية هدامة مثل الخرمية والغلاة والزندقة والشعوبية بل كانت تعبر عن معارضتها ايجابيا وضمن اطار العروبة والاسلام وذلك بالانتماء الى حركات معتدلة الاتجاه مثل حركات الشيعة والخوارج والنابته وغيرها ...

نقول مع ادراكنا لوجود هذه الفئة من اهل فارس ،فأننا ندرك كذلك وفي الوقت نفسه وجود فئة اخرى من الفرس تسترت بالاسلام وتبرقعت ببرقعه ورفعت شعاراته متخذة من ذلك وسيلة لحماية نفسها ومنفذا لتمرير عقائدها وتحقيق اغراضها ذات النبرة العنصرية الفارسية الخفية ...

ان هذه الفئة الثانية هي المسؤولة عن تشويه الاسلام وعرقلة انتشاره واعاقته عن تحقيق اهدافه في ايران.

رغم اننا لسنا من المعتقدين بان التاريخ يعيد نفسه في حركة دورية رتيبة ،الا اننا نقول إن وضع ايران الاسلامية قبل الغزو المغولي لم يكن افضل كثيرا من وضع ايران المجوسية قبل الفتح العربي الاسلامي ... ذلك لان الحركات الدينية السياسية الاجتماعية ابتداءا من الخرمية والزندقه وانتهاءا بالحشيشية قد فعلت فعلها في تآكل المجتمع الايراني. ولهذا كان المجتمع الايراني منهارا اجتماعيا ودينيا قبل ان ينهار سياسيا وعسكريا سنة ٦٥٤هـ / سنة ١٢٥٦م على يد المغول.

ان الاسلام الذي بشر به الرسول العربي محمد (ص) والذي حمل العرب المسلمون الاوائل مبادئه الى خارج الجزيرة العربية قد تحول — وكما لاحظنا خلال البحث — في ايران الى عقيدة اخرى مختلفة في العديد من مظاهرها. فعبر سلسلة من المحاولات «التوفيقية» بينه وبين المجوسية وبتأثير البيئة وتقاليدها القديمة غدا الاسلام في ايران دعوة جديدة تشمل من جملة ماتشمله مبادئ الحلول والتناسخ والقدسية والبداء والتأويل الباطني وغيرها، وتبشر بالطاعة المطلقة والخضوع الاعمى لرجل واحد مهما اختلفت مسميات هذا الرجل ... بل ان هذه الطاعة تحلل الاتباع من الفرائض وتجيز لهم انتهاك الحرمات وقتل مخالفيهم في المذهب!!

لقد اثبتت الاحداث أن التخلي عن الاصالة الاسلامية في بلد زرادشت وماني ومزدك قد اوقع الاسلام في متاهات عميقة ادت الى تشتيت قواه وبعثرة جهوده وانحرافه عن الخط الصحيح.

وبعد فهل يحق لنا ان نسأل أكانت الصفة الغالبة في ايران في عصور الخلافة: إسلامية ام مجوسية ام «منزلة بين المنزلتين» !! ومعذرة للمعتزلة لاستخدامي — على سبيل المجاز — اصطلاحا من اصطلاحاتهم المشهورة.لعل المؤرخ ارمجاني احد المتخصصين بتاريخ إيران يعطينا جوابه عن هذا السؤال حين يقول:(٢٨)

«ان الفرس ضمن العالم الاسلامي (جغرافيا) ولكنهم ليسوا من العالم الاسلامي ... إن قلوبهم لاتزال متعلقة بخرائب بيرسيبولس الفارسية»

الهوامش والتعليقات:

(١) راجع مثلا الثعالبي، غررسير ملوك الفرس، طهران ، سنة ١٩٦٣. كذلك (عهد اردشير بن بابك) حققه محمد كرد علي في (رسائل البلغاء) القاهرة سنة ١٩٤٤. الفردوسي، الشاهنامة، ترجمها الى العربية نثرا البنداري. ونشرت بالقاهرة سنة ١٩٣٢م .ثم ان كتب التاريخ العربية الاسلامية تذكر اخبار الفرس قبل الاسلام نقلا عن اساطيرهم وحكاياتهم التي تفعم بالخرافة.

(٢) كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين ،مترجم ،القاهرة ١٩٥٧، ص٧٤ فمابعد .

(٣) المصدر السابق ص٣٥٨

(٤) المصدر السابق، ص ٧٥ فمابعد، ص٣٠٢ فمابعد.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٠ فمابعد .عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي، القاهرة ١٩٦٥، ص١٩٣

(٦) كريستنسن ،ص ١٦٩ فمابعد ،عبد المنعم ماجد، المصدر السابق، ص١٩٥

(٧) كريستينسن، ص٢٠٩.

(٨) الثعالبي، غرر ...،ص٥٩٦.

(٩) المسعودي، التنبيه والأشراف ص١٠١ فمابعد.

(١٠) كان الفرس يرون أن ملوكهم منحدرين من اصلاب للالهة وهم تجسيد لروح الله **Pahlavi - Bagh** التي تنتقل من الملوك الاباء الى الملوك الأبناء في العائلة المكلية الالهية المختارة. وفي رواية اخرى ان النور الالهي ينتقل في اصلاب الملوك الفرس جيلا بعد جيل .(راجع : ولهاوزن احزاب المعارضة .. ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ . ــ كذلك د. عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد، بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٢ ــ ٢٣. "

(١١) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي ،جـ١ ص١٦٢.

(١٢) حول موقف العرب من هذه الديانات راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام بيروت ــ بغداد ١٩٦٩.

(١٣) راجع: صالح العلي، محاضرات في التاريخ الاسلامي ،للصف قسم التاريخ ،غير مطبوعة. شكري فيصل حركة الفتح الاسلامي، ١٩٥٢، بيروت ، ص١٣ فمابعد . فاروق عمر، دور التاريخ في التوعية ،المجلة التاريخية، العدد الخامس ١٩٧٦، ص١١٦ فمابعد.

(١٤) المقريزي، الخطط ص٤ ص ١٩٠ ــ ١٩١

(١٥) حول حركات الغلو ومبادئها راجع د. عرفان عبد الحميد ،المصدر السابق، ص ٤٨ ــ ٦٥

(١٦) الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ،١٩٤٩، ص٨٧

(١٧) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت ١٩٧٠، ص٥٤ فمابعد

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) فاروق عمر، العباسيون الاوائل ،جـ١، ص٨٦

(٢٠) الدوري، المصدر السابق، ص٨٠

(٢١) المصدر السابق.

(٢٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٠ ــ ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ٤، ١٧٩

(٢٣) ولهاوزن، المصدر السابق ،ص٢٤١.

(٢٤) المصدر السابق نفسه

(٢٥) حول هذه الحركات الخرمية المسلحة راجع كتابنا العباسيون الأوائل جـ١ ص٢٧١ ــ ٣١٠ كذلك سبولر ،ايران في العصور الاسلامية، (بالالمانية) ص ٤٩ فمابعد. كذلك صديقي، الحركات الدينية السياسية في القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري في ايران، (بالفرنسية) ص٥٢ ومابعدها.

(٢٦) عن حركة بابك الخرمي راجع: العباسيون الأوائل جـ٣ ص ١٤٢ ــ ١٥٥

(٢٧) احمد تيمور، التصوير عند العرب، القاهرة ١٩٤٢، ص٢٢

(٢٨) أرجماني، الصفاريون، المؤتمر الدولي للمستشرقين ص ١٦٨ ــ ١٧٣.

الفصل الثالث

الحياة السياسية في بلاد فارس حتى نهاية القرن الثالث الهجري

مقدمة:

انتهت حياة ابي مسلم الخراساني الا ان ذكراه بقيت بين فئات من اهل خراسان واصبح اسمه اسطورة نسجت حولها قصص مبالغ فيها واصبح بالنسبة للمتمردين في ايران «المنقذ الذي سيعود الى هذه الارض يملئها عدلا بعد ان ملئت جورا».

ويبدو ان ابا مسلم الخراساني قد تقرب بعد نجاح الثورة العباسية من سكان البلاد المحليين وكون له اتباعا مخلصين من اجل تحقيق طموحاته الشخصية. ونحن لا نعرف خطط ابي مسلم المستقبلية تجاه السلطة العباسية المركزية القوية في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور التي استطاعت ان تكبح جماحه قبل ان يتعاظم خطره. الا ان ذلك واضح تماما في فعاليات ابي مسلم في خراسان بعد نجاح الثورة العباسية حيث اراد ان يكون الزعيم الاوحد في خراسان وبلاد ايران كلها. وكذلك بعدها حين نجح الخليفة المنصور في قتل ابي مسلم الخراساني.

لقد ظهرت في بلاد ايران فرق عديدة عارضت النظام العباسي الجديد اما لأن هذا النظام لم يستطع وبسرعة تنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه في مدة الدعوة. او لعدم اقتناع هذه العناصر الايرانية بالنهج الذي سار عليه النظام العباسي والسياسة التي ارتكزت على العروبة والاسلام. ولوجود اهداف اعمق ومطامع اوسع لهذه العناصر منها احياء الارث الايراني القديم وفسح المجال لانطلاق الآراء المجوسية التي عدها الاسلام آراءا متطرفة بعيدة عن روح العصر الجديد. ومن هذه الفرق الفرقة الرزامية التي اعترفت بابي مسلم اماما واعتقدت بقدسيته ونسبت اليه الخوارق والمعجزات. بل ان فئة منشقة عن الرزامية ادعت أن ابا مسلم نبيا وادعت فرقة اخرى منشقة انه لم يمت وانما حلت فيه روح الهية وسيعود الى هذه الدنيا ووضعته في درجة اعلى من درجات الملائكه!!.

لقد تعلق الايرانيون بأبي مسلم الخراساني وعدوه بطلا شعبيا ايرانيا ونادوا بالثأر له من العباسيين. ومن هؤلاء المتمردين سنباذ واسحق الترك واستاذ سيس والمقنع الخراساني وبابك الخرمي.

تحاول بعض الروايات الفارسية التأكيد على دور ابي مسلم الخراساني وابرازه على بقية الثوار والدعاة الذين اشتركوا في الثورة العباسية. وتوجد هذه الروايات بصورة خاصة في كتب حمزة الاصفهاني والدينوري وبعض الروايات الي جمعها الطبري وكذلك ابن اعثم الكوفي.

ولابد من التأكيد هنا ان العمل في الدعوة العباسية كان مشتركا يسيطر عليه مجلس النقباء الاثني عشر، ولم يكن ابو مسلم الخراساني واحدا منهم بل ذهب الى خراسان في مدة متأخرة بعد

نضج الثورة ووشوك اعلانها وغدا ابو مسلم في معية سليمان الخزاعي (نقيب النقباء) الذي كان وجه الثورة العباسية والمعبر عن سياستها واهدافها والناطق بأسمها في المفاوضات مع القبائل العربية في خراسان. وهكذا لم يكن دور أبي مسلم متميزا عن دور رفاقه في الحركة السرية العباسية .. ولكن بعد نجاح الثورة استطاع ابو مسلم ان يتخلص من منافسيه من قادة الدعوة العباسية الواحد بعد الآخر فتوطدت سلطته في خراسان وحاول توسيعها الى اقاليم ايرانية اخرى.

وحين جاء الخليفة ابو جعفر المنصور الى السلطة امهل ابا مسلم ولم يهمله حتى استطاع ان يوقعه في الشرك في المدائن. فخليفة مثل المنصور لا يمكن ان يحتمل واليا طموحا متنفذا مثل ابي مسلم الخراساني.

لم يكن ابو مسلم بطلا متميزا ولكن الروايات الفارسية المعارضة للعباسيين جعلت منه ذلك البطل الذي لولاه لما قامت للعباسيين دولة ولذلك «فهو (صاحب الدولة) وسندها الذي غدر به المنصور». كما عده الثوار الايرانيون منقذا منتظرا وهذا امر طبيعي ايضا فلم يكن هناك احسن من ابي مسلم الخراساني الذي اختلف مع المنصور وقتل على يديه رمزا للمعارضة ضد السلطة العباسية !!

لقد آن الأوان لكي نضع ابا مسلم الخراساني في موقعه الصحيح من الاحداث وان نرفض كل المبالغات والاساطير التي حيكت حول شخصيته ... فلم يكن أبو مسلم الرجل الأول في الدعوة العباسية ولم يكن بطلا شعبيا أو منقذا منتظر بل كان رجل احداث امتاز بقدرته على المراوغة السياسية وضرب المنافسين بدهاء وحزم واستغلال الفرص فشق طريقه نحو السلطة . ثم زاد نفوذه كثر اتباعه في خراسان بعد تأسيس الدولة العباسية فاصطدمت سلطته بسلطة الخليفة.

ويبدو ان خراسان بمواردها الاقتصادية والبشرية الكبيرة كانت تغري واليها وتدفعه للانفصال من السلطة المركزية . ونرى ان ابا مسلم بطموحاته الواسعة كان يخطط للانفصال او على اقل تقدير لايجاد صيغة لامركزية للعلاقة السياسية والادارية بين خراسان والسلطة العباسية المركزية .واذا صحت هذه الفرضية فقد حاول ابو مسلم ان يحقق ما حققه الطاهريون بعده في خراسان. على ان طموحات ابي مسلم جاءت في غير اوانها ذلك لأن دولة المنصور كانت في اوج قوتها وعزها.

ومن هذا المنطلق فأننا نعتقد بان اغتيال ابي مسلم الخراساني جاء نتيجة للصراع بين نزعتين سياسيتين الاولى تميل الى الانفصال الاقليمي والثانية تميل الى الوحدة والتماسك وتأكيد السلطة المركزية. وقد انتصرت عوامل الوحدة والتماسك على عوامل الانفصال والاقليمية بفضل دهاء المنصور وقابلياته الفذة.

ان تعليقات الخليفة المنصور بعد اغتيال ابي مسلم الخراساني تؤكد ما ذهبنا اليه من ان قتل هذا الاخير كان لدوافع سياسية ذلك أن ابا مسلم بدأ يشكل خطرا يهدد أمن الدولة ووحدتها. فقد خاطب المنصور ابا مسلم في آخر مقابلة بينهما قائلا:«لقد ارتقيت مرتقى صعبا». وقال

الخليفة جوابا على استفسار عيسى بن موسى :«وهل كان معه (أي مع ابي مسلم) سلطان؟». وقد اكد الخليفة على المعنى نفسه حين خطب خطبة طويلة معللا مقتل ابي مسلم الخراساني للرأي العام فقال:

«ايها الناس لاتخرجوا من انس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسروا غش الائمة فانه لم يسر احد قط منكرا الا ظهر من آثار يده أو فلتات لسانه ...

انه من نازعنا هذا القميص اجزرناه حتى هذا الغمد وان ابا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على انه من نكث بنا فقد اباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا. ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه».

لقد كانت تحركات ابي مسلم في اواخر حياته تمثل بوادر النزعة الانفصالية التي هددت كيان الدولة العربية بالانفصام وبموت ابي مسلم سحقت هذه النزعة لتعود ثانية بعد اكثر من نصف قرن على يد الطاهريين.

المبحث الأول:

الحركات الفارسية خلال العباسي: ابعادها السياسية والدينية

يقول المقريزي: «وأعلم ان السبب في خروج اكثر الطوائف عن ديانة الاسلام ان الفرس كانت في سعة من الملك وعلو اليد على جميع الامم .. فلما امتحنوا بزوال دولتهم على ايدي العرب وكانت العرب عند الفرس اقل الامم خطرا تعاظم الامر وتضاعفت المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة .. ثم رأوا ان كيده على الحيلة انجع فأظهر قوم منهم الاسلام».

يبدو من هذا النص النزعة العدائية الفارسية تجاه العرب التي تمتد جذورها مدة ماقبل الاسلام. ولذلك لم تنظر فئة من الفرس الى حركة الفتوحات العربية الاسلامية بأنها حركة حملت مبادئ جديدة تتمثل بالاسلام بل على العكس تعلقوا بعقيدتهم المجوسية وتمسكوا بشعائرهم الفارسية وعملوا على اعادة الدولة الفارسية المتداعية .فقد كانت مجتمعات الموالي الفرس البؤرة التي تنطلق منها حركات التمرد والاضطرابات في صدر الاسلام، حيث رأى فيهم الطامعون في السلطة والسيادة والنفوذ خير وسيلة لتحقيق أمالهم وطموحاتهم. وليس في حدود هذا البحث ان نفصل في هذه الحركات التي وقعت في العصر الأموي ولكننا نشير الى ان المختار الثقفي حاول الاعتماد على العجم في حركته ثم حاول بعده عبد الله بن جارود وعبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ويزيد بن المهلب بن ابي صفرة وعبد الله بن معاويه أن يستغلوا الموالي الفرس في تمردهم على الخلافة الاموية وتعد حركاتهم محاولات انفصالية اعتمدت بالدرجة الاولى على الموالي الفرس في العراق. ولم تكن هذه الحركات موجهة ضد سياسة الولاة الامويين مهما تسترت بهذا القناع بل انها كانت موجهة ضد الدولة الاموية .وسياستها العربية الاسلامية.

وقامت الثورة العباسية على أكتاف القبائل العربية في خراسان ولوحت بشعارات الاصلاح وأكدت فهمها الواسع لمبادئ الاسلام بما فيه من مساواة أجتماعية وعدالة اقتصادية وحرية سياسية. ومن الطبيعي أن الثورة العباسية أيقظت في نفوس الجماهير الكثير من أمال التطلع نحو المستقبل الأفضل كما بعثت فيهم روح التحمس واليقظة. فكانت النتيجة، بقدر ما يتعلق الأمر بالفرس، أن انفسح المجال لانطلاق الكثير من الآراء المتطرفة من العنصرية الفارسية، او العقائد المجوسية القديمة من زرادشتية ومزدكية ومانوية.

ولعل أول ظاهرة تجلب الانتباه في تاريخ مطالع العصر العباسي هي الصعوبات التي واجهت العباسيين في الأقاليم الايرانية. ومهما كانت الظروف في الأقاليم الغربية فإن الخطر الحقيقي الذي هدد العباسيين في هذه الحقبة كان متأتيا من ايران: حيث نلحظ كثرة الحركات التمردية في العصر العباسي كما نلاحظ نشاط الشعوبية والزندقة. وبمعنى آخر اكثر وضوحا فإن العداء الفارسي كان موجها ضد العرب والعروبة باعتبارهم اصحاب الدولة الجديدة أولا ثم موجها ضد الاسلام باعتباره عقيدة جديدة تهدد المجوسية العقيدة الفارسية.

خصائص مشتركة:

ولابد لنا أن نؤكد قبل أي شئ آخر الخصائص المشتركة والميزات العامة التي اشتركت فيها الحركات التمردية التي ظهرت في بلاد فارس في المدة موضوعة البحث:

اولا : لقد كانت هذه الحركات ذات طابعين الأول مسلح مثل تمرد بهافريد واستاذسيس، واشناس، واسحق الترك، والمقنع ، وبابك، والمازيار وغيرهم والثاني مقاومة سلبية تتمثل بالأفكار بالدعايات التي بثتها الشعوبية والزندقة والطابع الأخير ليس مجال بحثنا هنا.

ثانيا : مهما أكد المستشرقون على «نزعة التوفيق» التي امتازت بها الحركات الفارسية حيث جمعت بين آراء مجوسية فارسية وآراء اسلامية وحاولت أن توفق بينهما فإننا نلاحظ بأن هذه الحركات لم تكن اسلامية مهما تستر اصحابها بالاسلام أو صبغوا حركاتهم بمظهر اسلامي. ولعل زعماء هذه الحركات تبرقعوا بالاسلام لتمريرها على الجماهير من أجل كسب اكبر عدد ممكن من الاتباع.

ثالثا : انضم سكان بلاد فارس الى حركات قادها فرس كما انضموا الى حركات قادها ثوار خوارج او متمردون من الولاة. ولعلنا نستنتج قاعدة عامة في هذا المجال وهي مساعدة العناصر الفارسية لكل محاولة من اجل الهدم والانفصام في جسم الدولة العربية الاسلامية ومعارضتهم لكل من يحاول تقوية السلطة المركزية في بغداد أو تقوية عوامل التماسك والوحدة في كيان الخلافة العباسية.

رابعا : ومما يؤكد طبيعتها العنصرية الفارسية ونزعتها المجوسية انها بشرت بالمزدكية الجديدة (الخرمية) أو بالزرادشتية وجذبت اليها الفرس الذين تظاهروا بالاسلام أو الفرس الذين لم يعرفوا الاسلام بعد. بل انها انتشرت في المناطق التي تكثر فيها هذه الجماعات والتي لم يكن فيها تأثير العروبة والاسلام قويا.

خامسا : وهناك صفة مشتركة بين هذه الحركات وهي تبشيرها بالبطل المنقذ وتعلقها بشخص أبي مسلم الخرساني باعتباره بطلا شعبيا ايرانيا. فكان شعار هذه الحركات الثأر لأبي مسلم الخراساني الذي قتله الخليفة المنصور. وغدا ابو مسلم رمزا للحركات الفارسية ضد الحكم العربي العباسي. بل ان بعض هذه الحركات تنبأ بعودته لينشر العدل ويزيل الظلم !!

سادسا : لم تكن هذه الحركات والتمردات مقتصرة على فئة معينة بذاتها من اهل فارس بل شملت الامراء والدهاقين والعامة في بلاد فارس. فقد قاوم بعض الامراء المحليين النفوذ العربي الاسلامي المتمثل بمحاولة العباسيين مد سيطرتهم على المناطق التي كانت لاتزال خارج نطاق الدولة الجديدة مثل طبرستان والديلم وجرجان وأرمينية.

سابعا : ان البرامج السياسية ــ الدينية لهذه الحركات كانت متفقة في العمل على ازالة الدولة العربية واعادة النفوذ الفارسي سياسيا ومحاربة الاسلام واعادة المجوسية دينيا.

ومهما تشدق المستشرقون ومن لف لفهم من الماركسيين حول البرنامج الاقتصادي لهذه الحركات فإن من الصعب فصل البعد الاقتصادي عن البعد السياسي ـــ الديني .فحين دعت الخرمية (المزدكية الجديدة) الى سلب الاراضي من ملاكيها لاحظت بأن هؤلاء كانوا من العرب او من مواليهم الذين كانوا يعدونهم من «المسودة العباسيين» .اتفق العديد من المؤرخين على ان هدف هذه الحركات هو اعادة سلطان ايران السابق والعمل على اسقاط السلطان العربي وبشروا الناس بعزمهم على هدم الكعبة رمز الاسلام واعادة المزدكية واعادة « الدين على مالم يزل عليه أيام العجم»!!

وفي الامكان تقسيم حركات التمرد المسلحة في بلاد فارس الى قسمين :

ـــ الحركات الدينية ـــ السياسية التي أرادت استعادة الديانات المجوسية القديمة باعتبارها بديلة للاسلام وما يمثله الاسلام من سلطان العرب السياسي. وقد حاولت هذه الحركات أن توفق بينها وبين بعض مبادئ الاسلام او تطعم نفسها ببعض الآراء الاسلامية أو تتبرقع وتتظاهر بالاسلام من اجل تمرير نفسها وكسب اكبر عدد من الناس. ولكنها ما لبثت أن انكشفت بعد أن سقطت الأقنعة .ومن الحركات الزرادشتية الجديدة حركة بهافريد وحركة استاذسيس أو خرمية (مزدكية جديدة) مثل المقنع وبابك.

ـــ حركات مقاومة نظمها الامراء الايرانيون ضد تغلغل النفوذ العربي الاسلامي حيث حاولت الخلافة العباسية تعميق سيطرتها على اقاليم مثل اقليم طبرستان واذربيجان وأمينية.

ومن الحركات الدينية السياسية:

١ ـــ حركة بهافريد

بدأ بهافريد دعوته في نيسابور في أواخر عصر الامويين واستمرت بعد تأسيس الدولة العباسية. وكانت دعوته زرادشتية جديدة حيث ادعى أنه خليفة زرادشت ولكنه عدل من الزرادشتية التقليدية حيث حرم شرب الخمور وأكل الميتة ونكاح الامهات والاخوات والبنات التي تعد تقاليد زرادشتية. ولعل من اهم مبادئه الرجعة حيث تظاهر بأنه مات. واختفى لمدة سنة كاملة ثم عاد وادعى «ان الله اماتني منذ سنة ثم احياني الآن وخلع عليّ .. وأوصى الي ماسأخبركم به !!».

وكان يرتدي قميصا أخضر مع رداء. والمعروف أن الاخضر شعار الفرس الساسانيين. وزعم أن الله أوحى اليه بكتاب مقدس باللغة الفارسية معارضا بذلك القرآن.

وبسبب الآراء الجديدة التي أدخلها بهافريد عن الزرادشتية عارضه رجال الدين الزرادشت المحافظون وساعدوا السلطة العباسية في القضاء على حركته واتباعه حيث تشير الروايات التاريخية انه اسر وصلب في نيسابور. على أن البهافريدية استمرت في بعض مناطق ايران حسب شهادة بعض مؤرخينا حتى ما بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

ولا يخفى على المتمعن بأن تعاليم بهافريد كانت محاولة لمعارضة الاسلام بمذهب زرادشتي موقع ببرقع اسلامي حين أراد بهافريد أن يعدل من الزرادشتية فيدخل فيها بعض التعاليم الاسلامية . ولاشك إن الدافع وراء محاولة بهافريد كان سياسيا لأنه طمح في ان يضم الى حركته المجوس اضافة الى الموالي الفرس الذين لم يكن قد مضى على اسلامهم وقت طويل. وصولاً الى تحطيم السيادة العربية والدولة العربية الاسلامية.

٢ ــ حركة سنباذ

وقد بدأت حركته في قريته قرب نيسابور وتوسعت الى المناطق التي حولها. ورفع سنباذ شعار الثأر لأبي مسلم الخراساني الذي قتله الخليفة المنصور. وادعى بأن ابا مسلم لم يمت وسيعود حيا. وقد امتدت حركته الى قومس والري ولقب نفسه (بيروز أصبهبذ): أي القائد المنتصر.

اما تعاليمه فكانت خرمية اي مزدكية جديدة حاول سنباذ أن يوفق بين المزدكية القديمة وتعاليم اسلامية جديدة. وكما فعل بهافريد قبله حاول ان يستغل الدين لتحرير اهدافه السياسية الفارسية الحاقدة على العروبة. قال ان أبا مسلم «سيعيد مجد المجوس» وبشر الفرس بأن حكم العرب المسلمين صائر الى زوال لا محالة وان دولة المجوس آتية لا ريب فيها. وأظهر بأنه يستعد لتقدم الى الحجاز هدم الكعبة واحتلال مكة منبع الرسالة وعز العروبة. كما أن سنباذ أمر أتباعه بالسجود للشمس اثناء الصلاة بدلا من التوجه الى الكعبة. والمعروف ان الشمس أدت دورا بارزا في العبادات الفارسية القديمة (المجوسية) ومجدّها بهافريد في تعاليمه وجاء سنباذ ليؤكد ذلك!!

وقد أرسل المنصور القائد جهور بن مرار العجلي حيث دحر سنباذ واتباعه فهرب الى أمير طبرستان الذي لم يكن راغبا في حينه في تكدير علاقته مع المنصور فقتله وتخلص من شره.

٣ ــ حركة اسحق الترك

وهو من اتباع ابي مسلم الخراساني ولكنه فر الى بلاد الترك (ما وراء النهر) فسمي (اسحق الترك). ونادى بإحياء المجوسية من المذهب الزرادشتي وادعى انه نبي أرسله زرادشت ليخرج دينه من جديد على الارض. كما نادى مثله مثل الحركات التي سبقت بأن ابا مسلم لم يمت بل اختفى وانه عائد لا محالة ليحقق طموحاته الدينية والسياسية.

وكادت الحركتان المجوسيتان السنباذية والاسحاقية أن تتحدا لولا ان تدارك الوضع خالد بن برمك الشيباني والي المنصور على خراسان فدحر اسحق الترك وقتله.

٤ ـ حركة استاذسيس

استغل المجوس اضطراب الحالة السياسية في خراسان فقاموا سنة ١٥٠هـ / سنة ٧٦٧م بتمرد جديد بزعامة استاذسيس في مدينة باذغيس. وتتفق مصادرنا التاريخية على أن هذه الحركة دعت الى تعاليم بهافريد الزرادشتية نفسها وأن الحركتين تعودان في الأصل الى فرقة مجوسية واحدة.

وارسل المنصور القائد خازم بن خزيمة التميمي الذي استطاع بعد مطاردة طويلة ان يأسره ويرسله الى بغداد حيث قتل. وحين عاد القادة العرب مع الجيش المنتصر استقبلوا استقبالا حافلا تكريما لهم.

٥ ـ حركة المقنع:

تمرد المقنع الخراساني في عهد المهدي العباسي سنة ١٥٩/٧٧٥م وكان والي خراسان حميد بن قحطبة الطائي. وحين ظهر للناس اتخذ قناعا لبسه على وجهه وكان هذا القناع من الحرير الأخضر. ولابد من الاشارة الى أن تفضيل هؤلاء المتمردين للون الأخضر اشارة الى ميولهم الفارسية باعتبار ان اللون الاخضر هو شعار الفرس الساسانيين. كما أن القناع أسبغ الغموض والقدسية على المقنع! وقد اتبع المقنع وسيلة اخرى لتحقيق طموحاته حيث التجأ الى السحر ونسب الى نفسه اعمالا خارقة ومعجزات منها اظهاره ضياء في السماء على شكل بدر من انعكاس الأشعة الضوئية على بئر طرح فيها زئبقا كثيفا فكان شعاعه يظهر في الجو وكأنه بدر!! وقد أدرك العلماء في حينه هذه الحيلة وأدركوا كذلك أن من ورائها خداع العامة وجذب قلوبهم اليه.

أما تعاليم المقنع فكانت خرمية أي مزدكية جديدة. وادعى لنفسه الالوهيه ونادى بالحلول والتناسخ فزعم ان الله خلق آدم في صورته ثم في صورة نوح ثم الى صورة سائر الانبياء والحكماء حتى صورة ابي مسلم الخراساني ثم انتقل من ابي مسلم الى المقنع. ولذلك امر اتباعه بالسجود اليه. واكثر من ذلك فقد ادعى المقنع بأنه سيعود الى هذه الأرض بعد موته وظل مخلصا لهذا المبدأ فحين حاصره الجيش العباسي رمى بنفسه في النار ولم يبق له أثر ولذلك اعتقد اتباعه بأنه اختفى وسيعود حتما !!

وقدس المقنع ذكرى أبي مسلم الخراساني بل فضله على الأنبياء ،وطبق تعاليم مزدك فاسقط الفرائض الاسلامية وأباح ما حرمه الاسلام. وأعطى المقنع لأتباعه الحق بقتل كل من يخالفهم في المعتقد وان يسبوا نساءهم وأطفالهم ويسلبوا ممتلكاتهم. هذا من الناحية الدينية حيث يظهر بوضوح مناقضتها لتعاليم الاسلام وعداؤها له. اما من الناحية السياسية فإن صبغتها الفارسية واضحة لأن المقنع ينتمي الى فرقة الرزامية وهي فرع من الخرميه نقلت الامامة من العباسيين الى الزعيم الفارسي ابي مسلم الخراساني وهي لاتعترف بإمامة العباسيين. وفي هذا الصدد تتفق آراء

المؤرخين المحدثين. يقول الدكتور عبد العزيز الدوري «كانت مبادئ المقنع في اساسها خرمية فارسية وصبغتها قومية». ويجعل الدكتور حسن ابراهيم حسن الحركة المقنعية من حيث الاهداف والمبادئ في صف واحد مع الخرمية التي تعمل على النيل من الاسلام ودولة العباسيين العربية معا. أما الدكتور حسن أحمد محمود فيعدها من الحركات الهدامة التي تمسكت بالروح الايرانية تمسكا كاملا. ويرى الدكتور محمد حلمي أحمد بأن المقنعية حركة عنصرية تدعو الى دعاوى هدامة لمبادئ الاسلام وتستند على اسس الوثنية الايرانية القديمة.

٦ ـ حركة بابك الخرمي ذروة التآمر الفارسي المسلح:

البابكية (نسبة الى بابك الخرمي) حركة دينية سياسية تدين بالخرمية. والخرمية ماهي الامزدكية جديدة، اي ان تعاليمها تشبه الى حد كبير تعاليم المزدكية الايرانية، متبرقعة بثوب جديد وقد ظهرت في اواخر العصر الاموي حتى ان خداش الذي اتهم ببث اراء خرمية سنة ١١٨هـ ،كان من اوائل الدعاة العباسيين في خراسان ،حيث يقول عنه الطبري:

«ثم غير مادعاهم اليه وتكذب، واظهر دين الخرمية ودعا اليه، ورخص لبعضهم في نساء البعض.

ولاشك فان الخرمية تبنت ابا مسلم الخراساني خاصة بعد وفاته، ونظرت اليه قائدا وزعيما لها، وكانت (المسلمية) فرقة خرمية تنظر الى ابي مسلم بوصفه منقذا منتظرا سيعود الى هذه الارض فيملأها عدلا. وتحرك الخرمية بزعامة عبد القهار سنة ١٦٢هـ في جرجان، ولكن القائد عمر بن العلاء مزقهم، ثم ظهروا في اصفهان سنة ١٦٧هـ ،ثم عاد المحمرة الخرمية فانتقضوا في جرجان سنة ١٨٠هـ وتحرك الخرمية في اذربيجان سنة ١٩٢هـ فارسل الرشيد جيشا قويا بقيادة عبد الله بن مالك الذي استطاع ان يخمد الحركة ويأسر العديد منهم وقد امر الخليفة بقتل الرجال وسبي النساء. كما قامت سنة ٢١٨ هـ انتفاضة خرمية في اقليم الجبل واستطاع الخليفة المعتصم القضاء عليها.

ترأس بابك فرقة الخرمية بعد وفاة جاويدان، ورشحته زوجة جاويدان لقيادة الحركة مدعية ان زوجها قال بأن روحه بعد وفاته ستدخل في بدن بابك، فقبل الاتباع قولها وجعلوا بابك زعيما لهم.

لقد عين الخليفة المأمون حاتم بن هرثمة واليا على ارمينية قبل مقتل ابيه هرثمة بن اعين، ولكن مقتل الاخير استثار ابنه الذي بدأ يعد العدة للتمرد على السلطة، فراسل امراء ارمينية وايران وكذلك راسل بابك زعيم الخرمية. وقد عد البابكية هذه الفرصة جيدة للتحرك ضد العباسيين ،ولكن حاتم بن هرثمة توفي قبل ان يحقق مآربه. وفي سنة ٢٠١هـ اجتاح ايران القحط واضطرب السكان وواجهت السلطة المركزية صعوبات كبيرة، وقد انتهز البابكية هذه الظروف السيئة فأعلنوا حركتهم .

ولعل ما ذكرته زوجة جاويدان حيث اعلنت زئاسة بابك للحركة خير مؤشر على طبيعة الحركة واهميتها وطموحاتها. فقد قالت للاتباع على لسان جاويدان (وصيته):

«ان بابك سيبلغ بنفسه وبكم امرا لم يبلغه احد ولا يبلغه بعده احد وانه يملك الارض ويقتل الجبابرة ،ويرد المزدكية ويعز ذليلكم ويرتفع به وضيعكم».

فالبابكية تريد عودة المزدكية او مذهب قريب الشبه منها ومتطور عنها، وتؤمن بالحلول ،ومعنى ذلك ان بابك اله او حلت فيه روح الالهة ،ثم التناسخ ،ذلك ان روح جاويدان دخلت في بدن بابك، وكذلك الرجعة وانتظار المنقذ الذي سيحقق لهم الاهداف التي يرتضونها، الدينية منها والسياسية. ويظهر من اقوال العديد من المؤرخين ان البابكية، او جماعة منها، كانت تقول باباحة النساء على الرضا منهن واباحة كل ما يستلذ النفس وينزع اليه الطبع ،وقد اكد ذلك ابن الجوزي في حقبة متأخرة حيث قال «بقي من البابكية جماعة يقال ان لهم ليلة في السنة تجتمع فيها رجالهم ونساؤهم ويطفئون السرج يتناهضون للنساء».

والمعروف عن المزدكية ان مذهبهم اقرب الى الموادعة، ولكن بابك طور الخرمية البابكية فجعلها تؤمن بالمقاومة المسلحة والارهاب، ويشيرابن النديم الى ان بابك:

«احدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم تكن الخرمية تعرف ذلك».

كما اراد البابكية القضاء على نظام التملك المعمول به في تلك الحقبة، فكانوا يحرضون الفلاحين على قتل اسيادهم من ملاك الارض ونهب اموالهم ، ولعل هذا هو الذي دفع بارتولد للقول إن النزاع يخفي تحته مسألة الارض.

ومهما كانت نسبة تصديقنا اوشكنا باراء البابكية كما صورها المؤرخون وكتاب الفرق المسلمين،فاننا لا يمكن ان ننزلق في خيال خصب يبني على تصور سابق اساسا في التفسير، فننظر الى البابكية بمنظار القرن العشرين، ونعدها «حركة تحررية» بل «انتفاضة» شعب ضد الاحتلال العربي !! وان البابكية حركة سعت الى تحقيق المساواة وتعميم الاستفادة من المنافع العامة وتحرير المرأة !! ان هذا التفسير الذي يغالي في المحاباة لا يختلف في شئ عن التفسير الذي يغالي في العداء ،فكلاهما يشوه حقيقة البابكية.

واذا كان المؤرخون متفقين على أن البابكية الخرمية هي مزدكية جديدة او متطورة فأن عقيدتها تشابه الى حد كبير العقيدة المزدكية في النواحي الدينية والاجتماعية الاقتصادية، على ان بابك كان شخصا طموحا وذا قابليات كبيرة، ولذلك اعطى للبابكية لونا جديدا هو المجابهة المسلحة بدل المقاومة السلبية التي كانت تتصف بها المزدكية. (راجع الفصل الثالث عن عقيدة المزدكية)، ان المقاومة المسلحة جعلت من البابكية حركة مسلحة معادية للسلطة العباسية وعلى صدام معها ،وهنا كان لابد ان تتضح مبادئها الدينية وتتبلور بصورة اكثر ،وكذلك كان لابد ان تتضح اهدافها السياسية.

ويظهر من سلوك الحركة البابكية وتحالفها مع الامراء الاقطاعيين المعادين للحكم العربي الاسلامي وللسلطة العربية وتحالفها مع البيزنطيين اعداء الاسلام القدماء، وكذلك من ان البابكية كانت تسعى لنشر مذهبها باعتباره بديلا للاسلام، و توسيع سلطتها السياسية لتحل محل السلطة العباسية. ويظهر من وصية جاويدان المذكورة آنفا ،ان الهدف السياسي القضاء على «الجبابرة» العباسيين واحياء المزدكية. وتشير روايات عديدة الى ان هذا الهدف السياسي هو القضاء على سلطان العباسيين ،ولكننا نكتفي هنا بايراد قول المسعودي بعد ذكره لقتل بابك وارسال رأسه الى خرسان:

«.... لما كان في نفوس الناس من استفحال امره ... واشرافه على ازالة ملك وقلب ملة وتبديلها».

ولاشك في أن عداءهم للاسلام لم يكن بالضرورة ناجما عن كونه دينا يخالف دياناتهم القديمة ولكن لانه كان يمثل سلطان العرب الذي يقيمه العباسيون في هذه المناطق ،ذلك لان الاسلام والعروبة كانا خلال هذه الحقبة المبكرة صنوان لا يفترقان، فالعروبة الاسلام والاسلام العروبة. كما الاسلام كان يعني مجموعة من القيم والمثل التي جاء بها العرب الى هذه الاقاليم. وكلما زاد سلطان العرب والاسلام، زاد كره الخرمية للسيادة العباسية.

بدأت سيرة بابك الخرمي السياسية سنة ٢٠٠هـ وانتهت بقتله سنة ٢٢٢هـ / ٨٣٧م وخلال هذه المدة الطويلة كان بابك ناجحا في مشاريعه السياسيه والعسكريه واستمر هذا النجاح السنتين الاخيرتين حيث جرب مرارة الخسارة والاندحار ثم الاسر والقتل.

وقد استمد بابك في جذب الاتباع على الاغراء بالامال والوعود، وعلى التهديد والارهاب، فقد زرع الرعب في انحاء عديدة من اذربيجان والجبال، وامر اتباعه الخرمية بعد ان فرقهم في اماكن عديدة بين سكان القرى بقتل المسلمين والاجهاز عليهم دون تفريق بين العرب والموالي، وبين الرجل والمرأة والصبي، فازداد الرعب بين السكان الذين لم يعرفوا دوافع هذه الجرائم ولا الايدي التي تقوم بها. ونتيجة لذلك دخل العديد في حركته رهبة منه، ودخل اخرون رغبة في السلب والنهب والغنائم والسلطان .وقد امتدت منطقة نفوذه وشملت البذ التي جعلها مركزا لحركته.

عين الخليفة المأمون يحيى بن معاذ بن مسلم واليا على ارمينية، وامره بالقضاء على حركة بابك الخرمي وقد بدأ يحيى الهجوم فعلا سنة ٢٠٤هـ ثم عين المأمون اميرا جديدا للحرب هو عيسى بن محمد الذي وصل الى اذربيجان وانضم اليه بعض امراء اذربيجان المحليين، ولكن جهوده باءت بالفشل، كما ان جهود قواد اخرين وعلى رأسهم محمد بن حميد الطائي الطوسي لم تثمر، بل ان هذا الاخير قتل بعد اندحار جيشه في معركة طاحنة مع بابك الخرمي سنة ٢١٤هـ/سنة ٨٢٩م.

توسعت حركة بابك فشملت اضافة الى اذربيجان اقليم الجبال وجزءا من ارمينية فاستقر رأي المأمون على ان يرسل عجيف بن عنبسة لقتال بابك، كما ان المأمون نفسه قاد الجهاد ضد

البيزنطيين ليتحرى بنفسه عن الوضع العسكري والسياسي الخطير في هذه المنطقة .ذلك ان الامير البيزنطي ميشيل الثاني بدأ جادا في مساعدة بابك الخرمي بالمال والسلاح والرجال، كما سمح لاتباع بابك بالاستفادة من الاراضي البيزنطية ملجأ لهم اثناء ضغط الجيش العباسي. والواقع ان الخليفة المأمون استغل كذلك ثورة توماس الصقلبي واعانه بمتطوعين عرب ليبث سيطرته على اسيا الصغرى ويشير المؤرخ فازيليف:

« اننا نلاحظ حلفا حقيقيا بين توماس والعرب، فلم يكن وجود الفرق العربية في جيش توماس اتفاقا اعتباطيا، ولم يكن دخولهم فيه رغبة في السلب والغنيمة، وانما كان المأمون متبعا خطة دقيقة التحديد عدائية للروم».

ويظهر من المصادر البيزنطية وبعض المصادر السريانية مثل تاريخ ميشيل السوري أن اتفاقا كان قد عقد بين الخليفة وتوماس، اعترف الأول بموجبه بتوماس امبراطورا على الروم، وان يعضده حتى ينحي خصمه عن العرش، ووافقه الثاني على تسليم مناطق حدودية معينة وان يدفع ضريبة سنوية. وقد توج توماس الثائر على يد بطريرك انطاكية.

ولكن توماس وان كان قد كسب قوة مادية كبيرة بتحالفه مع المسلمين فان انصار المذهب الارثوذكسي الذين ايدوه اول الامر باعتباره حامي الصور (الايقونات) ابتعدوا عنه بعد ذلك لتحالفه مع المسلمين (الكفار في نظرهم). ولم تدم ثورة توماس طويلا بل انخذها انصار الامبراطور واسروا توماس وسلموه الى ميشيل الثاني سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣م فقتله.

وكان لحركة توماس اثارها في الخلافة والبيزنطيين معا، فبالنسبة للروم خربت هذه الحركة اقاليم الامبراطورية وافقرتها اقتصاديا ،وزادت من نفوذ الملاكين الكبار الذين اثروا على حساب جيرانهم الصغار الذين باعوا الارض بسبب افلاسهم .وقد استغل عرب الاندلس وافريقية انشغال البيزنطيين ففتحوا جزيرتي كريت وصقلية. اما الخلافة العباسية فقد خاب املها بعد فشل حركة توماس، على ان المأمون اوصى أخاه المعتصم في اواخر ايامه وصية مهمة ضمنها تجاربه السياسية جاء فيها:

«وانظر هؤلاء القوم الذين انت بساحتهم (يعني البيزنطيين) ولاتغفل عنهم في كل وقت .والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة ،واكنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من انصارك واوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه».

ولعلنا نلاحظ الربط بين الحرب مع البيزنطيين وبين استمرار الكفاح ضد الخرمية واضحا جدا ذلك ان الامبراطور البيزنطي لم يدخر وسعا في مساعدة الخرمية وحمايتهم، فقد كانت ارمينية واذربيجان مسرحا لنشاط بابك الخرمي، ولذلك تداخلت هذه الحركة بالعلاقات السياسية العباسية ــ البيزنطية فقد تفاوض بابك الخرمي مع توفيل الامبراطور البيزنطي. ووافق الامبراطور

على لجوء اعداد كبيرة من الخرمية الى ارض الروم، فأعدتهم الدولة البيزنطية وسلحتهم من اجل مهاجمة الجيش العباسي.

وكان على الخليفة المعتصم وقد جاء للحكم سنة ٢١٨هـ ان يواجه الحركة البابكية وحليفها الامبراطور البيزنطي، فأرسل سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م حملة قوية بقيادة الافشين حيدر بن كاوس، ثم وجه محمد بن يوسف الى اردبيل وامره «ان يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان واردبيل ويجعل فيها الرجال مسالك لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة الى اردبيل».

واستطاع محمد بن يوسف ان يلحق اول هزيمة بسرية خرمية ،وارسل رؤوس القتلى الى الخليفة. وكان الافشين لا يقتل جواسيس بابك الخرمي بل يكسبهم اليه ويغريهم ليعملوا لحسابه .كما ان محمد بن البعيث ترك بابك الخرمي والتحق بجيش العباسيين.

على ان الحرب لم تكن سهلة ذلك أن البابكية كانوا يتمركزون في الجبال الشاهقة ولهم معرفة كبيرة بالمسالك، وكانوا يستخدمون الكمائن ويغيرون ليلا «البيات» ووضعوا عوائق امام جيش العباسيين النظامي ،منها: الحفر الواسعة ومهاجمة الميرة والتموين بصورة مستمرة. ولكن الافشين كان لا يمد قدما دون ان يثبت الاولى ،فأطال امد الحرب، واختار مواقع حصينة وشدد الحراسة على الطرق. ثم دفع بجيشه نحو (البذ) فاندحر جيش بابك فعرض عليه الافشين الأمان ،ولكن بابك فر مع نفر من اتباعه باتجاه ارمينية، وكان ذلك سنة ٢٢٢هـ/ سنة ٨٣٧م.

حين وصل بابك الخرمي ارمينية التقاه سهل بن سنباط الارمني احد امراء ارمينية وصاحب قلعة شاكي. وقد استطاع سهل بن سنباط ان يتصل بالافشين ويعلمه بوجود بابك عنده حيث عجل الافشين بالقاء القبض عليه اسيرا . ثم ارسله الى المعتصم في سامراء حيث امر الخليفة بأن يستعرض بابك في الشوارع راكبا على فيل ثم اعدم في اليوم نفسه، ثم علق جسده في سامراء .اما رأسه فقد ارسل الى بغداد وعلق الرأس مع اخيه عبد الله الذي اعدم في الرصافة وصلبت على رأس الجسر.

ويعزى ميشيل فشل هذه الحركة الى عوامل عديدة ،منها:ـــ

١ ـــ اهتمام الخليفة المعتصم وتركيز جهوده للقضاء عليها واستخدام اساليب متنوعة في الحرب ، منها: المماطلة، والتطويل والكمائن والدوريات. ولاشك في أن القائد الافشين ادى دورا مهما في تنفيذ هذه الخطط. والى ذلك يشير الدينوري حين يقول: «لم تكن همته (المعتصم) غير بابك)!!.

٢ ـــ نجاح السلطة المركزية في استمالة بعض حلفاء بابك الخرمي، مثل: محمد بن البعيث وامراء ارمينيا وعلى رأسهم سهل بن سنباط. هذا اضافة الى الجواسيس الذي جذبهم الافشين واستخدمهم للتجسس على بابك بدلا من التجسس له.

٣ ـ فشل الحركة البابكية في جذب جماهير الفلاحين اليها، ذلك ان العديد من فلاحي اذربيجان والجبال فترت عزائمهم عن مساندة البابكية، حتى اولئك الذين انضموا بداوا يتراجعون بصورة تدريجية ويلتجئون الى القوات العباسية.

٤ ـ العنف والقسوة والنهب الذي صاحب الحركة منذ بدئها ويعزو الكثير من المؤرخين هذه القسوة الشديدة الى بابك نفسه، بينما يعزوها الدكتور حسين العزيز الى كثرة من انضم اليه من اللصوص وقطاع الطرق واصحاب الفتن !!

٥ ـ تضارب مصالح الفئات المختلفة التي انضوت تحت راية البابكية، فقد ضمت الحركة اجناسا مختلفة من اذربيجانيين وارمن واكراد وايرانيين، حتى بعض العرب المعارضين للسلطة. كما ضمت الروم الذين ساعدوا بابك في حركته. وكان في معية بابك فئات من الفلاحين وامراء الاقطاع والامراء المحليين، ولاشك في أن مصالح هؤلاء متضاربة وقلما تلتقي على هدف واحد.

في أعقاب الحركة البابكية:

بسبب ظروف الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون مال المأمون الى سكان الاقاليم الشرقية واعتمد على نسبة لابأس بها من الاعاجم في حربه ضد اخيه الأمين. وحين جاء المعتصم بعد المأمون أثر الترك على انصار الدولة من العرب وأمر بعض ولاة الاقاليم باسقاط الجند العربي من ديوان العطاء. إن هذه الأجراءات اوهنت، دون شك من العرب سندا عسكريا مهما للدولة العباسية. كما انها تعد خروجا على سياسة العباسيين التقليدية في مطالع عصرهم بالاعتماد على العرب بالدرجة الاولى، وكان لها ردود فعل سياسية عديدة.

ولكن الاهم من ذلك أن تصدع قوة العرب أدت الى استفحال التحركات العنصرية الفارسية والمجوسية ومحاولتها توحيد خططها ضد الوجود العربي الاسلامي في ايران. ولاعجب ان يشهد عصر المأمون والمعتصم ثلاث حركات من اخطر الحركات الفارسية المجوسية في مطالع العصر العباسي الا وهي: حركة بابك الخرمي وحركة المازيار ومؤامرة الافشين.

اما المازيار فهو أمير طبرستان حيث اعترف به المأمون واليا على شروين احدى مناطق طبرستان التي تولاها من سنة ١٩٤/سنة ٨٠٩ حتى أسره سنة ٢٢٤هـ /سنة ٨٣٩م . وقاد خلال هذه المدة تمردين ضد الخلافة العباسية حيث رفض الأعتراف بالسلطة العربية سياسيا وبالاسلام عقيدة وحين أسر في المرة الاولى تظاهر بالاسلام وسمى نفسه محمدا. فأعيد الى ولايته وجعل المأمون اتصاله بالخلافة مباشرة دون أن يتبع ولاة خراسان ومع ذلك دأب المازيار ينظم اتباعه المخلصين للمجوسية والعاملين ضد العرب والمعرقلين لانتشار الاسلام. اما الافشين فهو احد كبار قواد جيش المعتصم وكان ايرانيا في الاصل ينتسب الى ملوك الفرس القدماء وكان اجداده امراء منطقة اشروسنة.

لقد حاول المازيار اصبهبذ طبرستان ، وبابك الخرمي المتمرد في اذربيجان، والافشين امير اشروسنة واحد قادة المعتصم ان ينسقوا للتخلص من الحكم العربي ، ولكن الحلف الثلاثي غير المقدس بينهم لم يثمر رغم انه اكد الميول الانفصالية لبعض الاقاليم في بلاد فارس كما ان فشلهم يدل على ان العرب كانوا لايزالون قوة ضاربة مهمة وان الخلافة قوية متماسكة.

حركة المازيار:

حركة المازيار ذات بعدين: الأول سياسي يهدف الى انفصال طبرستان عن الخلافة العباسية وابعاد النفوذ العربي عنها. اما الثاني فديني يهدف الى اقرار المجوسية الثنوية بدل الاسلام. فلقد كان المازيار يبطن المزدكية (الخرمية) كما يتفق على ذلك مؤرخونا الرواد وكتاب الفرق. يقول البلاذري ان المازيار كفر وغدر. ويرى الطبري ان المازيار عرض على بابك الخرمي المتمرد على الخلافة العباسية المساعدة والدعم. وانه اتفق من جهة اخرى مع القائد الفارسي الافشين على احياء «مذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس». لقد كانت علاقة المازيار بالطاهريين ولاة خراسان علاقة سيئة حيث امتنع المازيار من دفع الخراج لهم ولم يرضى ان يكون تابعا لهم رغم أن هذه التبعية كانت اسمية فقط. وكان القائد الأفشين يطمع في ان يكون واليا على خراسان بدل الطاهريين فشجع المازيار على اثارة الاضطرابات ضدهم. وبمعنى أخر فان كلا من المازيار والافشين استغل عداء صاحبه للطاهريين لينفذ خططه وطموحاته الشخصية !!.

على ان المعتصم كاتب المازيار وامره بالكف عن اجراءاته والحضور الى مقر الخلافة فامتنع المازيار ورأى المعتصم ذلك تمردا على الدولة. وبالفعل هاجم المازيار القرى العربية وأمر بقتل العرب والابناء:

«فأقتلوهم لتأمنوا ولا يكون في عسكركم من يخالف هواه هواكم»

ومن جهة اخرى اشتد الخلاف بين المازيار وعبد الله بن طاهر أمير خراسان وقطع عنه اموال الخراج «حتى تفاقم الأمر بينهم».

وبدأ المازيار بتنفيذ خططه العنصرية ــ المجوسية حين بدأ يسيئ الى العرب في طبرستان فقد قتل عامله على ساري ٢٦٠ من الابناء العرب باعتبارهم خطرين على السلامة العامة للاقليم(٩). ثم اثار الفلاحين على ارباب الضياع وغالبيتهم اما من العرب او الموالي المؤيدين للعرب حيث قال لهم:

«اني قد ابحتكم منازل ارباب الضياع وحرمهم .. فاقتلوهم جميعا ثم حوزوا ماوهبت لكم من المنازل والحرم»

وهكذا كشف المازيار عن عداءه للعرب وعن تأييده لمبادئ الخرمية، كما هاجم المازيار الخليفة وخطب في اهل المدن يستحثهم على تأييده بالمال والرجال ضد الخليفة الذي على حد قول المازيار لايكترث بهم ولايبعث من يسأل فيهم !!

تعاون المعتصم وعبد الله بن طاهر على القضاء على تمرد المازيار حيث ارسلا جيشا من العراق وخراسان لمجابهة المازيار. وقد استطاعت هذه الجيوش اضافة الى تصدع الجبهة الداخلية نتيجة الخلاف بين عائلة الاصبهذ حيث استطاع العباسيون كسب ابن اخي المازيار قارن بن شهريار، ثم نجحوا بعد مدة في كسب ابن عمه قوهيار. وهاجمت الجيوش العباسية طبرستان من ناحيتين ولم يجد المازيار مجالا آخر غير الاستسلام.

ارسل عبد الله بن طاهر المازيار والمراسلات التي وجدت بحوزته مع القائد الافشين الى سامراء. وتشير هذه المراسلات الى اتفاق الافشين مع المازيار على قلب الحكم واحياء المجوسية. وقد أمر المعتصم بضربه ٤٠٠ سوط فمات منها وصلب بجنب بابك الخرمي سنة ٢٢٤هـ وفي رواية اخرى انه مات في السجن سنة ٢٢٦هـ ثم صلب وأحرق.

مؤامرة الافشين:

كان القائد الافشين من اقليم اشروسنة من بلاد ماوراء النهر وثق به الخليفة المعتصم واشركه في حملاته ضد البيزنطيين، كما قاد الجيش العباسي ضد بابك الخرمي رغم انه تباطأ في الهجوم النهائي عليه.

لقد بدأت نوايا الافشين الحقيقية بالظهور اثر نهاية حركة بابك الخرمي حيث جمع اموال بابك وارسلها الى اشروسنه موطنه الاصلي وقد اخبر عبد الله بن طاهر الخليفة المعتصم بذلك فأمره بمراقبة الوضع(١٤). ثم انكشفت بعد ذلك اتصالاته بحركة المازيار وتحريضه على التمرد ضد الطاهريين والعباسيين وخاصة بعد اعتقال المازيار حيث سلم هذا الاخير رسائل الافشين السرية(١٥) الى السلطة السلطة العباسية !! وحين شعر الافشين بتأزم الوضع وتغير المعتصم تجاهه حاول الهرب ولكن المعتصم لم يمكنه من ذلك بل اعتقله ثم قدمه للمحاكمة بتهمة الخيانة وهو احد المسؤولين الكبار في الدولة.

تألفت المحكمة من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي احمد بن ابي دؤاد واسحق بن ابراهيم وحضر شهود اثبات منهم المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان احد ملوك الصغد وآخرون. وأمر المعتصم باحضار وجوه القوم واصحاب المراتب الى قاعة المحكمة للاستماع.

ويبدو ان الهدف من المحاكمة ابراز موقف الافشين المعادي للعروبة والاسلام وتمجيده بالمجوسية رغم تظاهره بالاسلام. وليس هناك اختلاف بين العروبة والاسلام في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الاسلام فهما صنوان متلازمان ومن يعادي العروبة يعادي الاسلام والعكس صحيح.

ومهما يكن من أمر فان الشواهد التي اثبتت مجوسيته هي: احتفاظه بالكتب المجوسية المزينة بالديباج والمذاهبة وجلده لأمام في اشروسنة لبنائه مسجدا فيها. واتباعه الشعائر الدينية المجوسية واطله للمخنوقه وسماحه لاتباعه بمخاطبته «الي اله الاله من عبده فلان» وعدم اختتانه. وحثه المازيار على التمرد لنصرة الدين الابيض (المجوسية). وفي اثناء مناقشته للموبذ اعترف الافشين بانه

وثق بالموبذ وتبه اسراره وميله للأعجمية !!

اما كراهيته للعرب والعروبة فتبدو واضحة من الرسالة الموجهة الى المازيار حيث يعد العرب اعداءه فيقول:

«انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك. فاما بابك فانه تجمعه قتل نفسه ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت فأبى جمعه الا ان ولاه فيما وقع فيه. فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان واهل النجدة والبأس فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة:

العرب والمغاربة والترك. والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كرة واضرب رأسه بالدبوس، وهؤلاء الذباب — المغاربة انما هم أكله رأس. واولاه الشياطين — الترك — فانما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول عليهم الخيل جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى مالم يزل عليه ايام العجم !!»

وتؤكد روايات اخرى ان الافشين لم تتظاهر بالاسلام ويخدم الدولة العباسية الا للوصول للغايات التي يرجوها من ارجاع للسلطان الفارسي والدين المجوسي حيث يقول:

«اني قد دخلت هؤلاء القوم اي العرب في كل شئ اكرهه حتى اكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم تسقط عن شعره»

ومعنى ذلك انه لازال يحتفظ بتقاليد المجوسية وشعائرها !!

ويؤكد ابن خلدون(١٧) في رواية تاريخية شده كرهه للعرب فقد كان الافشين يكره القائد العربي أبا دلف العجلي «للعربية والشجاعة» التي كان يتمتع بها العجلي !! وقد اصدر القاضي احمد بن ابي داود حكمه بسجن الافشين وأمر بغا التركي بتنفيذ الأمر. فعلق الافشين «قد كنت اتوقع هذا منكم قبل اليوم».

ان المؤامرة التي حاكها ونفذها كل من المازيار والافشين كانت ذات وجهة فارسية واضحة اذ جعل كل منهما نفسه داعية لازالة السلطة العربية في ايران وانهاء الثقافة العربية الاسلامية واحلال الارث الحضاري الايراني والمجوسية الفارسية. واذا كانت مؤامرات البلاط والتنافس بين التكتلات السياسية المختلفة قد بالغت او دست او هوّلت في بعض الاحداث او الاتجاهات فان الحقيقة تبقى واضحة وهي ان بلاد فارس في مطالع العصر العباسي قد حفلت بحركات متتالية عديدة تنبي عن شدة حقد على العرب وسعي حثيث لاستعادة المجوسية وسلطان الفرس الزائل كما هو بين من طموحات المازيار والافشين وبابك الخرمي بل من الحركات التي سبقتهم كالمقنع وسنباد وبهافريد كذلك.

على ان فشل هذه الحركات يدل دلالة واضحة على ان السلطة العربية كانت لاتزال قوية متماسكة، وعلى قوة العقيدة الاسلامية مقارنة بالديانات المجوسية البائسة التي حاول المتمردون احياءها.ويتضح أن ليس هناك كبير فرق بين الحركات الخرمية التي قادها سنباذ والمقنع وبابك او بين التمرد المسلح الذي قاده المازيار.

وبعد ... ونحن نتكلم عن فئات معينة من الفرس إنخرطت في الحركات الهدامة واعتقدت بها وسيلة وهدفا لتحطيم الصرح الحضاري الذي شيده العرب المسلمون لابد أن نقول إن فئات اخرى في المجتمع الاسلامي في بلاد فارس او من الموالي الفرس في العراق وغيره لم تنجرف وراء الشعوبية او غيرها من الدعوات المشككة ولنتذكر سلسلة من المفكرين والمثقفين من الموالي الفرس التي اخلصت للعروبة والاسلام فكرا وولاءا وانتظمت داخل المجتمع العربي الاسلامي وشاركت في بناء حضارته بفاعلية وايجابية متميزة ... وهذه السلسلة تضم من جملة من تضم الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة وابو حيان التوحيدي والثعالبي والبيروني وغيرهم وهم في الدفاع عن المثل والقيم العربية الاسلامية في المجتمع الجديد اكثر من مقولة وكتاب.

كيف ننسى نقد الجاحظ اللاذع للشعوبيه وكشفه لمخططاتهم ورده على تهمهم للعرب. وكلنا يتذكر قول الجاحظ في ابراز بخل الفرس مقابل كرم العرب حين يقول ان الديكه في الارض تقدم الحب للدجاج قال ان تلتقطه هي الا في خراسان حيث تلتقط الديكة الحب قبل الدجاج !!

ويرد ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) على الشعوبية التي تعير العرب بأكل الوضيع من الحيوان فيقول «اما تعييرهم اياهم خبيث المطعم ... فان هذا وامثاله متعلق بنازلة الفقر والضرورات ... وانما يكون عيبا لو كانت العرب مختارة له في حالة اليسر» وينقل ابن قتيبة حديثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسي. قال رسول الله (ص) ياسلمان لاتبغضني فتفارق دينك. قال قلت: يارسول الله كيف ابغضك وبك هداني الله؟ قال : لاتبغض العرب فتبغضني.

ويدين ابن قتيبة الشعوبية المتغطرسة ويرى ان عداءها مصدره الجهل والتعالي ويقول:

« فلا يمنعني نسبي في العجم ان ادفعها عما تدعيه لها جهلتها واثني اعنتها عما تقدم اليها سفلتها ... وارجو الا يطلع ذوو العقول واهل النظر مني على ايثار هوى ولا تعمد تمويه»

ويقول في مكان أخر:

«أعاذنا الله من فتنه العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبيه فانها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بهم كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبهت بالكذب وتكابر العيان وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف وتغض من النبي (ص) اذا ذكر بالشجى وتعترف منه على القذى وتبعد عنه بقدر بعدها عمن قرب واصطفى».

وهذا البيروني من الموالي الفرس ايضا (ت ٤٤٠هـ) كان فكره ومنهجه العلمي على الخط الموالي للعروبة والاسلام .وقد انتقد سياسة الديلمة العجم وتفضرسهم رغم ان السلطة كانت لاتزال بايدي البويهيين الديلم فقال قولته المشهورة على كل لسان:

«ديننا والدولة عربيان توأمان ترفرف على احدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية. وكم احتشد طوائف من التوابع خاصة منهم الجيل والديلم في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم يتفق لهم في المراد سوق ...»

ولعل هذه الأمثلة الثلاثة في حقب متتابعه تعطينا فكرة عن استمرار النزعة الشعوبية المعادية للعرب وعلى نجاح العرب ومن والاهم من المسلمين من الفرس وغيرهم في الرد عليها واحتوائها ثم القضاء عليها.



المبحث الثاني:

حركات الخوارج في بلاد فارس

المعروف عن الحركة الخارجية انها من اشد الحركات المناهضة للخلافة الاموية. وكانت هذه الحركة تقيم مذهبها على اسس من العقيدة والسياسة في آن واحد. كما اتصف معتنقوها بجرأتهم ومجاهرتهم في عداء مخالفيهم. وكانت دعوتهم تقضي باقامة حكومة نموذجيه تراعي احكام الدين بدقة. على ان النظرية شيّ والتطبيق شيّ أخر حتى في الحركة الخارجية ذاتها والأمثلة التاريخية للدلالة على ذلك ليست بالقليلة. على ان المهم الاشارة الى أن هذه الحركة كانت تعمل في صدر الاسلام حتى نهايات العصر الاموي ضمن اطار العروبة والاسلام. وهي بذلك تشبه الحركة المعارضة الاخرى واعني بها الحركة الشيعية العلوية التي كانت تتصف بالصفة نفسها وخلال المدة نفسها.

ان الرأي السائد لدى جمهرة من مؤرخينا أن الحركة الخارجية كحركة معارضة قد ماتت او ضعفت الى درجة ملحوظة بعد ضربات مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية. الا ان هذا الرأي مبالغ فيه رغم ان له ما يسوغه بسبب قلة المعلومات التاريخية في المصادر التاريخية عن الحركة الخارجية بعد العصر الاموي .ولعل سبب قلة المعلومات عن الخوارج في العصر العباسي يعود الى ظهور الحركة في اقاليم غير مركزية وبعيدة مثل عمان واليمن وافريقيا واقاليم بلاد فارس مثل سجستان وخراسان وأرمينية. وبطبيعة الحال فإن المؤرخين لم يهتموا بالأقاليم البعيدة قدر اهتمامهم بالاقاليم المركزية. على اننا لو تصفحنا كتب التاريخ المحلي لوجدنا معلومات جيدة عن الخوارج تدحض الفرضية المذكورة آنفا.

حركة شيبان الحروري:

إستطاع مروان بن محمد الأموي ان يحقق نجاحات مهمة ضد الخوارج مما اضطرهم الى الانسحاب الى اقاليم مثل عمان والأحواز واليمن وبلاد فارس. والذي يهمنا في هذا المجال بلاد فارس التي التجأ اليها شيبان بن سلمة الحروري مع اتباعه من ربيعة. وقد انضم في بادئ الأمر الى حركة عبد الله بن معاوية العلوي في فارس. وبعد فشل الأخير ومقتله انسحب شيبان الحروري الى سجستان ثم الى خراسان حيث انضم الى الدعوة العباسية. ولكن الحركة العباسية شيّ والحركة الخارجية شيّ آخر ولهذا ما ان حقق العباسيون اولى انتصاراتهم في خراسان حتى انقضوا في هجوم خاطف على شيبان الحروري وانهوا حركته وقتلوا اتباعه وافلت بعضهم بجلده.

ولكن الحركة الخارجية لم تنته في بلاد فارس .وقد نظر الخوارج الى العباسيين مثل نظرتهم الى الامويين باعتبارهم مغتصبين للخلافة التي يجب ان تكون ذات صفة انتخابية شورية يتقلدها اجلو المسلمين بغض النظر عن نسبه او جنسه. ولم تكد تنقضي سنة واحدة على قيام الخلافة العباسية حتى انتفض الخوارج في اقاليم متعددة. على اننا سنحصر كلامنا على حركات الخوارج في بلاد فارس.

حركة مسافر الشيباني:

فقد ثار مسافر الشيباني في عهد ابي العباس في اذربيجان وأرمينية وارسلت الخلافة من حاربه وقتله فتشتت اتباعه الى جهات سجستان جنوبي بلاد فارس .

خوارج سجستان:

وفي أواخر عصر المنصور انتفض الخوارج في سجستان وكرمان وفارس وتخوم خراسان وارسل المنصور معن بن زائدة الشيباني ليقمع الحركة ويعيد الاستقرار ونجح هذا الوالي في تحقيق ذلك ولكنه اغتيل في سجستان على يد الخوارج. وقاد عامر الشيباني حركة خارجية جديدة في سجستان مع ألف من اتباعه. ولكن السلطة العباسية في عهد المنصور طوقته وقتله . ولكن ذلك لم يفت في عضد الحركة الخارجية التي استفحلت وامتدت الى خراسان فانتشرت في باذغيس وهراة وبوشانج.

ومن المهم جدا ان نشير قبل ان نستمر في الاستطراد عن الحركة الخارجية في بلاد فارس إن الخوارج في فارس وسجستان وخراسان في نهاية عصر الامويين وبداية عصر العباسيين كانوا في غالبيتهم من العرب الذين طردوا من العراق والجزيرة الفراتية بسبب ضغط مروان بن محمد عليهم. ولهذا فالحركة الخارجية كانت غريبة عن بلاد فارس ... ولكن وبسبب مذهبها في الخلافة المبني نظريا على الأقل على اساس الانتخاب وتساوي المسلمين في حق الترشيح للخلافة اولا وبسبب كونها حركة معارضة ضد العباسيين ثانيا وبسبب امكانية استغلالها من عناصر فارسية مجوسية من الممكن ان تتظاهر بالدخول فيها وتحركها في اتجاهات تخدم المصالح الفارسية المعادية للسلطة العباسية المركزية ثالثا فإن هذه الحركة بدأت تكسب اعدادا من الموالي الفرس الى جانبها مدفوعين بدوافع متباينة تختلف من فئة الى اخرى.

ولعل مما يعزز الدافع الثالث وهو إستغلال حركة الخوارج لتحقيق آمال وتطلعات فارسية ومجوسية مكبوته ان المبادئ الخارجية وجدت صدى لها في اقاليم ايرانية محافظة لايزال سكانها اغلبهم حتى ذلك العهد محتفظين بتقاليدهم وعقائدهم الزرادشتية او المجوسية القديمة .. ولذا نلاحظ مثلا أن سجستان . وهي اقليم ترعرعت فيه المبادئ الخارجية . كانت من الاقاليم الفارسية التي عارضت الفتح العربي الاسلامي واستمرت على انغلاقها وتحفظها خلال العصرين الاموي والعباسي. وتشير الروايات التاريخية ان العديد من بيوت النار الزرادشتية كانت لاتزال موجودة في سجستان والتخوم المجاورة لها.

وهكذا فإن مذهب الخوارج كان مذهبا واضحا حين عمل في الأرض العربية وكان غالبية اتباعه من العرب ولم يخرج ـ مذهب معارضة ـ خارج اطار العروبة والاسلام . ولكن ماان تعدى الأرض العربية ودخلته عناصر من الموالي الفرس او من العجم غير المسلمين الذين ارادوا التستر وراءه بوصفه حركة معارضة لضرب الخلافة العربية الاسلامية ،انحرف ودخل في متاهات مجوسية وشعوبية ليس لها اي صلة بفكر الخوارج العربي الاسلامي الأصيل. في الوقت الذي كان فيه هذا الفكر الخارجي النقي لايزال محافظا على اصالته واطاره العربي الاسلامي في الجهة المقابلة لفارس وسجستان من الخليج العربي وأقصد بها عمان حيث ازدهرت الحركة الخارجية الأباضية. والي هذا يشير مؤرخ حديث بقوله:

« وقد اثبتت الحوادث ان التخلي عن عروبة الفكر في بلد زرادشت وماني ومزدك، قد اوقع الخوارج في متاهٍ عميق ادى الى تشتيت قواهم وبعثرة جموعهم في خراسان»

لقد استمرت الحركات الخارجية في بلاد فارس حيث تحرك يوسف بن ابراهيم البرم سنة ١٦٠هـ ٧٧٦م في خراسان واحتل بوشنج ومرو الروذ والطالقان ثم وصل الى جرجان . ورفع شعار «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وانتصر على عدد من القادة الذين تصدوا له مما اضطر الخليفة المهدي الى ارسال يزيد بن مزيد الشيباني لقمع الحركة فوجه لهم ضربات مميتة حيث أسر البرم وأرسل الى بغداد.

وقد حاول بعض الخوارج ان يثأروا لقتلاهم من يزيد الشيباني فتسللوا الى بغداد وهاجموا يزيدا على الجسر وجرت مواجهة عنيفة سقط فيها عدد من القتلى من الطرفين ولكن القائد يزيد افلت من الموت بأعجوبة. وتشير رواية تاريخية الى ان هذه اول مرة يدخل فيها الخوارج بغداد ويقتلوا عددا من سكانها !!

وفي سنة ١٧٩هـ / سنة ٧٩٥م ثار حمزه بن عبد الله الشاري واعلن نفسه امير المؤمنين سنة ١٨١هـ واستمرت حركته دون ان تتمكن السلطة من قمعها حيث سيطر حمزة على اقليم سجستان. ويظهر صاحب تاريخ سيستان المكتوب بالفارسية عطفا وتوددا تجاه حركة حمزة وتجاوبا معها ضد السلطة العباسية .ويحتوي الكتاب على مادة مفيدة عن تفسير الحركة واحداثها

حتى اضمحلالها وتلاشيها. وتشترك هذه الحركة مع اغلب الحركات الخارجية في هذه المدة باعتمادها على شخصية زعيمها، فما ان يقتل الزعيم حتى يتفرق الاتباع الى ان يظهر قائد جديد يجمع الشمل ويوحد الكلمة في انتفاضة جديدة. ولاشك في أن حركة حمزة الشاري في سجستان ضمت اليها اضافة الى الخوارج الكثير من المتذمرين من السياسة العباسية، فهي كالحركات الدينية – السياسية التي ظهرت قبلها وبعدها في ايران، رفعت شعارات مختلفة، منها عقائدية، ومنها اقليمية، ومنها مصلحية لتجذب اكبر عدد من الاتباع. وبمعنى اخر فان الحركة اضافة الى صبغتها الخارجية عبرت عن مشاعر ومصالح اهل سجستان. وحين احس الرشيد باستفحال الحركة واعلان حمزة الشاري نفسه اميرا للمؤمنين، كتب اليه رسالة يدعوه الى التوبة والعودة الى الجماعة قال فيها:

«... وامير المؤمنين يدعوك الى كتاب الله وسنة رسوله ويحثك على طاعته وينهاك عن معصيته. وقد عرف امير المؤمنين الذي كان بينك وبين عماله في خراسان وسجستان وفارس وكرمان من المحاربة وسفك الدماء، فأحب النظر لك ولاصحابك فيما فيه صلاحكم وجمع كلمتكم، ورد الفتكم وادخال السلامة والعافية والطمأنينة عليكم. وخلطكم باخوانكم من المسلمين واعطاؤكم نصيبكم من الفيء والصدقات والحق والعدل. وحقن دمائكم والصفح والعفو والتجاوز عنكم عما سلف من احداثكم وجرائمكم، واهدار مانلتم من دم او مال او غير ذلك في هذه الحروب، تكون بينكم بينكم وبين عماله لما نوى من الاجر والزجر وحسن المثوبة. ولرغبته في صلاحك خاصة واستبقائك وبخلطك بأهل طاعته مايجب من الاحسان اليك والاتصال عليك

وقد قرب من بلادك وترك بعدد منك، ولم يأتك منه كتاب ولا رسول قبل كتابه هذا ورسوله، وقد امنك امير المؤمنين على دمك ومالك وشعرك وبشرك، ووهب لك كل جرم كان، وكل دم اصبته انت او احد من اصحابك، او حدث احدثته، او مال نلته، او صغير او كبير كان منك في هذه الحروب، وصفح عن ذلك لله وحده لاشريك له، فان قبلت امانه وقدمت عليه سامعا مطيعا تائبا الى الله من ذنوبك داخلا في جماعة المسلمين، متمسكا بطاعته وولاة عهده، ولم تعد ولم تنكث ...

فاقبل نصيحة امير المؤمنين ونظره لك ولاصحابك، واعرف ما في ذلك من الحظ والرشد في العاجل واقدم عليه مع رسوله وتأمن بالوفاء لك ولاصحابك والاحسان اليك والافضال عليك.

وان انت لم تقبل امانه ولم تشخص اليه فاردد اليه امانه مع رسوله وعجل سراحه ولا يكونن له من قبلك لبث ان شاء الله...»

وقد رد حمزة الشاري برسالة جوابية رفض فيها عرض الرشيد جملة وتفصيلا.

نظرة تحليلية

ان الاقاليم الشرقية كانت مصدر قلق واضطراب منذ تبوا العباسيون الخلافة وظهرت فيها حركات فارسية وخارجية ،ثم تطورت بعد ذلك الى حركات اقليمية نزعت الى الانفصال عن الخلافة العباسية .والمعروف عن سجستان ،وهي الاقليم الذي ثار فيه حمزة الشاري، انها من الاقاليم المعروفة بتمسك اهلها بتقاليدهم وعقائدهم القديمة، وكانت بيوت النار الزرداشيتية لما تزل في هذه المنطقة في العصر العباسي كما اشرنا الى ذلك من قبل.

وفي دراستنا الرسائل نلاحظ ان الخليفة هارون الرشيد يدعو في رسالته حمزه الخارجي الى كتاب الله وسنة رسوله، وبذلك يعده خارجا على الجماعة الاسلامية. وبعد ان يشير الى حروب حمزة الخارجي ضد الخليفة في سجستان وغيرها، يعده بالامان وباعطائه واصحابه نصيبهم من الفيء والصدقات، وتطبيقه مبادئ الحق والعدل. وهنا لابد من القول إن الخليفة يدرك اسباب التذمر ويتعهد بازالتها. ويعود الخليفة فيؤكد بأغلظ الايمان واشد العهود والمواثيق على صحة الامان الذي اعطاه للثائر حمزة واتباعه .

اما موقف حمزة الخارجي فيعطي صورة واضحة عن الخوارج ورأيهم في الخلافة العباسية، كما انه يعبر عن عقيدتهم وارائهم الدينية ــ السياسية .ففي القسم الاول من الرسالة وهي مقدمتها يعبر حمزة الخارجي تعبيرا دقيقا عن تلك النزعة التي تزمتت في فهم وتفسير النصوص الدينية واكدت على التطهر الروحي والبدني لدرجة ان سماهم البعض «متطهرو الاسلام».

يشير الى رأي الخوارج في الخلافة الاسلامية ،حيث يقول: «فلم يزل الاسلام واهله في زياده من نعماء الله وما افتتح لهم من رحمته خلافة ابي بكر وعمر (رض) وصدرا من خلافة عثمان حتى تعرضت ببهجتها ...»

اما في القسم الثاني من الرسالة فقد اجاب حمزة الخارجي عن رسالة الرشيد نقطة نقطة، وجادله عليها فكرة بعد اخرى، حيث لم يترك حجة جاء بها الخليفة الا رد عليها بحجة مضادة. فهو اولا يسمي نفسه «أمير المؤمنين» ،كما جاء في بداية الرسالة ،اي انه لا يعترف بالرشيد خليفة واماما. وهذه البداية لها اهمية دعائية كبيرة للثائر الخارجي، وهي في الوقت نفسه تعني استحالة الصلح،ورفض حمزة للصلح مع الخليفة،بل رفضه الامان الذي اعطاه اياه.وكيف يقبل حمزة الخارجي هذه الوعود والامتيازات التي اغدقها عليه الخليفة الرشيد في رسالته، وهو يعلم ما حل بيحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي الذي قبل امان الرشيد ووثق به، ثم مالبث ان سجن وقتل ؟؟

ويعلل حمزة الخارجي محاربتهم لعمال الخليفة في خراسان وسجستان بسوء سيرتهم وفسقهم الذي ادى الى تدهور الوضع في الاقاليم الشرقية وهياج العامة. وهكذا يسوغ حمزة الخارجي حركته بأنها كانت نتيجة حتمية لتظلم «اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير»

ذلك الشعار البراق الذي رفعته اغلب الثورات في تاريخ الاسلام السياسي .ويؤكد أن حركته جاءت تعبير عن سخط العامة والجماهير الذين استغلتهم الادارة العباسية وابتزت منهم فيئهم وحقوقهم ،وهذا يذكرنا بشعار اخر براق او وهو: « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين».

على ان حمزة الخارجي يبالغ في المثالية حين يصور قيادته للحركة بأنها ليست منازعة للرشيد في ملكه ولا رغبة في الدنيا ولا طلبا للرفعة والذكر. فاذا كانت الاطماع الدنيوية والطموحات السياسية عاملا ليس ذا بال في نظر حمزة الخارجي، فلماذا ابتدأ رسالته بتسمية نفسه اميرا للمؤمنين ؟؟

ويعود حمزة الخارجي فيرفض عروض الخليفة، ولسان حاله يقول: لو ظن الرشيد انني سأقبلها كما قبلها ابو مسلم الخراساني وعبد الله بن علي ويحيى بن عبد الله قبلي، فانه على خطأ كبير. وربما كان الرشيد يدرك ان حمزة الخارجي سيرفض هذه الدعوة ،ولذلك اسرف في اعطائها. وهو يسخر حين يذكر الخليفة بالفئ والصدقات فيقول: «فأنى ذلك وقد فقد المسلمون عطاياهم وارزاقهم وصدقاتهم بعد الخليفتين (رض) فصارت تؤخذ من غير موضعها وتصرف الى غير اهلها والله حسيب خلقه».

ويختم حمزة الخارجي رسالته بوعظ الرشيد ونصحه وارشاده. ويصر على موقفه من العباسيين والجهاد ضدهم رافعا شعار الخوارج الخالد: «لا حكم الا لله يفصل بالحق وهو خير الفاصلين» مؤكدا موقف الخوارج الذين لا يريدون الاقرار بأية امارة لانها فشلت في اقرار الامور واصلاح الاوضاع.

حركة حمزة بن أترك السجستاني:

وقد تحرك منذ سنة ١٧٩ هـ في خراسان ،ولكن الوالي عيسى بن علي شتتهم وقتل العديد من اصحاب حمزة السجستاني الذي انسحب الى زابلستان والقندهار وتبعه عيسى حتى قتله في كابل سنة ١٨٥هـ / سنة ٨٠١م .

خروج ابن عمرو الشاري:

وقد خرج هذا في خراسان سنة ١٨٢هـ ،واستطاع زهير بن القصاب احد قواد الوالي علي بن عيسى بن ماهان ان يخمد حركته.

تمرد ابي الخصيب وهيب بن عبد الله:

وقد تحرك سنة ١٨٣ هـ في مدينة بلورد وصمد اكثر من سنة،ولكن العباسيين شددوا عليه حتى اضطروه الى التسليم ،فأكرمه علي بن عيسى واعطاه الامان.

ولكن ابا الخصيب تحرك ثانية سنة ١٨٥هـ في مدينة نسا ثم سيطر على مدن اخرى مثل طوس وحين حاصر مرو هاجمته جيوش السلطة فانسحب نحو سرخس وتمركز فيها،وبدأ يوسع نفوذه تدريجيا، مما اضطر الوالي ابن ماهان ان ان يتحرك نحوه ويقتله بعد معركة ضارية.

هذا وقد مرت الاقاليم الشرقية اثناء الحرب الاهلية بين الامين والمأمون باضطراب سياسي، واختلطت حركات الخوارج بحركات سياسية اخرى ،وخاصة في سجستان الاقليم التقليدي لخوارج ايران، كما انضم اليهم الكثير من الضعفاء وقطاع الطرق والمتلصلصة والمغامرين. على ان مسؤولية ضبط الامن والاستقرار في هذه الاقاليم لم تعد من نصيب السلطة المركزية في بغداد بل اخذها الطاهريون على عاتقهم.

استمرار الحركة الخارجية وحركات اخرى في بلاد فارس خلال العصر العباسي الثاني:

لم تنته الحركات الخارجية في بلاد فارس خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتاسع للميلاد .. ولكن قوتها تشتتت اذ كانت اكثر تركيزا واتصالا في القرن الاول وبداية الثاني الهجريين. ولعل سبب ذلك يعود الى سوقيتها الجديدة التي ابعدتها عن العروبة فكرا وعن الاتباع والانصار العرب مادة.

ورغم ان تحركات الخوارج شملت اقاليم عديدة مثل فارس وكرمان وسجستان والاحواز وخرسان وبعض مناطق ماوراء النهر ... ولكن سيطرتها لم تكن دائمية ثابتة ولا محكمة او فعالة والاهم من ذلك ان الحركة الخارجية في بلاد فارس لم تعد تضم الاتباع الخلص العقيدة بل انضم اليها وزاد من حجم اتباعها الانتهازيون والوصوليون والمتذمرون وذوو المطامع السياسية او المادية حتى انها شملت على حد قول بعض الروايات التاريخية اللصوص وقطاع الطرق والفقراء المستضعفين حبا في الكسب والانتفاع.

ان هذا التطور المهم والمنعطف الخطير في حركة الخوارج في بلاد فارس وما رافقه من نتائج عصفت بالأمن والاستقرار في اقاليم عديدة هي التي ادت في نهاية المطاف الى نشوء فرق (المطوعه) من السكان المحليين الذين نظموا انفسهم لمجابهة هجمات الخوارج (قطاع الطرق) وخاصة في سجستان .وكان قتال الخوارج الشغل الشاغل للطاهريين في خراسان وسجستان حيث تمكنوا من كسر شوكتهم دون ان يقضوا عليهم قضاءا تاما. على ان الظاهرة الخطرة التي برزت على المسرح السياسي هو اتخاذ الطموحين من الرجال امثال يعقوب بن الليث الصفار

السجستاني حرب الخوارج حجة ووسيلة تسويغ زعامته ووصوله الى قمة السلطة في سجستان حيث نجح في تكوين كيان سياسي في سجستان بعد ان حقق عدة انتصارات على الخوارج سنة ٢٥٩هـ / سنة ٨٧٣م. ومن ثم أفصح عن اهدافه الخطيرة في اسقاط الخلافة العباسية والهجوم على بغداد.

النابته: ولم تكن الحركة الخارجية هي الوحيدة على المسرح السياسي في بلاد فارس فلقد ظهرت حركات اخرى مثل النابته والكراميه. اما النابته فهي حركة جديدة ظهرت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي اظهرت ميلا للأمويين واتخذت من بعض خلفائهم رمزا للاحترام والتبجيل وتعمل على الاعلاء من شأنهم ونشر فضائلهم وذكراهم بين جماهير الناس.

والغريب ان حركة النابته — على عكس الحركات الموالية للأمويين في العصر العباسي الأول — لم يقتصر انتشارها على بلاد الشام (سورية) بل انتشرت في العراق وبلاد فارس تعبيرا عن معارضة قطاعات من الناس للعباسيين ولمذهبهم الرسمي — مذهب الاعتزال في هذه الحقبة — واتخاذهم اجراءات مشددة (المحنه) لفرض هذا المذهب على جماهير الناس.

كما نشأت الحركة الكرامية في خراسان في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري على يد محمد بن كرّام النيسابوري من اهل سجستان من أصل عربي. وقد سلك على النطاق السياسي طريقا محايدا بين مذهب العباسيين ومعارضيهم من خوارج وشيعة وغيرهم. وانجذب اليه العوام والفلاحون واعتقله الطاهريون وسجنوه ثماني سنوات.

ويعزو بوزوورث انتشار الكرامية الى اعتبار الجماهير الايرانية الدين الاسلامي دين العرب الحاكمين ولذلك فان الكراميه قدمت للايرانين وعلى رأسهم الملاكين وطبقات الموظفين ذريعة ومتنفسا جديدا للتخلص من المذهب الرسمي للعباسيين خاصة وان الكراميه لم تكن مذهبا فحسب بل مدرسة فقهية ايضا ولهذا قدمت لمعتنقيها طريقة مليئة بالحياة !!

على اننا ونحن نشارف على الانتهاء من الحركات في بلاد فارس في الحقبة الأولى من العصر العباسي الثاني لابد أن نقرر حقيقة تاريخية وهي أن «العقدة الفارسية» التي كان من اهم مظاهرها خلال هذه الحقبة بالذات التمرد والعصيان المسلح ضد العباسيين او التشويه والتخريب الفكري ... نقول ان هذه «العقدة» لم تشمل الفرس وحدهم بل شملت بعض الولاة والحكام الآخرين الذين ادركوا كما يبدو ان بقاء سلطتهم في هذا الأقليم الفارسي او ذاك مرهونة بالتزامهم بالعقدة الفارسية ومعارضتهم او شهرهم السلاح ضد نظام الخلافة العربية الاسلامية في العراق. والامثلة التي نستقيها من التاريخ كثيرة فهذا جهور بن مرار العجلي الذي قضى على حركة سنباذ الفارسي سنة ١٣٦هـ / سنة ٧٥٢م يتمرد على بغداد...وهذا خالد بن ابراهيم الشيباني الذي عينه المنصور واليا على خراسان بعد ابي مسلم الخراساني يختلف مع الخليفة ويتمرد عليه ... ثم هذا عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي الذي كان من اخلص صحابة المنصور وموضع

ثقته يتمرد على بغداد بعد تعيينه واليا على خراسان سنة ١٤٠هـ / سنة ٧٥٧م ويتعسف في جباية الضرائب ويعتدي على شيوخ العرب في خراسان معتدا بما لديه من امكانات بشرية وموارد اقتصادية..وهذا عيينه بن موسى التميمي يتمرد على الخلافة في بغداد سنة ١٤٢هـ / سنة ٧٥٩م متخذا من السند قاعدة له.

ان هذه السلسلة من الولاة العباسيين الذين يتمتعون بسجل حافل بالخدمة والولاء بغداد غلبت عليهم «العقدة الفارسية» فالتزموا بها وثاروا ضد بغداد متوهمين انهم يستطيعون الانفصال او تحقيق نوع من الاستقلال. ان هذه الافكار الانفصالية لم تكن لتراودهم لولا تأثرهم بمحيطهم الفارسي وبالاتجاهات الفارسية المنتشرة فيه.

ولابد من الاشارة ايضا الى ان هذه «العقدة الفارسية» ستستمر وبشكل اقوى حين تضعف الحكومة المركزية في بغداد وسيظهر امراء من الفرس يحققون نوعا من الانفصال عن العراق ... وسيظهر حكام آخرون ليسوا من الفرس الا ان كونهم في بلاد فارس يجعلهم ملتزمين ومنفذين لاهداف العقدة الفارسية فالسلاجقة والخوارزمية والمغول ليسوا فرسا الا ان عداءهم لنظام الخلافة في بغداد لايفسر الا بالالتزام «بالعقدة الفارسية» او في اقل تقدير ان هذه العقدة كانت من عوامل الخلاف بينهم وبين بغداد.

وفيما عدا ظاهرة «العقدة الفارسية» فان الحركات التي ظهرت في بلاد فارس خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين كانت اما حركات فارسية بحتة في قيادتها واتباعها ذات اهداف معادية للخلافة العربية ـــ الاسلامية وذات طبيعة مجوسية زرادشتية او مزدكية تتخذ من أبي مسلم رمزا لها مثل حركات المقنع واستاذسيس وسنباذ وبابك الخرمي .. او حركات سياسية معارضة للخلافة التجأت الى بلاد فارس مثل حركة الخوارج او نشأت هناك مثل الحركة الكرامية .وهذا النوع الثاني من الحركات رغم عروبتها من حيث الجذور الا انها حين تغلغلت الى بلاد فارس وتطورت فيها خرجت عن إطارها التقليدي العربي ـــ الاسلامي وتبنت اراء غريبة او شاذة او متطرفة متأثرة بالبيئة الفارسية المشبعة بالعقائد المجوسية والتقاليد الساسانية .. فلم تعد حركة الخوارج مثلا تلك الحركة «المثالية» التي ترعرعت في البيئة العربية ونشأت على القيم الاسلامية وغالت حركة النابته الاموية في اصفهان في حب الامويين وموالاتهم الى درجة التطرف. وبلغ الامر التحدي فكلما غالت الفرق الاخرى في مبادئها كلما امضت النابته في تطرفها. وانتشر بين الكراميه التشبيه والتجسيم وبلغ الصراع بينهم وبين المذاهب الاخرى حد العنف وسفك الدماء بينما كان ابن كرام مؤسس مذهبهم مثالا للزهد والمسالمة !!. وانبثق عن الدعوة العباسية جناح متطرف نادى باراء فيها غلو، رغم ان هذا الجناح لم يكن المحرك الرئيسي للدعوة العباسية كما لاحظنا.

وربما يبدو طبيعيا ان تنحرف هذه الحركات حين تدخل بلاد فارس متأثرة بتقاليدها «وعقدتها» المعادية العروبة والاسلام .على ان الذي يستحق التأكيد في هذا المجال هو عدم ظهور حركات موالية للعلويين في بلاد فارس خلال هذه الحقبة .فالحركات كما لاحظنا اما فارسية مجوسية او خارجية بالدرجة الاولى.

ربما حاولت بعض الحركات الفارسية مثل حركة سنباذ والمقنع التبرقع بمبادئ اسلامية او التوفيق بين مبادئ اسلامية واخرى مجوسية او المزج بين مبادئ الغلاة والمجوسية الا ان ذلك كان لعبة مكشوفة للاستهلاك السياسي ومن اجل رفع شعارات لجذب اكبر عدد ممكن من الانصار .وربما كذلك اعترفت بعض الفرق الفارسية مثل الرزامية التي انشقت عن الهاشمية واعترفت بامامة العلويين من نسل محمد بن الحنفية ثم نقلت الامامة الى ابراهيم ثم ابي العباس لتنقلها بعد ذلك الى ابي مسلم الخراساني !! وهذا بيت القصيد ... والاسلوب مكشوف في ان الهدف النهائي هو زوال حكم العرب المسلمين واعادة دولة المجوس وهدم الكعبة وان تستبدل بها الشمس اثناء السجود!! والتحالف مع «الغلاة» المحرفين للديانه الاسلامية.

على اننا سنلاحظ كشفا اكثر للعداء الفارسي للعراق والخلافة في مدة لاحقة حين يعلن مرداويج بن زيار الديلمي بصراحة بأنه سيبطل ملك العرب ويرد دولة العجم. والغريب ان البويهيين حين حققوا انتصارا على الخلافة والعراق لم يسقطوا الخلافة العباسية لاسباب شخصية مصلحية ولم يعلنوا ولاءهم للدولة الفاطمية او حتى تحالفهم مع الامارة الحمدانية لاسباب فارسية شعوبية تقتضي الابقاء على العالم العربي ــ الاسلامي مجزءا ومفتتا بين كيانات سياسية متصارعة. فاين هو تشيعّ الفرس للعلويين ؟؟ واين هو نضال الموالي من اجل ذلك؟.

الفصل الرابع
بلاد فارس واستفحال الميول الاقليمية الانفصالية

مقدمة:

من المعروف إن الدعوة العباسية تفجرت في خراسان فايقظت احاسيس السكان المحليين وأخبت المشاعر. ثم حدثت الحرب الأهليه بين الأمين والمأمون وتحصن المأمون بسبب الظروف الآتية وبتحريض من الفضل بن سهل الفارسي في خراسان ثم اتخذ من مرو عاصمة له وبذلك تحفزت الميول الانفصالية والنزعات الاقليمية في بلاد فارس.

لقد أدرك المأمون ومن جاء بعده من الخلفاء خطورة هذه الميول ورأوا ان خير وسيلة للوقوف في وجهها هي اللامركزية الادارية واعطاء درجة من الحكم الذاتي للاقاليم وذلك للوقوف في وجه النزعات الانفصالية وماتحتويها من اهداف لتقويض الحكم العربي الاسلامي والعودة بهذه الاقاليم الى ماكانت عليه ايام المجوس الساسانيين . ولهذا فان السلطة المركزية سلمت خراسان الى الطاهريين وماوراء النهر الى السامانيين في وقت مبكر يعود الى سنة ٢٠٤هـ او سنة ٢٠٥هـ / سنة ٨٢٠م.

والذي يبدو لنا ان السلطة العباسية المركزية في بغداد بدأت في العصر العباسي الثاني تفقد سيطرتها من الداخل بسبب التدهور الاداري ـــ السياسي وانعدام وجود جيش مركزي قوي تابع للخلافة. وبذلك رجحت عوامل التجزئة والتفكك على عوامل الوحدة والتماسك. ولقد حاولت رؤيا جديدة الى الوضع في الخلافة العباسية ان تفسر التجزئة والانفصال بسبب عوامل اقتصادية في المحل الأول .على اننا نرى ـــ بقدر مايتعلق الامر ببلاد فارس ـــ ان عوامل اخرى متراكمة لعل من أبرزها النزعة الفارسية المجوسية الاقليمية أدت دورها في هذه العملية.

لقد ظهرت بين سكان الاقاليم الشرقية دعاوى جديدة سياسية ودينية واقليمية واقتصادية بعضها لها علاقة بعقائد المنطقة قبل الاسلام وبعضها لها علاقة «بالعقدة الفارسية» ضد العرب المسلمين ومايمثلونه من كيان سياسي وديني واجتماعي. ولقد كانت ردود فعل الخلفاء الاوائل ناجحة وقوية ضد هذه النزعات اذ كانت هذه النزعات في بداياتها. ولكن بعد حين غدا الخليفة العباسي مكبلا سياسيا وعسكريا وليس لديه جيش يدافع عن دولته فنزع المسؤولية عن عاتقه ووضعها على كاهل غيره فكان اجراءا خاطئا زاد من الانفصال بل وصل الى جرأة التحدي لاحتلال بغداد ذاتها فإذا كان الطاهريون يمثلون بدايات التمهيد للعصيان .فإن انهيار سلطتهم في بلاد فارس عامة زاد من حده ازمة الانفصال ونجم عنه ظهور الصفاريين في سجستان. وقد إستطاع يعقوب الصفار بجيشه الدقيق التنظيم والعدة ان تيجاسر ويزحف نحو بغداد لاحتلالها سنة ٢٦٢هـ /سنة ٨٧٥م وتعتبر هذه المحاولة الفاشلة اول محاولة لاحتلال العاصمة والاقليم المركزي العراق.

واذا كان السامانيون الفرس قد ورثوا تقاليد الطاهريين في علاقاتهم الحذرة وغير العدائية بصورة عامة مع العراق، كما ورثوا الطاهريين في السيطرة على معظم بلاد فارس فإنهم من جهة اخرى يمثلون المحاولات الجدية الاولى لتشجيع الثقافة واللغة الفارسية .وبهذا تظهر نزعتهم الفارسية في هذا المجال الذي قد يعد اكثر خطورة من مجال الحرب او العداء السياسي.

ثم ان عدم جدية السامانيين في السيطرة التامة على ماورثوه من الطاهريين قد جعل فئات سياسية عسكرية اخرى تستغل الفرصة لتثبت وجودها. فحاول الطبريون توسيع نفوذهم في مناطق جديدة كما تشجعوا لأول مرة لنشر مذهب اسلامي في الاقاليم الفارسية معاد للسلطة العباسية المركزية وهو المذهب الزيدي. اما الزياريون في طبرستان وجرجان وماحولها فيمثلون المحاولة الثانية الفاشلة لاحتلال العراق واعادة «ملك العجم واسقاط ملك العرب» على حد قول زعيمهم مرداويج بن زيار. ومثل البريديون بدافع العقدة المحاولة الثالثة لاحتلال العراق. بينما كان الغزنويون يقدمون نموذجا لعلاقة طيبة مع العراق والخلافة المركزية خالية من «العقدة الفارسية» بل انهم هددوا مصالح البويهيين ومناطق نفوذهم في بلاد فارس حين احتلوا بست سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م في سجستان. وقد نبه هذا التحرك الغزنوي والعلاقة الجيدة مع العباسيين بنهُ البويهيين الى ضرورة اتخاذ اجراءات جديدة كفيله بردع التقدم الغزنوي في بلاد فارس. وقد قام بهذا العمل الأمير البويهي في فارس فناخسرو (عضد الدولة) حيث فرض سلطته على كل الأقاليم الفارسية ووحدها بمواردها وقواتها. الا ان التهديد الغزنوي لم يستمر وانما كان مناورة وتحذير حيث وجه الغزنويون كما هو معروف جهودهم نحو شبه القارة الهندية.

وقد ترك المسرح السياسي في بلاد فارس والعراق للديالمة ومنهم البويهيون ليسيروه كما يشتهون. والواقع ان الديالمة جنودا ظهروا في المنطقة قبل سنة ٣٣٤هـ /سنة ٩٤٥م حين قادهم البويهيون لاحتلال العراق وعاصمة الخلافة العباسية بغداد. فقد كانت تشكيلات من الجند الديالمة موجودة بالفعل ضمن قوات القادة العسكريين المتنازعين على السلطة في بغداد في العصر العباسي الثاني. كما ان الديالمة كانوا يشكلون نسبة من تشكيلات العديد من امراء المقاطعات والحكام المحليين في المنطقة مثل البريديين والطبريين والزياريين وغيرهم من الحكام الادنى مرتبة ثم الاقل شهرة.

وهكذا يبدو ان ظاهرة الدويلات او الامارات الفارسية في بلاد فارس خلال هذه المدة من العصر العباسي لها جوانبها السلبية البارزة سياسيا وحضاريا وخاصة فيما يتعلق بتأكيد التجزئة في الدولة العربية الاسلامية الواحدة وبتشجيع الثقافة الفارسية البحتة على حساب الثقافة العربية الاسلامية.

والواقع ان المحاولات الاولى لتحدي وحدة الدولة وسلطة الخلافة في العراق والانفصال عن الدولة العربية الاسلامية من العصر العباسي بدأت منذ ولاية ابي مسلم الخراساني على أقليم خراسان حيث حاول الانفصال وضم اقاليم فارسية اخرى الى سلطته دون موافقة الخليفة ببغداد

... وهذا بدأت الخلافة تنظر الى يتهي النفوذ في مسلم الخراساني؟ وقد ادى ذلك الى تصادم حقيقي بين الخليفة ببغداد والوالي بمرو في خراسان.

وقد استمرت نزعة التحدي لوحدة الدولة بعد ابي مسلم الخراساني .. متمثلة في حركات فارسية اقليمية بعضها خرمية وبعضها زرادشتية لاعلاقة لنا بها في هذا المجال. وفي عهد المأمون لم يكن طموح طاهر بن الحسين البوشنجي الفارسي بأقل من طموح اسلافه من آل سهل وآل برمك وابي مسلم الخراساني ولذلك فقد كان دوما ينظر الى ولاية خراسان حيث تحقق له حلمه سنة ٢٠٥هـ / سنة ٨٢٠م حيث عينه المأمون واليا على خراسان ومنحه سلطة واسعة على كل الاقاليم شرقي العراق. وقد بدأ طاهر بن الحسين يتخذ جملة من الاجراءات عدت رغم كونها اولية وغير محبوكة، بدايات جدية للانفصال على الدولة وتهديد وحدة الخلافة، كما سنرى ...

الطاهريون

٢٠٥هـ ٨٢٠م ـ ٢٥٩هـ ٨٧٢م

مرحلة النشوء:

يعد نجاح الطاهريين الفرس في إقامة كيان ذاتي وراثي شبه مستقل عن الخلافة العباسية المركزية احد نتائج الحرب الأهلية التي وقعت بين الاخوين الأمين والمأمون. ذلك ان مؤسس هذه الامارة طاهر بن الحسين هو احد قادة المأمون الذين تغلبوا على جيش الأمين وقتلوه وحققوا الانتصار للمأمون حيث تقلد الخلافة سنة ١٩٨هـ / سنة ٨١٣م.

على ان طاهر بن الحسين لم يكن على وفاق مع الفضل بن سهل الفارسي وزير المأمون ولذلك أبعد عن العراق وأعطي مهمة القضاء على بعض الاضطرابات في الجزيرة الفراتية (الرقة)، الامر الذي اغضب طاهرا ولكنه كتم غضبه واطاع الاوامر. بينما تقلد ولاية العراق الحسن بن سهل اخو الوزير الفضل. ولكن الأمر لم يدم طويلا فقد عاد المأمون بعد حوالي ست سنوات الى بغداد عاصمة العباسيين التقليدية وترك مرو عاصمة خراسان. وفي طريق العودة تخلص من وزيره الفضل حيث قتله وأبعد جماعته. وفي بغداد اعاد المأمون طاهر بن الحسين وولاه شرطة العاصمة وعينه في الوقت نفسه واليا على الجزيرة الفراتية والاشراف على المعاون في السواد (جنوبي العراق).

لم يكن طموح طاهر بن الحسين بأقل من طموح اسلافه الفرس كأبي مسلم الخرساني والبرامكة والفضل بن سهل ولذلك كان يتطلع الى ولاية خراسان حيث كان جده وابوه ولاة على بوشنج في منطقة هرات. وبالفعل استطاع طاهر عن طريق الوزير احمد بن ابي خالد ان يقنع المأمون بتعيينه على خراسان سنة ٢٠٥هـ وعلى الأقاليم شرقي العراق بعد ان ضمنه الوزير نفسه.

بدأ طاهر بتوطيد نفوذه في نيسابور وسيطر على خراسان بقوة وبهذا ابتدأ عصر الطاهريين في خراسان والمشرق. ويبدو ان شكوك الخليفة كانت في محلها فلم تمض سنتان على حكمه حتى

اعلن طاهر سنة ٢٠٧هـ / سنة ٨٢٢م إسقاط اسم الخليفة من الخطبه وهذه علامة من علامات التمرد وهكذا اعترته عين النزعه والميول الانفصالية التي اعترت ولاة أخرين قبله في خراسان ويظهر ان خراسان التي كانت تسمى «درة التاج الساساني» لمواردها الاقتصادية والبشرية الكثيرة تعطي من يتولاها ثقة غير إعتيادية بحيث يتمرد على السلطة المركزية .الا أن طاهرا أساء التقدير هذه المرة فقد بادره المأمون وبمساعدة وزيره ابن ابي خالد وقتله قبل ان يستفحل أمره. على ان روايات التاريخ لاتفصل في الموضوع .ويبدو ان طاهرا عارض سياسة المأمون التوفيقية. لقد عين المأمون ــ كعادته في مثل هذه المواقف ــ طلحة بن طاهر خلفا لوالده على خراسان ليرضي آل طاهر ذوي النفوذ الكبير في خراسان من جهة وليزيل الاشاعات التي انتشرت حول دور بغداد في موت طاهر بن الحسين الفجائي!! .كما استمر منصب شرطة بغداد بيد الابن الثاني عبد الله بن طاهر. لقد اتعظ طلحة بن طاهر (٢٠٧هـ ــ ٢١٣هـ) مما حدث لوالده وهذا اعلن ولاءه للعباسيين مؤكدا على اسم الخليفة في الخطبة والشارات والسكة ومرسلا الريع السنوي المخصص لبيت المال في بغداد والذي كان يقدر زمن الطاهريين حوالي ٣٨ مليون درهم سنويا.

مرحلة الازدهار والقوة:

يعد عهد عبد الله بن طاهر (٢١٣هـ ــ ٢٣٠هـ) عهد القوة والازدهار بالنسبة للطاهريين فقد كان يتمتع بقابليات كبيرة كما انه كان ذكيا محافظا على علاقات جيدة مع العباسيين فقد جربه المأمون قبل هذا التاريخ حين عينه واليا على مصر ثم واليا على بلاد الشام والجزيرة الفراتية .وتشير رواياتنا التاريخية الى اتباعه نهج الاصلاح والسهر على الأمن .وقد دس له المأمون من يمتحن طاعته فكان موقفه يدل على كياسة وولاء للخليفة.

وحين تسلم عبد الله بن طاهر ولاية خراسان تمتع الطاهريون بأمتيازات عديدة لعل اولها ان حكم خراسان والاقاليم التابعة لها اصبح وراثيا لآل طاهر. اما ثانيا فان اسمهم اصبح يذكر في الخطبة ويطبع على السكة أحيانا الى جانب اسم الخليفة. وثالثها ان سلطتهم امتدت الى مناطق اخرى غير خراسان مثل الري وكرمان وبعض اقاليم بحر قزوين وبلاد ماوراء النهر. فكان ريع بعض هذه المناطق يذهب الى الطاهريين الذين يسلمون جزءا منه الى بغداد. وقد نجم عن هذا الامتياز مشاكل كثيرة خاصة بين الطاهريين وآل قارن امراء طبرستان.

إن هذه الامتيازات ثبتت آل طاهر في خراسان واعطتهم حقا وراثيا شرعيا في الحكم ولذلك زاد نفوذهم لدرجة كبيرة. ومن ناحية اخرى فإن عبد الله بن طاهر هذا اهتم بشؤون خراسان وقوانينها فشجع التعليم وقمع عناصر الشغب واعتنى بأمور الري والزراعة وطلب من فقهاء خراسان وضع كتاب شرعي يسترشد به في امور الزراعة وتوزيع المياه. وكان يأمر بالاهتمام بالفلاحين لانهم على حد قوله :«الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائهم ..».

إن ولاء الطاهريين للخلافة العباسية يظهر من مواقف عبد الله بن طاهر من حركات الخوارج والعلويين والفرس الذين اثاروا القلاقل والاضطرابات في مناطق عديدة من المشرق الاسلامي خلال هذه المدة حيث قام عبد الله بن طاهر بمطاردة الخوارج في سجستان وخراسان وقمع حركاتهم. وحينما ثار محمد بن القاسم العلوي في خراسان مدعياً الخلافة أسره عبد الله بن طاهر وأرسله الى بغداد سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م قد شارك الطاهريون في اسناد الخلافة العباسية ضد حركة بابك الخرمي وماحدث في اعقابها وتمرد اصبهبذ طبرستان المازيار بن قارن الذي كان يتذمر من الحكم اله الاسلامي ويحوك مؤامرة بالتعاون مع الافشين قائد المعتصم الذي كانت له هو الآخر طموحات انفصالية في خراسان والمشرق. ويبدو ان معارضة المازيار- اصبهبذ طبرستان للتبعية الادارية للطاهريين حيث كان عليه ان يرسل خراج اقليمه الى خراسان زاد من امتعاضه وقرر قطع علاقاته بسامراء. وقد ساعد الطاهريون الخلافة في قمع الحركة بطبرستان والقبض على الاصبهبذ وارساله الى العراق حيث مات هناك. ولابد من الاشارة هنا الى ان الطاهريين وهم يخدمون الخلافة العباسية في القضاء على القلاقل فإنهم في الوقت نفسه كانوا يخدمون مصالحهم الاساسية لانهم حكام خراسان وتوابعها. وبمعنى آخر فإن مصالحهم كانت متطابقة مع مصالح العباسيين في آن واحد.

وكان الطاهريون في عصر قوتهم حراس الثغور الشرقية ضد هجمات الترك والخياطلة وقاوموا الخارجين من ملوكهم ضد سلطان الخلافة العباسية.

مرحلة السقوط.

حكم بعد عبد الله بن طاهر ابنه طاهر الثاني من (٢٣٠هـ — ٢٤٨هـ) وخلفه في الحكم ابنه محمد بن طاهر وقد كان عهده عهد ضعف الطاهريين لأنه كان أميل للعبث واللهو من الحكم على شاكلة اجداده فعجز عن القيام بردود فعل ايجابية وقوية ضد القوى المعارضة لحكمه وخاصة قوة الصفاريين الجديدة التي برزت في سجستان وكرمان. كما ان اهل خراسان انفسهم فقدوا ثقتهم بالحكم الطاهري فبعدت الفجوة والثقة بينهم وبين السلطة وقد استدعى اهل خراسان يعقوب بن الليث الصفاري لوضع حد لحكم الطاهريين في خراسان وذلك ٢٥٩هـ / سنة ٨٧٣م وبهذا انتهى العهد الطاهري في المشرق.

علاقة الطاهريين بالخلافة العباسية:

لقد حرص امراء الطاهريين الذي جاءوا بعد طاهر بن الحسين على الابقاء على علاقات طيبة مع الخلافة العباسية .والواقع ان الخلافة العباسية رغم تعرضها لسيطرة القادة العسكريين فقد شهدت حكم بعض الخلفاء الاقوياء كما ان صفة الخليفة الدينية والشرعية باعتباره امير المؤمنين وامام المسلمين كانت لاتزال قوية في نفوس الجماهير في ارجاء العالم الاسلامي. ومن هنا فقد كان لابد لامراء الاقاليم مثل الطاهريين او غيرهم ان يحرصوا على كسب ود الخليفة العباسي ويحصلوا على اعترافه بهم لكي يكسبوا من وراء ذلك وبسببه ولاء الجماهير في اقاليمهم . وبعكس ذلك فإن حكمهم يغدو غير شرعي بنظر الناس والفقهاء لانه لايتمتع بتأييد الخليفة العباسي .

فالمنفعة اذن متبادله والمصالح متقابلة بين الخلافة والطاهريين. فالخليفة يمنحهم الحق الشرعي في الحكم عن طريق اعترافه بهم. والطاهريون يعلنون ولاءهم ويوطرون الأمن ويقضون على القلاقل ويحمون الثغور المشرقية ويرسلون ضريبة سنوية للخلافة.

لقد كان الطرفان الخلافة والطاهريون يقدرون اهمية بعضهم لبعض ولهذا نلاحظ ان الخلافة تقف الى جانب الطاهريين في صراعهم ضد الصفاريين. ووقف الطاهريون الى جانب الخلافة في صراعها ضد بابك الخرمي والاصبهبذ الطبرستاني. على ان ذلك لايعني ان العلاقة كانت ودية على طول الخط فالمعتصم مثلا حاول التخلص من عبد الله بن طاهر بمؤامرة سرية دون جدوى ،وكان هذا الأخير رغم ولائه للعباسيين اعقل من ان يزور العراق او يمر به لان عملا كهذا كان يعد «غير متزن» من وجهة نظره. فهو أمن في خراسان وهو مطيع ولكن عن بعد. ولعل عبد الله استفاد من دروس التاريخ ومالقي أبوه وأبو مسلم الخراساني بسبب قربهم من البلاط العباسي.ورغم سقوط الطاهريين حكاما الا ان عددا من الشخصيات الطاهرية ظلت تتمتع بنفوذ اداري في مدن عديدة في المشرق . كما ظلوا يتناوبون منصب شرطة بغداد وغيرها.

وحين اختلف المستعين مع القادة في سامراء وفر الى بغداد أيده محمد بن عبد الله بن طاهر امير بغداد والعراق ونظم مقاومة اهل بغداد وفرق السلاح عليهم. وحلول المعتز الذي نصبه الترك خليفة جديدا في سامراء استمالة محمد الطاهري دون جدوى ،ولكن محمدا هذا مل طول الصراع فاعترف بالمعتز سنة ٢٢٢هـ وشارك في قتل المستعين الذي التجأ الى واسط. وقد لامه اهل بغداد على ذلك وعدوّه المسؤول عن فشل مقاومتهم وأقصي عن امارة بغداد سنة ٢٥٣هـ / سنة ٨٦٧م.

يرى بعض المؤرخين ان قيام الطاهريين بتأسيس امارة وراثية في خراسان دلالة على «بداية الوعي القومي الفارسي» ولكن الحركة التي بدأت بالظهور مع بدايات العصر العباسي لم تكن حركة «قومية» .فالحركة القومية اصطلاح حديث ومن مظاهر القرن الثامن عشر وما بعده، كما ان الحركة التي شهدتها بلاد فارس في العصر الوسيط كانت حركة عنصرية لانها شعوبية تكره العروبة

، ومجوسية تحاول ابدال الاسلام بعقائد ايران القديمة. فحركة مزيج من هذه الآراء لايمكن عدها حركة «قومية» لأن القومية بطبيعتها انسانية اما اذا كانت عدائية فهي ليست قومية بل عنصرية شوفينية.

هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن طاهر بن الحسين كان مولى لقبيلة خزاعة ولذلك فإن وشائجه كانت مرتبطة بالموالاة للعرب وللخلافة .ورغم انه خان هذا الولاء الا ان امراء الطاهريين من بعده حفظوه. اما ماتشير اليه بعض الروايات التاريخية من انتسابه الى ملوك الفرس القدماء فهذه اساطير تلصقها الروايات الفارسية بكل حاكم فارسي يحكم ايران .وقد تكررت مع العديد من الحكام الذين اعقبوا الطاهريين وادعوا انتسابهم الى الاسر المالكة الفارسية القديمة !!. ثم ان الطاهريين عرفوا بثقافتهم الجيدة بالعربية وادابها وكانت توقيعات طاهر بن الحسين يشار اليها بالبنان في الرصانة والبلاغة والحكمة والتدبير بحيث كانت تنسخ وتوزع على عمال الاقاليم للاستفادة منها.وهو بهذا يشابه جعفر البرمكي في تضلعه من العربية. وكان طاهر يفرض الشعر بالعربية. وقد اصدر امرا بحرق كل كتاب من تصانيف العجم والمجوس يعثر عليه في حدود ولايته. على اننا لا نعرف مدى الجدّية في تنفيذ هذه الاوامر ولكننا نعرف ان حركات الخرمية والزندقة والشعوبية كانت ولاتزال مستمرة في بلاد فارس.

الصفاريون

٢٥٤هـ ــ ٢٨٩هـ / ٨٦٧م ــ ٩٠٣م

مرحلة النشوء:

تأتي اهمية الصفاريين من كونهم أول اسرة فارسية في المشرق الاسلامي تحدتّ بصورة سافرة قولا وفعلا الخلافة العباسية. ولابد من الاشارة بدءا الى ان مؤسس الكيان الصفاري يعقوب بن الليث الصفار قاد حركة فارسية عدوانية مسلحة جندت الجنود لاحتلال العراق والقضاء على الحكم العربي الاسلامي.

على اننا لابّد ان نقرر كذلك أن الوضع السياسي والاداري العام للخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كان عاملا مهما في تحريك الطموحات الشخصية وكذلك في اثارة الحركات الانفصالية ذات الاهداف الاعمق من الطموحات الشخصية. فإذا كانت الخلافة العباسية نفسها قد وقعت تحت سيطرة حفنة من القادة العسكريين .واذا كانت الاندلس والمغرب وافريقية ومصر قد انفصلت منذ مدة عن مركز الخلافة في العراق .واذا كانت خراسان وتوابعها قد تمتعت بحكم ذاتي يرضى الخليفة العباسي ... فلماذا لايجرؤ يعقوب الصفار على القيام بمحاولته

لاحتلال اقاليم اخرى وعزلها عن الخلافة خاصة وانه مندفع لا بطموحات شخصية فحسب بل بتراكمات ورواسب عنصرية فارسية قديمة حركت العديد من المتمردين الفرس قبله ضد العروبة والاسلام. بهذا المنظار نوضع الحركة الصفارية باطارها التاريخي الصحيح.

نشأ يعقوب بن الليث الصفار في بلدة قريبة من زرنج عاصمة اقليم سجستان في جنوبي بلاد فارس وكانت نشأته متواضعة حيث عمل صانعا عند احد الصفاريين بأجرة شهرية قدرها ١٥ درهما . وكان اخوه ينتقل من عمل لأخر فكان حكاريا مرة وبناءا مرة اخرى. الا ان يعقوب وعمرا كانا طموحين تحركهما مطامع عالية وتراكمات عنصرية دفينة وقد اشارت بعض الروايات الفارسية الى يعقوب بوصفه عيارا اي من جماعة الشطار في المدن ثم تزعم عصابة من اللصوص وقطاع الطرق حتى غدت الطرق الموصلة الى بست غير مأمونه بسبب فعالياته !! ومع ذلك فقد تبرقع يعقوب الصفار بالدين ليموه على الناس اهدافه فكان شعاره «لاحكم الا لله» وهو الشعار الخارجي المشهور.

لقد ساعدت اوضاع سجستان يعقوب الصفار وزمرته. فقد انتقلت حركة الخوارج من اقاليم الوطن العربي الى اقاليم فارسية خلال العصر العباسي ولقيت القبول لدى جماعات عديدة من الفرس بوصفها حركة معارضة للحكم للعباسي وحركة تنادي بالمساواة بين العرب والعجم وهذا شعار يحسن الفرس استغلاله تحقيقا لمأربهم العنصرية. ألم ترفع الشعوبية العنصرية شعار المساواة وسمت اتباعها «اهل التسوية» من اجل التمويه على الناس والتغلغل بينهم !! فلماذا لايستغل يعقوب الصفار وامثاله مثل هذه الشعارات البراقه.

لقد تحولت الحركة الخارجية على ايدي الفرس الى حركة تخريبية مدمرة وعاث الخوارج في سجستان وخراسان خلال العصر العباسي الثاني فسادا واكثروا من السلب والنهب. وامام ضعف الامير العباسي على سجستان تشكلت فرق من المتطوعة للدفاع عن المدن من بطش الخوارج وتدميرهم. وقد إلتحق يعقوب الصفار واخوه في صفوف المتطوعة تحت قيادة صالح بن النظر الكناني. وبعد موت هذا الأخير آلت قيادة المتطوعة الى درهم بن الحسين الذي لم يثبت جدارة تذكر فأختار المتطوعة يعقوب الصفار ،الذي كان ذا تجربة عسكرية وقدرة على التنظيم اضافة الى إتصافه بالخشونة في العيش والتواضع مع اتباعه، لقيادة المتطوعة سنة ٢٤٧هـ / سنة ٨٦١م. ومنذ ذلك التاريخ بدأ يعقوب سيرته السياسية.

بدأ يعقوب الصفار بتوطيد نفوذه في سجستان وعدّ نفسه في البداية مواليا للعباسيين ومنفذا لخططهم في محاربة الخوارج والعصاة مخفيا احلامه التوسعية في اقامة دولة فارسية كبرى والقضاء على العباسيين .والواقع ان يعقوب الصفار كان يدرك تماما حاجته في هذه المرحلة ،مرحلة النشوء، الى العمل في اطار الشرعية العباسية والحصول على تأييد الخليفه العباسي لتحركاته. فكان يرسل الخراج الى الخليفة ومعه بعض الهدايا بل انه ادعى أن الخليفة ولاه سجستان قبل حصوله على التوليه الشرعية.

لقد انكشفت اطماع يعقوب الصفار حين بدأ يوسع نفوذه الى مكران والسند وكابل وطرد والي فارس الذي عينه الخليفة واحتلها. ومن الواضح ان يعقوب الصفار كلما توسعت سلطته وكثر اتباعه تناقصت طاعته للسلطة العباسية المركزية وظهرت ميوله العنصرية المعادية.

مرحلة القوة والتوسع:

دخل الصفاريون بزعامة يعقوب الصفار مرحلة القوة حين بدأوا يوسعون نفوذهم خارج اقليم سجستان. منذ سنة ٨٦٧م / سنة ٢٥٣هـ احتل يعقوب الصفار هراة وبوشنج ثم اعقبها باحتلال كرمان وفارس ثم كابل وبميان ثم بلخ وطخارستان على التوالي حتى تمكن سنة ٨٧٣ من احتلال خراسان ودخول نيسابور عاصمة الطاهريين. وبهذا غطتْ تحركاته العسكرية اقاليم واسعة شملت اضافة الى سجستان كلا من مكران وفارس وخوزستان وطبرستان والسند والعراق. وقد كملت الروايات الفارسية في تاريخ سجستان الصورة فاظهرت يعقوب الصفار أنه من سلالة الملوك الفرس قبل الاسلام وتصل نسبه بهم. وهذا الادعاء ذو المغزى السياسي عارٍ عن الصحة — وهو كما اشرنا سابقا — ديدن الروايات الفارسية في تصويرها وتمجيدها للحكام الفرس بعد الاسلام ان هجوم يعقوب الصفار على خراسان واحتلاله نيسابور عاصمتها اوقع الخلافة في مأزق من الأمر، فالعباسيون كانوا على علاقة جيدة مع الطاهريين في خراسان ولم يرتضوا امتداد نفوذ الصفاريين الى خراسان. ومع ذلك فقد ادعى يعقوب الصفار انه فعل ذلك استجابة لطلب أهل خراسان وحين سأله محمد بن طاهر أمير خراسان عن موقف الخلافة او موافقتها على ذلك إستل يعقوب سيفه وقال «هذا عهدي وهذا لوائي». مما يدل انه لايعبأ بالشرعية وانما يرى أن القوة وحدها هي التي تقرر طبيعة الأحداث وسيرها.

ورغم ان يعقوب اتصل بالخلافة العباسية مؤكدا ولاءه ومظهرا ان ماقام به يعبر عن رغبة اهل خراسان كما انه قمع حركة خارجية في هيرات تحدت الخلافة سنين طوالا وشن هجوما قويا على امير طبرستان الحسن بن زيد ودحره في معركة ساري ... الا ان ذلك كله لم ينطل على الخلافة العباسية التي اصدرت منشورا سنة ٢٦٠هـ / سنة ٨٧٤م اعلنت فيه ان يعقوب الصفار فتمرد على الخلافة. وكان هدف الخلافة ردع يعقوب الصفار ولكن الأخير على العكس من ذلك تمادى في غيّه وقرر السير نحو العراق. ومع ان الخلافة العباسية جنحت الى الصلح واصدرت مرسوما جديدا بتولية يعقوب الصفار على سجستان وخراسان وجرجان وطبرستان وفارس والري وكذلك شرطة بغداد وارسلت اليه وفدا يحمل مرسوم التوالية الا ان يعقوب الصفار رفض المثول لأمر الخليفة واعلن ان سيسير بجيشه الى بغداد ويقرر هنالك مايريد !!

كانت الخلافة العباسية في عهد المعتمد مشغولة بحركة عارمة في جنوبي العراق (البطيحه) هي حركة الزنج ولهذا حاولت تجنب فتح جبهة جديدة فارسلت وفودا عديدة الى يعقوب الصفار ولكنه اصر على الحرب وصمم على خوضها. وقد اخترق يعقوب حدود العراق الشرقية من

الاحواز ثم دخل واسط وعسكر في دير العاقول على بعد خمسة عشر فرسخا من بغداد .وسار اليه الخليفة المعتمد بنفسه ومعه أخوه الموفق طلحة على قيادة الجيش. وقد اثار قادة الجيش العباسي النخوة في نفوس الرجال فخاطبهم احد القادة قائلا:

« ماهو الا ان تنصرفوا او تنهزموا فلا ترجع دولتكم اليكم»

وبهذا ربط بين مصير المعركة ومصير العراق والخلافة والأمة وكل مآثرها وقيمها وعقيدتها. كما خاطب قائد من الجيش العباسي جند الصفار قبل بدء المعركة فقال:

«ياأهل خراسان وسجستان ماعرفناكم الا بطاعة السلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الاثار وان دينكم لايتم الا بطاعة الامام ومانشك الا ان هذا الملعون قد موّه عليكم وقال لكم ان السلطان قد كتب اليه بالحضور. وهذا السلطان قد خرج لمحاربته. فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الاسلام فلينفرد عنه ان كان شاقا للعصا محاربا للسلطان».

ورغم أن هذا الخطاب لم يكن له استجابة آنية الا ان اثره لابد يكون قد ظهر في قلة حماسة عدد لابأس به من جيش الصفار وهروبه من المعركة او استسلامه بعد التحام الجيشين. ابتدأ الصفار بالهجوم العام فشدت مسيرته على ميمنة جيش العراق فهزمتها وبقي القائد الموفق وسائر جيشه ثابتا مما جعل المنسحبين من الميمنه يتماسكون ويكرون راجعين الى مواقفهم. وهنا كشف القائد الموفق عن رأسه وقال انا الغلام الهاشمي وهجم مع سائر جيش العراق. واستمرت الحرب سجالا تخللها عدة هجمات طويلة وشرسة من الجانبين. وقتل فيها عدد كبير من الجانبين .وكانت الهزيمة من نصيب يعقوب الصفار وجنده الذين تراجعوا نحو فارس يلاحقهم جند العراق. واستولى الجند واهل القرى على معسكر الصفار وغنموا منه الشئ الكثير. ويقال ان جند العراق رموا في معركة دير العاقول عشرين الف سهم. وقد استخدم الموفق اساليب حربية جديدة كانت من اسباب هزيمة الصفار منها انه فجر عليه نهر السيب فحاصره كما اضرم النار في معسكره فهاجت الخيول والبغال والأبل. ثم أن حضور الخليفة وولي عهده الموفق بنفسيهما الى ارض المعركة كان له اثره في نجاحها. هذا اضافة الى ان جند العراق كانوا يدافعون عن ارضهم وعن سلطانهم ودولتهم. لقد توهم الصفار ان احتلال العراق امر سهل وان اهل العراق سيفدون اليه يقدمون له الطاعة ففي رواية يوردها ابن خلكان ان الصفار قال: «لم اعلم اني احارب ولم اشك في الظفر وتوهمت ان الرسل ترد اليّ» !!.

والمعروف ان زعيم الزنج علي بن محمد عرض على يعقوب الصفار التحالف ضد الخلافة العباسية ولكن يعقوب كان واثقا من النصر فرفض هذا العرض ووصف الزنج بالمارقين مدعيا انه حارس الدين وقد انسحب يعقوب الصفار الى جند يسابور وهناك ارسل له الخليفة رسولا يسترضيه ويعينه واليا على فارس ولكن اجابة يعقوب الصفار تدل حقد وتعنت حيث قال:

«قل للخليفة انني عليل. فان مت فقد استرحتُ منك واسترحت مني وان عوفيت فليس بيني وبينك الا هذا السيف حتى أخذ بثأري او تكسرني فتفقرني» !!

على ان يعقوب الصفار مات بعد ذلك بقليل سنة ٢٦٥هـ دون ان يحقق احلامه العدائية العريضة باقامه الدولة الفارسية والقضاء على الخلافة العباسية في العراق واحتلال العراق.

سقوط الصفاريين:

تعد معركة دير العاقول سنة ٢٦٢هـ / ٨٧٥م بداية النهاية للنفوذ الصفاري حيث مات بعدها يعقوب الصفار سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨م وتولى بعده اخوه عمرو بن الليث الصفار.

والواقع ان سبب إنهيار الصفاريين يعود الى عاملين متداخلين مهمين من بين جمله عوامل اخرى الا وهما تحدي الخلافة العباسية بصورة سافرة وصريحة ومحاولة التوسع باتجاه الغرب اي على حساب الخلافة العباسية. ولقد حاولت الخلافة العباسية عبثا ان تثني يعقوب الصفار من السير هذه السياسة وشجعته بالتوسع باتجاه الشرق حيث السند وكابل وبلاد ماوراء النهر وحيث الجهاد في سبيل الله وتوسيع رقعه الدولة الاسلامية ونشر الاسلام دون جدوى فكان انكساره في معركة العاقول خير درس له ولأمثاله. وقد صور يعقوب الصفار في بعض المصادر التاريخية على انه خارجي العقيدة او باطني او غير ذلك والارجح انه لم يكن لاهذا ولا ذاك بل انه سياسي طموح فلم تمنع محاربته للخوارج في اوائل ايامه من ضمهم اليه بعد سيطرته ليقوي نفسه بهم وبغيرهم من الفئات وهذا نجد بعضهم حين جد الجد اثناء معركة دير العاقول يفرون من جيشه خاصة بعد ان عرفوا أن الخليفة جاء بنفسه لمحاربته ويقول العنبري:

« وقد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهية القتال معه اذ رأوا السلطان قد حضر لقتاله فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال»

صالح عمرو الصفار بعد توليه السلطة (٢٦٥هـ ـ ٢٧٩هـ) الخليفة العباسي واعاد شارات الولاء والطاعة للعراق فعينه الخليفة واليا على خراسان وسجستان واصفهان وكرمان والسند اضافة الى شرطة بغداد .وهذا المنصب الاخير بقي عمليا بيد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر.

الا ان عمرو الصفار كأخيه يعقوب كان يستند الى القوة في تثبيت نفوذه او توسيعه ولم يأبه كثيرا بمراسيم التولية والتعيين من الخليفة. وحين تخلصت الخلافة من حركة الزنج في البطيحة اصبحت اكثر قابلية في التعامل مع الصفاريين ولهذا نجد الموفق يفاوض عمرو الصفار على إعادة بعض الاقاليم الى السلطة المركزية وحين فشلت المفاوضات اصدر الموفق سنة ٢٧١هـ / كتابا يلعنه على المنابر وبقيت العلاقة بينهما تتأرجح بين مد وجزر.

وحين جاء المعتضد للخلافة اعترف بعمرو الصفار اميرا على خراسان ولكن عمرا الح على الخليفة باظهار موقفه علنيا الى جانب الصفاريين ضد قوة السامانيين المتنامية. فقد كان اسماعيل بن أحمد الساماني قد سيطر على بلاد ماوراء النهر. ويبدو ان الخليفة العباسي اضطر الى اتخاذ موقف كهذا رغم انه كان يتمنى نجاح السامانيين في صراعهم مع الصفاريين .وربما كانت خطة الخلافة في منح خراسان للصفاريين مدبرة من اجل ان يصطدم عمرو الصفار بأسماعيل الساماني

في نزاعهما حول خراسان وبلاد ماوراء النهر. وهذا ماحدث فعلا حيث وقعت معركة بين الطرفين ٢٨٧هـ / ٩٠٠م قرب بلخ انتصر فيها السامانيون الذين اسرو عمرا الصفار وارسلوه الى العراق حيث مات في السجن سنة ٢٨٩هـ / سنة ٩٠٢م.

لم تدم سلطة الصفاريين اكثر ٣٢ سنة لم تحقق خلالها امراؤهم أمالهم العريضة على حساب الخلافة العباسية ،وبدت طموحاتهم ضيقة الافق شخصية وعنصرية ولهذا لم يكتب لها النجاح. فقد هاجموا سلطة العباسيين في بلاد فارس وكانوا اول من ذكر اسمه في الخطبة الى جانب اسم الخليفة في المشرق واول من نقش اسمه على السكه. كما انهم امتنعوا في احيان كثيرة من ارسال الضريبة السنوية الى الخلافة. بل اكثر من ذلك هاجموا الخلافة في عقر دارها.

اما التحدي الثقافي الصفاري فقد خطى خطوات واسعة في تشجيع الثقافة والادب الفارسي الشعوبي المبغض للعروبة والاسلام. ويذكر تاريخي سيستان اسماء ثلاثة من شعراء الفارسية في البلاط الصفاري .ولعل اشهر هؤلاء الشعراء هو ابراهيم بن ممشاذ الاصفهاني الشعوبي الذي تكلم بأسم يعقوب الصفار وكشف عن اهدافه صراحة في قصيدة مدح فيها يعقوب الصفار وتباهى بنسبه من ملوك العجم واظهره بمظهر المحافظ على تراث العجم المطالب بالثأر من العرب الذين أزالوا دولة آل ساسان الى الابد. حيث يقول:

فقل لبني هاشم أجمعين ... هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرمـــاح ... طعنا وضربا بسيـف خـــذم
واولاكم الملك اباؤنـــا ... فما ان وفيتم بشكر النعـــم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز ... لأكل الضباب ورعي الغنـــم
فأني سأعلو سرير الملـــوك ... بمجد الحسام وحرف القلـــم

ولاعجب من قول هذا الشاعر الشعوبي إذا كان سيّده يعقوب الصفار قد زحف يريد الاستيلاء على العراق بالقوة وهو يردد بيت الشعر:

ملكتُ خراسانا واكناف فارس ... وماكنتُ من ملك العراق بآيس !!

ولكن أهل العراق وخليفتهم حطموا أحلامه وقبروه قبل ان يحقق أيًا منها. إن كل هذه المظاهر هي التي دفعت أرمجاني الى القول إن «الصفاريين يمثلون حركة عنصرية ايرانية في سياستهم وادارتهم وانهم قادوا التحدي الفارسي للحكم العربي الاسلامي الذي اتخذ صيغه المعارضة (المتطرفة)» .ورغم انهيار النفوذ الصفاري في المشرق على يد السامانيين فقد استطاع طاهر بن محمد بن عمرو الصفار ان يعيد نفوذهم الى فارس ٢٩٠هـ لبعض الوقت الا ان السبكري غلام

عمرو بن الليث استبد بالسلطة دونه ثم قبض عليه وعلى اخيه يعقوب وأرسلهما مخفورين الى بغداد سنة ٩٠٨م سنة ٢٩٦هـ. وقد استمر النزاع بين مراكز القوى الصفارية وكانت الخلافة تساعد احدهما على الاخرى من اجل التخلص من خطرهما واضعافهما حتى استطاع احمد بن اسماعيل الساماني ان يجتث أخر معاقلهم في سجستان سنة ٢٩٨هـ / سنة ٩١٠م .لقد بدأ الصفارون في سجستان وانتهوا في سجستان..ولاشك في ان هذا الاقليم الذي حافظ اهله على التراث الفارسي القديم واعتزوا بالقيم الدينية المجوسية لمدة طويلة حتى بعد الفتح الاسلامي لبلاد فارس حيث بقيت جيوب عديدة قاومت الثقافة العربية الاسلامية وعقيدة الاسلام واحتفظت بمعابد النار ... ان هذا الاقاليم وجد في الصفاريين خير متنفس للتعبير عن معارضته للحكم العربي الاسلامي.

الطبريون

٢٥٠هـ ــ ٣١٦هـ / ٨٦٤ ــ ٩٢٨م

كان اقليم طبرستان من الاقاليم ذات التضاريس الجبلية الصعبة والمسالك الوعرة ولذلك لم تستطع الخلافة في صدر الاسلام ان تتوغل فيها ولم يكتب للاسلام الانتشار الواسع هناك. وقد استمر الحال كذلك خلال العصر العباسي الأول حيث بذل العباسيون جهودا جيدة لادخال طبرستان ضمن دار الاسلام ،وفي رواية تاريخية ان الرشيد نفسه اهتم بالأمر وقد اسلم على يديه عدة مئات من اهل طبرستان والديلم في إحدى حملاته هناك.

وكان أن هرب الى بلاد الديلم يحيى بن عبد الله الحسني بعد فشل حركة الحسين بن علي الحسني في الحجاز ومقتله في موقعه فخ سنة ١٦٩هـ على عهد الخليفة الهادي. وبدأ يحيى الحسني بنشر الاسلام والدعوة الى العلويين بين الديالمة ولذلك لقب بصاحب الديلم .وقد استطاع الرشيد عن طريق الفضل البرمكي ان يقنعه بالعدول عن ذلك والعودة الى بغداد حيث سجن هناك. الا ان نشاطات يحيى الحسني تعد بدايات الدعوة الى الاسلام في طبرستان والديلم.

إن اهل طبرستان ظلوا متمسكين بتقاليدهم الفارسية وبدياناتهم المجوسية السابقة والتفوا حول الاصبهبذ الطبرستاني وعدّوه رمزا لتحديهم لسلطة العربية الاسلامية المتمثلة بالخلافة العباسية وتعاون الاصبهبذ الطبرستاني ضد العباسيين في مناسبات عديدة منها : حركة بابك الخرمي في اذربيجان والجزيرة الفراتية. ووقعت مراسلات بينه وبين بابك والافشين من اجل الوقوف ضد العباسيين، ولكن الخلافة العباسية في عهد المعتصم استطاعت سحق هذه المؤامرة الثلاثية ووقع اصبهبذ طبرستان (المازيار بن قارن) في الاسر ومات في سامراء.

لم تكن العلاقة على مايرام بين الأمراء الطاهريين في خراسان وبين الاصبهبذ الطبرستاني وقد عارض الاصبهبذ ان يكون تابعا اداريا وماليا لأمراء خراسان. ولذلك عاون الطاهريون الخلفاء العباسيين ضد تعنت الاصبهبذ. وغدت طبرستان بعد مقتله تابعه اداريا ــ ولو بصورة اسمية ــ الى خراسان.

استمرت الدعوة الى الاسلام من جانب العلويين في طبرستان ذلك لأن موقع طبرستان وتضاريسها واستمرار التشبث بالقيم الفارسية القديمة وعقيدتها المجوسية كل ذلك ساعد على وجود بؤرة معارضة للحكم العباسي في هذا الاقليم ... وان هذه المعارضة بعد انتهاء البيت الحاكم من عائلة الاصبهبذ (آل قارن) وجدت متنفسا لها في الدعوة العلوية لأنها حركة معارضة للخلافة العباسية. وكان من ابرز رجال الدعوة العلوية بطبرستان الحسن بن زيد الذي جعل الري مركزا له

ثم انتقل بعد ذلك الى طبرستان واعلن معارضته للعباسيين ومثليهم الطاهريين،ويعتبره المؤرخون مؤسس الكيان العلوي الطبري في هذه المنطقة.

ويبدو ان الحسن بن زيد هذا كان قد فرَّ من العراق كذلك اثر حركة فاشلة قادها يحيى بن عمر في الكوفة سنة ٨٦٣م سنة ٢٤٩هـ في عهد المستعين العباسي واستقر مع عدد كبير من الدعاة الزيدية في الري وطبرستان .وكان يحكم اقليم خراسان الواقعة تحت النفوذ الطاهري الامير سليمان بن عبد الله بن طاهر وكان متعسفا مما هيأ الظروف للحسن بن زيد الذي دعته بعض الفئات المتمردة للدخول الى طبرستان حيث بويع سنة ٢٥٠هـ «على كتاب الله وسنة نبيه والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتمكن من طرد الأمير الطاهري عن طبرستان. وقد استغل الحسن بن زيد المشاعر الطبرستانية الاقليمية المتمسكة بتقاليد طبرستان واستقلالها وكرهها لتحكم العربي الاسلامي الذي سيطر على طبرستان ولو اسميا منذ سنة ١٤٢هـ.ونجح الحسن في احتلال (أمل) بقوته المكونه من اهل الديلم المحاربين الاشداء كما التف حوله كل «طالب نهب ومريد فتنه من الصعاليك والحوزية».

تعد بيعة الحسن بن زيد في المسجد الجامع بمدينة أمل بداية النفوذ العلوي في طبرستان سنة ٢٥٠هـ وقد استمر حكمه حتى سنة ٢٧٠هـ سنه ٨٨٣م. والحسن من آل الحسن بن علي بن ابي طالب وكان قد شارك في حركة يحيى العلوي بالكوفة ثم هرب الى الري ومن هناك الى طبرستان .ولكن مذهبه كان زيديا. وقد اتبع سياسة شديدة ضد كل المعادين لمذهب الزيدية من عباسيين او علويين على مذاهب اخرى. وقد اتخذ لقب الداعي الى الحق رسميا وكان يدعى كذلك الداعي الكبير.

انشغل الحسن بن زيد خلال سني حكمه الاولى بتثبيت الاوضاع السياسية المضطربة في طبرستان ولكن الطاهريين استطاعوا دحره في معركة حامية وصلت اصداء انتصاراتها الى بغداد واذيعت البشرى في مساجد بغداد بعودة الحكم العباسي الى طبرستان بواسطة الطاهريين. ولكن الحسن بن زيد اعاد الكرَّة واستطاع دحر الطاهريين الذين تخلوا نهائيا عن طبرستان.

كما واجه الحسن بن زيد مقاومة اهل الجبل من سكان طبرستان بقيادة الاصبهبذ قارن،ممايدل على ان العلويين بمذهبهم الزيدي لم يستطيعوا ان يكسبوا كل الفئات في طبرستان وخاصة تلك المتمسكة بتقاليدها الساسانية واثرها الاقليمي والمذهبي. وقد ظلت هذه الصراعات بين الطرفين سنين عديدة دون نتيجة حاسمة.

لقد توسعت الدولة الطبرية على عهد الحسن بن زيد فشملت طبرستان والديلم والري وقزوين وزنجان وقومس وجرجان ، ولم يتمكن الطاهريون رغم تأييد الخلافة لهم من الوقوف في وجه التوسع الطبري في هذه الاقاليم. والواقع ان الخلافة العباسية كانت تدرك ابعاد خطر وجود نفوذ علوي على ابواب العراق خاصة بعد ان امتدت الامارة العلوية لتشمل الري . كما ان الخلافة كانت تدرك

مدى خطورة الجند الديلم الذين تبنتهم هذه الامارة وشجعتهم على الانخراط في جيشها. ولكن الخلافة كانت ضعيفة وممثليها في خراسان والمشرق وهم الطاهريون كانوا يمرون بأدوار ضعفهم وانحلالهم.

على ان المسرح السياسي في المشرق شهد بروز قوة جديدة هي قوة الصفاريين وقد بدأ الصفاريون بالتحرش بالعلويين في طبرستان واحتلال طبرستان باسم الخلافة العباسية وذلك ترضية لبغداد وأملا في الحصول على اعترافها الشرعي بهم. نجح يعقوب الصفار في احتلال طبرستان سنة ٢٦٠هـ ولكنه مالبث ان إنسحب منها بعد حوالي اربعة شهور تاركا اياها للعلويين. بعد ان ادرك استحالة السيطرة عليها.

واجه الحسن بن زيد العديد من الحركات والقلاقل ولكنه تمكن خلال سني حكمه الأخيرة من ان يحكم امارته بنوع من الاستقرار النسبي وتوفي سنة ٢٧٠هـ بعد ان اوصى لأخيه محمد بن زيد بالحكم. ولكن هذا الاخير الذي كان اميرا على جرجان لم يتسلم السلطة الا بعد قضائه على حركة تمرديه قام بها احد العلويين في أمل وسيطر على مقاليد الحكم لمدة سنة. ولذلك فان عهد محمد بن زيد يبدأ سنة ٢٧١هـ الى ٢٨٧هـ .

لقد استطاع محمد بن زيد تأديب الاصبهبذ الطبرستاني رستم بن قارن الذي تمرد بعد موت حسن بن زيد وحاول استرجاع الري وقزوين وابهر من سيطرة الخلافة العباسية دون جدوى. كما انه نقل مركزه من أمل مقر الداعي الاول الى جرجان وجعلها مقرا لحكمه ومعسكرا لجيشه. وكان موقع جرجان على الطريق بين العراق وخراسان له اهمية كبيرة للخلافة العباسية. كما انها كانت تقع على خطوط التجارة بين المشرق وبين الروس والبلغار والخزر وبهذا اضطر العباسيون من اجل استمرار ارتباطهم بخراسان الى اتباع الطريق الأمر الاكثر صعوبة وهو طريق فارس ــ كرمان .

وقد اتفق العلويون بطبرستان مع عمرو الصفار على مواجهة خطر عامل خراسان رافع بن هرثمة الذي استطاع الاستيلاء على جرجان وطبرستان مدة ولكن عمرا الصفار انتصر على رافع واخذ منه خراسان. وبقيت العلاقات ودية بين محمد بن زيد وعمرو بن الليث الصفار الذي كان مشغولا في حروبه مع السامانيين في خراسان وماوراء النهر.

الا ان الصراع الصفاري ــ الساماني امتد في خراسان وانتهى بالقضاء على الصفاريين ثم وجه اسماعيل بن اسد الساماني كتابا الى محمد بن زيد يأمره بالانسحاب من جرجان وتركها للسامانيين وقد شجعت الخلافة العباسية السامانيين في ضربهم للقوى الاخرى في غربي بلاد فارس من صفارية او طبرية. وقد وقعت المعركة بين الطرفين في باب جرجان وانتصر فيها السامانيون وقتل محمد بن زيد الداعي الثاني سنة ٢٨٧هـ سنة ٩٠٠م وارسل رأسه مع ابنه الاسير الى بخارى.

بقيت طبرستان بيد السامانين حتى ظهر الحسن بن علي الاطروش. وكان الاطروش قد التجأ الى الديلم بعد معركة جرجان سنة ٢٨٧هـ وروج لزعامته ولنشر الاسلام على المذهب الزيدي بين الجيل والديالمة واجابة كثير منهم حيث حاول استرداد طبرستان سنة ٢٨٩هـ دون جدوى. الا ان ضعف السامانين وانشقاقهم شجعه على اعادة الكرة حيث نجح في استعادتها سنة ٣٠١هـ وجعل آمل مركزه. وبذلك إستعادت الامارة العلوية سيرتها الاولى وظلت الامامة في اولاده نجى انتهت سنة ٣١٦هـ وقد صاحبت انتهائها مذبحة رهيبه قام بها احد رؤوساء الديلم المدعو اسفار بن شيروية حيث جمع العديد من العلويين وذبحهم وارسل البقية الباقية منهم الى السامانين ولكن اسفار نفسه تعرض الى مؤامرة أودت بحياته وسيطر على الحكم مرداويج بن زيار.

الزياريون

٣١٦ ــ ٤٧٠هـ / ٩٢٨ ــ ١٠٧٧م

تعد اقاليم الديلم، طبرستان وجرجان وقزوين، ذات التضاريس الوعرة والمسالك الصعبة من أشد الاقاليم في بلاد فارس مقاومة لانتشار الاسلام والحكم العربي ــ الاسلامي. فقد ظل أهل طبرستان متمسكين بتقاليدهم الفارسية ودياناتهم المجوسية ، والتفوا حول الأصبهذ أميرهم وعدّوه رمزا لتحديهم للخلافة العربية الاسلامية .ورغم أن هذه الاقاليم كانت قد خضعت إسميا للدولة العربية ألاسلامية منذ عهد عثمان بن عفان الا انها ظلّت تنتفض وتتمرد المرة تلو الاخرى... وستظل ذكرى جيش مصقله بن هبيرة الذي توغل في مضايق طبرستان في عهد معاوية بن أبي سفيان فحاصره العدو وسد عليه المنافذ ورماه بالصخور والنبال من فوق الجبال حتى استشهد مصقلة وعشرة الاف من المسلمين هم كل مامعه من الجند. ستظل هذه الذكرى دليلا على صلف الفرس ومقاومتهم الشديدة لنشر الأسلام وعدم وفائهم بالعهود والمواثيق.

لقد تعاون الاصبهبذ الطبرستاني مع امراء المنطقة ضد الحكم العباسي .. ورغم ان المنصور استطاع ان ينتصر عليه ويجعل من طبرستان اقليما اداريا تابعا للدولة العباسية فان الاصبهبذ المازيار بن قارن ثار ضد العباسيين في عهد المأمون والمعتصم وتعاون مع بابك الخرمي ومع الافشين. وقد تمكن المعتصم من اسره وصلبه مع حليفه بابك في سامراء بالعراق.

وقد انتشر في بلاد الديلم المذهب الزيدي وتكونت امارة زيدية في طبرستان ولكنها لم تلبث ان ضعفت وتقاسم اراضيها الأمارات المجاورة وبخاصة السامانية وكذلك الأمراء الديلم المحليون الطموحون أمثال مرداويج بن زيار الذي كان احد قادة الجيش في الدولة الطبيعية الزيدية ولكن الجو السياسي صفا له بعد مقتل منافسيه من القادة الكبار فنجح في لم شعث الديالمة وكون له كيانا سياسيا سنة ٣١٦هـ / سنة ٩٢٨م شمل اجزاءا من طبرستان وجرجان والري.

وحين امتّد نفوذ مرداويج الى الاحواز كشف عن نواياه العدوانية وبدأ يفكر جدّيا بالهجوم على بغداد وكان يعلن صراحة ودون تحفظ:

«أنا ارد دولة العجم وابطل ملك العرب»

وكانت خطته إعادة دولة الفرس الساسانيين وعاصمتها في المدائن (طيسفون) وقد أمر باعادة بناء ايوان كسرى كما كان في العصر الساساني ليجعله بلاطه، واعد تاجا على غرار تاج الاكاسرة مزينا بالياقوت .واحيى تقاليد تقديس النار المجوسية في اعياد الفرس.

ولابد ان نشير الى أن امراء بني بويه الذين قدر لهم ان يحتلوا بغداد بعد حوالي أحدى عشرة سنة من هذا التاريخ عاشوا في كنف مرداويج وتتلمذوا على يديه وتبنوا مواقفه المعادية للخلافة.

إلا أن الحرب مع القوى المعاصرة لهذه الاتابكية أخذت شوطا من حكم هذا الاتابك .فبعد ثمانية أعوام من النزاع مع عمه طغرل كان على سعد أن يعيد حالة الأستقرار الداخلي الى مقاطعته المنكوبة. فأخضع أكراد فارس بزعامة أحد رؤسائهم من الشبنكرا. وهاجم كرمان القريبة من مركز حكمه. وحاول أخذ الري والتوسع في الجبال ولكن سعد ،بعد مدة من الثبات والمقاومة ، أضطر الى الاعتراف بسلطة علاء الدين محمد خوارزمشاه وتنازل عن قسم من أراضية له كما ووافق على أن يعطيه سنويا ثلث واردأته المالية، ولكن الاتابك سعدا دخل معه في عقد زواج على عروسة خوارزمية(٤).

وفي زمن الاتابك ابي بكر .الذي تولى الحكم بعد وفاة سعد، خضعت الاتابكية لجنكيز خان .وارسلت له الهدايا مقابل السماح لابي بكر بالاحتفاظ باتابكيته. ثم خضعت هذه الاتابكية لهولاكو عندما اجتاح ايران لغرض تدمير الأسماعيلية في طريقه الى التوجه نحو بغداد .وقد منح هولاكو الاتابكيه الى الاميرة آبشما. حفيدة أبي بكر. التي زوجها من أبنه الحادي عشر منكو تيمور(٥) (٦٥٤ ــ ٦٨٠/١٢٥٦ ــ ١٢٨٢) .

السامانيون

٢٦١هـ ـ ٣٨٩هـ / ٨٧٤ ـ ٩٩٩م

مرحلة النشوء:

السامانيون فرس من بلخ وكلمة سامان مثلها مثل برمك كانت تطلق على كهنة او سدنة المعبد .وقد اسلم جد هذه الاسرة (سامان خدات) في العصر الاموي وتمكن أحفاده من تولي الولايات في بلاد ماوراء النهر حيث ثبتوا مراكزهم هناك. وكعادة الروايات الفارسية فقد ارجعتهم الى نسب احد ملوك الفرس بهرام جور.

وفي مرحلة النشوء تعاون الاخوان نصر وأسماعيل على مد نفوذهما على الاقاليم المجاورة لسمرقند فاستولى اسماعيل باسم أخيه نصر على بخارى وطرد الصفاريين منها سنة ٢٦٠هـ سنة ٨٧٣م. وقد اعترفت الخلافة العباسية بنصر واليا على ماوراء النهر من نهر جيحون والى اقصى مايصل اليه شرقا وكان ذلك سنة ٢٦١هـ .وهكذا فقد ورثت الاسرة السامانية التقاليد الطاهرية في الحفاظ على علاقات ودية مع بغداد في الاعم الاغلب والتعاون مع الخلافة على حفظ الأمن في الاقاليم الشرقية والدفاع عن الثغر الشرقي ،وبسبب العوامل البشرية والجغرافية والحضارية فقد جمع بلاط السامانين وادارتهم العناصر الثلاثة التي كونت المشرق الاسلامي فكان على العموم عربيا في ثقافته وحضارته فارسيا في تقاليده ومراسيمه تركيا في جنده ومؤسساته العسكرية !!

ورغم ان العلاقات سارت نحو الاسوأ بين نصر في سمرقند واسماعيل في بخارى وادت الى حربين متتاليتين بين الطرفين سنة ٢٧٢هـ و سنة ٢٧٥هـ فإن ذلك لم ينه نفوذ السامانيين .فقد عاجلت المنية نصرا سنة ٢٧٩هـ ، سنة ٨٩٢م وتولى اخوه الحكم من بعده بوصية منه.

مرحلة القوة والازدهار:

يعد عهد اسماعيل بن أحمد الذي دام اكثر من ١٦ سنة عصر القوة السامانية ذلك لأن اسماعيل الساماني (٢٧٩ ـ ٢٩٥هـ) ضم الى نفوذه ولاية اشروسنة ثم تبعها بضم خراسان له. كما اشتبك مع امير طبرستان وهزمه واستولى على اقليمه ثم مدّ نفوذه الى الري. وكذلك منع اسماعيل الساماني غارات الترك على حدود بلاده من جهة الشرق. على اننا لابد ان نذكر بأن الخلافة العباسية على عهد المعتضد لم تكن بعد مطمئنة من نوايا ومخططات اسماعيل الساماني كما انها لاتريد له ان يقوى لدرجة كبيرة بحيث تسوّل له نفسه تهديدها كما فعل يعقوب الصفار. ولهذا كله فرغم ان المعتضد العباسي اقر اسماعيل الساماني على بلاد ماوراء النهر الا انه كان يحث عمرا الصفار على الاصطدام به وعدم السماح له بضم خراسان . وقد حاول اسماعيل الساماني في

بداية الأمر تحاشي الاصطدام مع عمرو الصفار فكتب اليه « انك وليت دنيا عريضة وانما في يدي ماوراء النهر وانا في ثغر فأقنع بما في يدك واتركني في هذا الثغر». ولكن عمرا الصفار لم يرعو وحدثت المعركة التي انتهت بأسر الصفار وهزيمة جنده .وارسل اسماعيل الساماني عمرا الى الخليفة حيث سجن ومات او قتل في السجن سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م. وهنا ايدّ الخليفة العباسي اسماعيل واعطاه عهدا بولاية خراسان وكل الاقاليم التي كانت في يد الصفاريين.

كان عصر اسماعيل الساماني عصر الازدهار الاداري والحضاري للسامانيين. فقد كانت بخارى حاضرة الدولة مزدهرة حضاريا وقد انتعشت التجارة بسبب الاستقرار والأمن ونشأت مدن جديدة من امثال مدينة جند في اسفل حوض نهر سيحون وكذلك مدينة طراز على طريقة التجارة مع الصين وأسيا الوسطى.

لقد كان لأسماعيل الساماني الفضل في توجيه جهد السامانيين نحو المشرق اي نحو الجهاد في سبيل الله في تركستان ورغم كونه فارسيا فقد اعتمد على الجند التركي في جيشه ذلك الجند الذي ثبتت اهميته في الحروب خلال العصر العباسي الثاني واعتمدت عليه الخلافة العباسية نفسها كما اعتمد عليه العديد من الامراء والمغامرين امثال يعقوب الصفار والبويهيين بعده. ثم ان اتجاه اسماعيل الساماني نحو الشرق وتأكيده على صفة كيانه الثغري اكسبه احترام الخلافة العباسية وجعل علاقاته بها تتصف بالود والتقدير المتبادل.

وليست بنا حاجة الى ان نؤكد ثانية أن المصلحة متبادلة بين العباسيين والسامانيين. فالسامانيون وطدوا الاستقرار في المشرق بالنيابة عن العباسيين ودافعوا عن حدود دار الاسلام ووسعوها ونشروا الاسلام باتجاه الشرق باسم العباسيين. اما العباسيون فمن جانبهم منحوا عقد التولية الشرعي للسامانيين ذلك العقد المهم لانه يعطي للسامانيين الحق بالحكم في نظر الفقهاء وجماهير المسلمين.

واكثر من هذا السامانيين أدوا دورا مهما في احتواء الحركات التي كانت تهدد الخلافة العباسية على حدود العراق الشرقية في اقاليم الري وكرمان والجبال والديلم امثال الساجيه والزيارية ثم البويهية. وكانت الحروب سجالا بين السامانيين والبويهيين بين ٣٥٦هـ و ٣٦١هـ الذين هددوا النفوذ العباسي في اقاليم بلاد فارس وقد انتهت الحرب بعقد صلح بينهما (بين منصور الساماني وعضد الدولة البويهي).

لقد كانت الادارة السامانية ادارة قوية وكان عمال الويلايات يتمتعون بسلطات واسعة في اقاليمهم .وقد قسموا ماوراء النهر منبع كيانهم الى خمسة اقسام هي الصفد وفيه العاصمة بخارى او سمرقند ثم خوارزم ثم صغانيان ثم فرغانه ثم الشاش. اما خراسان فكانت تقسم الى اربعة أقسام نيسابور ومرو وهراة وبلخ.

مرحلة الضعف والسقوط:

بعد وفاة اسماعيل الساماني تولى الحكم بعده ابنه احمد (سنة ٢٩٥هـ ـــ ٣٠١هـ) ورغم اتباعه سياسة والده المتزنة الا انه لم يكن مثله في القوة والاقتدار. وقد بدأت بوادر الانشقاق تظهر داخل الاسرة السامانية فقد ثار عليه عمه في سمرقند. كما استطاع الحسن الاطروش ان يخلص طبرستان من سيطرة السامانيين.

وقد قتل أحمد الساماني بمؤامرة دُبرت عليه بليل فكانت بداية النهاية لنفوذ السامانيين. ومع ان الامير نصر بن احمد الذي خلف والده في الحكم استعاد النفوذ الساماني في اكثر من اقليم وخاصة في طبرستان وكرمان وفارس وجرجان فان إنهيار السامانيين استمر بصورة بطيئة وتدريجية. فقد تنازل نصر نفسه عن الحكم بسبب اتهامه بتأييده للاسماعيلية النزارية وجاء بعده ابنه نوح (٣٣١هـ ـــ ٣٤٣هـ). وفي استفحل خطر البويهيين على الاقاليم الغربية التابعة للسامانيين، وثار عليهم كذلك حكام الاقاليم التابعين لهم مثل حاكم خراسان والري وبذلك انحسر النفوذ الساماني الى قاعدتهم الاولى في ماوراء النهر.

ولعلنا نستطيع ان نجمل سقوط السامانيين الى العوامل الرئيسية الآتية:

(١) إنشقاق البيت الساماني على نفسه منذ اواخر عهد اسماعيل الساماني. واذا كان اسماعيل حاكما مقتدرا تغلب على الانشقاق فإن الامراء الذين جاءوا بعده كانوا ضعفاء وصغار السن فالامير نصر بن أحمد تسلم الحكم في الثامنة من عمره والامير عبد الملك بن نوح كان في العاشرة حين جاءته السلطة!! ولاشك في أن الناس والاسرة الحاكمة وحكام الاقاليم استصغروا هؤلاء الامراء الذين لاتجوز الصلاة وراءهم فكيف يقودون امارة!! فثار اعمامهم واخوانهم وولاتهم عليهم وشقوا عصا الطاعة.

(٢) الضغط المتزايد الذي تعرضت له الاقاليم السامانية من القوى الاسلامية المجاورة لها في طبرستان والري وكذلك خانات الترك الذين دخلوا الاسلام على يد السامانيين ثم بدأوا يحلون محلهم وهذا ماوقع من قبل الخانيين والغزنويين. ولعل اكبر خطر متزايد على السامانيين هو النفوذ البويهي الذي بدأ يستشري ويمتد كالاخطبوط على الاقاليم الايرانية التابعة للسامانيين ولم يجد السامانيون تجاه خطر الخانيين والبويهيين سوى الالتجاء الى القوة المتنامية في الجنوبي الشرقي من ماوراء النهر وهي الغزنويون الذين حلوا بنهاية الأمر محلهم وسقط السامانيون حين تعرضوا سنة ٩٩٩م /سنة ٣٨٩هـ لهجوم الغزنويين والخانيين.

(٣) اعتماد السامانيين الفرس على القوة العسكرية المتنامية للاتراك بحيث اصبح غالبية جيشهم من الجند التركي. وقد وصل العديد من هؤلاء الترك الى مراكز قيادية في الدولة فتعاظم نفوذهم وتدخلوا في السياسة فتدهورت الادارة والخزينة المالية وغدا الامراء الصغار غير المتمرسين في الحكم ألعوبة بأيديهم.

(٤) دخول مبادئ هدامّة الى البنية الاجتماعية السامانية حيث انتشرت مبادئ باطنية اسماعيلية متطرفة وايدها بعض قادة الدولة حتى ان نصر بن احمد اتهم بميوله الاسماعيلية فأجبر على التخلي عن الحكم وجاء بعده الامير نوح الذي قمع الحركة الاسماعيلية واضطهدها في صفوف شعبه.

والمعروف ان السامانيين الفرس لم يدفعوا ضريبة منتظمة الى بغداد رغم ان علاقاتهم على العموم كانت جيدة مع الخلافة التي منحتهم حق ذكر اسمهم في الخطبة والسكة. وحين زاد خطر القرامطة على بغداد في عهد المقتدر العباسي اقترح عليه الوزير علي بن عيسى الالتجاء وقتيا الى خراسان وطلب مساعدتهم ضد القرامطة!! ولابد أن نشير الى جعل بعض المؤرخين السامانيين ممثلين «لحركة قومية ايرانية» او بداية لنهضة فارسية فعلية. وادلتهم على ذلك عديدة منها ان لغة الأدارة والبلاط الرسمية غدت اللغة الفارسية وافتى بعض الفقهاء بجواز الصلاة باللغة الفارسية وترجمت كتب عربية الى اللغة الفارسية مثل كتاب التاريخ للطبري ترجمه البلعمي وشجع السامانيون شعراء نظموا باللغة الفارسية وصرحوا باراء لاتتفق مع روح العروبة والاسلام من امثال الشاعر الرودكي السمرقندي الذي اظهر عواطفه الجياشه نحو المجوسية الفارسية. وكذلك الشاعر الدقيقي الذي اختار اربعة اشياء من الدنيا اثنين منها دين زرادشت والخمرة القانيه!! ثم الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات.

إن هذه المظاهر صحيحة ولعل مرجعها يعود الى ان السامانيين فرس وان بيئتهم في خراسان كانت فارسية الا ان ذلك لم يؤثر في الثقافية العربية الاسلامية القوية. ذلك أن هذه الثقافة كانت اقوى من النزعات الفارسية ويعود مرجعها الى الرباطات العربية على الثغور الاسلامية الشرقية التي كانت تجمع بين الجندية والعلم والتصوف وكانت تركز على العلوم الاسلامية الشرعية واللسانية. ويصف المقدسي مدن خراسان وماوراء النهر في العصر الساماني مثل بخارى وسمرقند بانها موئل للعلم والعلماء. وان ملوك السامانيين لايكلفون العلماء تقبيل الأرض بين ايديهم!!

لقد كانت اللغة العربية هي اللغة المعتمدة في كتب العلماء ومؤلفاتهم وفي التدريس في الرباطات وفي المساجد والمدارس وحلقات العلم. وقد ظهر في هذه الحقبة البخاري وهو من اعظم من جمع الحديث النبوي الشريف. كما ظهر ابن سينا الفيلسوف والطبيب وكتب للأمير الساماني منصور بن نوح كتابه (القانون في الطب). إن هذه المظاهر ان دلت على شئ فهي تدل على ان الحركة الثقافية العربية الاسلامية كانت اقوى من الميول العنصرية مجوسية لبعض الشعراء وتدل كذلك على مقدار تعربُ الفرس ومقدار تعرب الترك من اهل بخارى وسمرقند والشاش وغيرها. ثم ان السامانيين حين أرادوا احياء لغتهم الفارسية احتاجوا الى ان يترجموا كتب التاريخ والعلوم الشرعية والعقلية العربية. إن هذه الثقافة العربية الاسلامية القوية كانت اقوى من حد السيف في حماية الحدود الاسلامية خلال هذه المدة.

وبعد فرغم ان الكيانات التي تعاقبت في خراسان وماوراء النهر بعد السامانيين كانت كيانات تركية الا انها تعد من افرازات المد الثقافي العربي الاسلامي الذي ساد في هذه المدة .فقد وسع الغزنويون نفوذ الأسلام في شبة القارة الهندية وكانت مدن الخاليين مثل كاشغر عربية الحضارة اسلامية العقيدة تركية العنصر فارسية الأصول والمراسم حتى ظهر الغز السلاجقة وهم اتراك ايضا فينوا نفوذهم كذلك على الجهاد والدفاع عن الاسلام ضد الروم في الخارج وضد الباطنية الحشيشية في الداخل .على ان العلاقات بين الفرس والترك تغيرت الى نزاع حاد في عصر السلاجقة .ويرى بعض الباحثين إن هذا النزاع اضافة الى الميول العنصرية المجوسية الدفينة للفرس هو الذي اوحى للشاعر الفردوسي بكتابة الشاهنامة في الحقبة الغزنوية.



البريديون

٣٢٣هـ ــ ٣٣٨هـ / ٩٣٤ ــ ٩٤٩م

البريديون اسرة من المغامرين وذوي الطموحات العريضة الذين يبرزون على المسرح السياسي في أوقات الضعف والانحلال ومثلهم مثل الصفاريين والزياريين والبويهيين في غربي بلاد فارس. اما لقب البريدي فأت من أن جدهم كان يتقلد بريد البصرة ولانعرف من اصله ونسبه شيئا يذكر سوى كونه من اهل البصرة ولم ينسب الى قبيلة ما من القبائل رغم ان رواية تاريخية ادعت نسبتهم الى حمير خطأ على غرار نسبة الحسن بن الصباح زعيم النزارية في بلاد فارس الى حمير كذلك مع انه فارسي الأصل والنشأة!!. كما اننا لانستطيع أن نؤكد او ندحض ادعاء المستشرق ماسينون بكونهم من يهود البصرة او الاحواز.

لقد برز من هذه الأسرة ثلاثة اخوة ابو عبد الله احمد وهو رئيس الأسرة وابو يوسف يعقوب وابو الحسين علي. ويبدو انهم بدأوا حياتهم الوظيفية في جماعة الكتاب في دواوين الدولة ثم بدأوا يتقدمون عن طريق الدخول في التحالفات ومراكز القوى.

ففي حوالي سنة ٣١٥هـ / سنة ٩٢٧م بدأ ابو عبد الله أحمد البريدي بالبروز وتحالف مع الوزير ابن مقلة الذي عينه عاملا على الاحواز. وقد انتهز هذه الفرصة ليجمع الاموال الطائلة فالمال يجذب الرجال والرجال توصله الى ارفع المناصب .حيث يقول عن نفسه.

« هممتُ بالتغلب ووضعت في نفسي الأمرة وتدبير الرجال منذ ذلك لما رأيت انحلال يلبق (امير الامراء) ...».

لكن احوال البريدي واخوته ظلت تتقلب بتقلب الاوضاع السياسية في بغداد وقد تعرض للمصادرة والطرد من منصبه عدة مرات ،فحينما استولى مرداويج على الاحواز سنة ٣٢٢هـ هرب منها البريدي الى البصرة واصبح هناك كاتبا للقائد ياقوت الذي سيطر على البصرة بأمر الخليفة ولكن مقتل مرداويج جعل الصراع يتحول الى تنافس بين البويهيين وياقوت حيث اتفق في نهاية المطاف علي بن بويه وياقوت على ان تكون فارس للبويهيين والاحواز لياقوت والبريدي. كما حصل ابو يوسف البريدي على ضمان واسط ومناطق اخرى. الا ان البريدي خان حليفة ياقوت وقتله سنة ٣٢٤هـ /٩٣٦م بعد ان نهب اموال الأحواز المقدرة باربعة ملايين دينار ممتنعا عن ارسالها الى الوزير ابن مقله ببغداد. وهكذا وبهذه الوسائل بدأ ابو عبد الله البريدي بالظهور ولذلك تصفه رواية تاريخية بانه «احد دجالي الدنيا وشياطينها».

استغل أبو عبد الله البريدي امواله وأموال اخيه أبي يوسف البريدي الذي قتله من اجل الاستيلاء على امواله، استغل هذه الثروة في تكوين جيش قوي يسنده. وكان جيشه يتراوح بين ٧,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ رجل. اما العنصر الغالب فيه فهو الترك والديلم وهما العنصران الرئيسيان

في جيوش تلك الحقبة .وكان يصطنع كل من يستطيع ان يصطنعه من المرتزقة فكان في جيشه زمر من البربر والأعراب القرامطة وجماعة من الاكراد. وفي رواية انه نجح في جذب كتيبه الحجرية الذين هم غلمان الخليفة العباسي!! وبما ان منطقته في الاحواز والبصرة وواسط منطقة اهوار فقد استخدم مراكب وزوارق صغيرة او كبيرة للمواصلات العسكرية ونقل الجند وكان منها الطيارات والسميريات والشذوات.

وسّع ابو عبد الله البريدي نفوذه من الاحواز الى البصرة حيث احتلها سنة ٣٢٥هـ وبقي نفوذهم فيها حتى سقوطهم. وقد اتبع سياسة تعسفية تجاه اهل البصرة ونهب اموالهم. كما احتل واسط سنة ٣٣١هـ ولكنهم لم يتمكنوا من بسط سيطرتهم عليها بصورة دائمية. وحين كان ابو عبد الله البريدي في واسط بدأ يهدد بغداد ويتوعد باحتلالها وهذا مادعى امير الامراء ابن رائق الى اعطائه لقب الوزير. على ان ذلك المنصب لم يقنعه بل أصرّ على احتلال بغداد سنة ٣٣٠هـ .

ولم يكن لدى الخلافة العباسية جيش يعتد به كما ان جند ابن رائق لم يصمدوا طويلا مما دعا الخليفة وامير الامراء ابن رائق للهرب الى الحمدانيين بالموصل. وقد نهب الجند الديلم في جيش البريدي دار الخلافة وقتلوا الكثير من اهل بغداد الذين صمدوا لهم وحاربوهم وتشير رواية تاريخية الى أن اهل بغداد تعرضوا «للضرر والضرائب والغلاء ..» اثناء الاحتلال البريدي للمدينة.

لم تدم مدة حكم البريديين على بغداد اكثر من ثلاثة اشهر ونيف شهدت بغداد خلالها القلاقل والاضطرابات والغلاء والسرقة والمعارك بين جند البريديين انفسهم. وانتهت بهرب ابي الحسين البريدي امام ناصر الدولة الحمداني الذي قتل ابن رائق وتقدم نحو بغداد بصحبة الخليفة الهارب المتقي .وغدا ناصر الدولة امير الأمراء.

وخلال هذه المدة لم تكن علاقة البريديين بالخليفة العباسي حسنة. فالخليفة المتقي لم يكن يودهم ولم ينسى سياستهم التعسفية التي جعلتهم قطاع طرق وليسوا حكاما اداريين او سياسيين ولهذا لم يمنحهم المنصب الذي كانوا يتوقون اليه في بغداد وهو منصب (إمرة الأمراء) بل امر ابن رائق باعطائهم لقب الوزير. ورغم ان البريدي كتب الى الخليفة المتقي مؤكدا له ولاءه وانه «لايريد الا خدمته والانتهاء الى مايريده ويأمره به فلم يلتفت الى ذلك ورحل الى سر من رأى ». وقد عاد ابن رائق فعزل البريدي عن الوزارة كذلك.

إنهيار البريديين:

لم يكن البريديون من القوة بحيث يستطيعون الصمود امام القوى المختلفة المتصارعة في المنطقة كما ان سياسة ابو عبد الله البريدي المبنية على الدس والخيانه وعدم الوفاء بالوعود ابعدت عنه الخلافة العباسية وامراء الأمراء ،حتى البويهيين في فارس.

ولقد استنزفت طاقتهم المالية والعسكرية بدخولهم صراعات عديدة مع الحمدانيين والبويهيين وكذلك حاكم عمان يوسف بن وجيه الذي احتل الأبله وهاجم البصرة عدة مرات بالمراكب والشذاءات دون جدوى.

وفي سنة ٣٣٢هـ / سنة ٩٤٤م مات ابو عبد الله البريدي مؤسس كيانهم وبدأ نفوذهم بالانحلال ذلك ان ابا الحسين علي البريدي الذي خلف ابا عبد الله لم يحكم الا اياما وانقلب عليه قادة جيشه فهرب الى قرامطة البحرين. واستلم الرئاسة ابو القاسم بن ابي عبد الله البريدي الذي لم تكن له اهمية سياسية كما ان علاقته بالبويهيين كانت سيئة فقد حاول معز الدولة البويهي انتزاع بغداد من توزون أمير الامراء وطلب من ابي القاسم اعارته «عسكر الماء» لمساعدته في الهجوم ولكن هذا الأخير لم يستجب لذلك .وقد انتهز معز الدولة فرصة للهجوم على البصرة وانتزاعها من البريدي ٩٤٧م / سنة ٣٣٦هـ حيث هرب ابو القاسم الى قرامطة البحرين في هجر .وبذلك سقط النفوذ البريدي بعد ان انتزع معز الدولة اقاليمهم في الاحواز ثم واسط ثم البصرة الواحدة تلو الاخرى. وكما يقول المثل «على نفسها جنت براقش» ذلك لان البريديين هم الذين شجعوا معز الدولة وسهلوا له امر الهجوم على العراق واحتلال بغداد ،فأسقطهم معز الدولة بعد ان احتل بغداد.

الفصل الخامس
بلاد فارس في العصور العباسية المتأخرة

المبحث الأول:

البويهيون في بلاد فارس

يقترن اسم البويهين بتاريخ ايران السياسي والعقائدي،فهذه الدولة «الديلمية» الاصل تختلف عن الدول الايرانية التي قامت في ايران من سامانين وزياريين وصفاريين وغيرهم في انها تمكنت من الاستحواذ والهيمنة على دولة الخلافة نفسها تلك الظاهرة التي لم تكن لها سابقة من قبل في التاريخ العباسي،ومن تكوين حكومات لثلاثة فروع بويهية .بحكم احدها من بغداد، اضافة الى فرعيها في كل من شيراز والري(١) . وكان هذا العمل بحد ذاته انجازا كبيرا من عماد الدولة: مؤسس الدولة البويهية لان مثل هذا الامر لم يتكرر في ايران بشكل مشابه الا في اعقاب حكم الصفويين. المسؤولين عن تحويل ايران الى الوضع الذي استقرت عليه تقريبا في العصر الحاضر، بالرغم من ان هذه الدولة في انجازاتها الفكرية ظلت عيالا على الفكر العربي الاسلامي والحضارة العربية الاسلامية. ومن هنا تبرز اهمية حكم هذه الأسرة في التاريخ الايراني ،التي ظلت تتحكم فوق معظم اقسام ايران، باستثناء خراسان ومشرق ايران لمدة لاتقل عن قرن من الزمان، مابين الربعين الاولين من القرن الرابع والخامس الهجرين / العاشر والحادي عشر الميلاديين، عندما بدأ سلاطين السلاجقة ،خلفاء البويهين في الحكم ،بتصفيه مراكز الحكم البويهية في ايران والعراق

عماد الدولة وقيام الامارة البويهية: قامت الامارة البويهية ونمت على اكتاف شخصية علي بن بويه (عماد الدولة(٢) لاحقا)، اكبر اخوة ثلاثة تحدروا من ابي شجاع بويه هم علي، والحسن (ركن الدولة) واحمد (معز الدولة). وكان ابو شجاع بويه ينتسي الى عائلة ديلمية متوسطة الحال تسكن بلاد الديلم الجبلية ،الى الجنوب من بحر قزوين. وقد بدأ عماد الدولة حياته الاولى بالخدمة في بلاط نصر بن احمد ،امير السامانين، حكام ماوراء النهر وخراسان، ثم التحق بخدمة ماكان بن كاكي، احد الامراء الجيلانيين،الذين كانوا يشكلون جيش الحسن بن علي الاتروش ،المسؤول عن نشر الدعوه الزيدية في طبرستان. وقد اخلص عماد الدولة لما كان فما كان منه الا ان يقدمه على اقرانه من الامراء الملتحقين بخدمته ،الى الحد الذي مكنه من ان يدعو اخويه ركن الدولة ومعز الدولة الى الالتحاق بجيش ماكان. ولكن سرعان ماغير عماد الدولة (يتبعه أخواه) ولاءه لما كان شأنه كشأن معظم الامراء العسكرين لهذه الحقبة. بعد فشل المغامره التي قام بها ماكان في خراسان ضد مرداويج بن زيار، الذي يشابه ماكان في الرتبة والانتساب ويفوقه في القوة والحظ.

ولذلك حول عماد الدولة وأخواه ركن الدولة ومعز الدولة ولاءهم الى مرداويج ،المنتصر الجديد من هذا النزاع الديلمي الأخير بعد ان دخلوا في خدمته وساعدوه في تحقيق هذا النصر على سيادهم السابق ماكان .الّا ان شعور عماد الدولة بمكانته الجديده قد شجعه على التمرد على مرداويج ،بعد ان شك عماد الدولة بنواياه الرامية الى التخلص منه ومن اخويه نتيجة خوف مرداويج من تزايد نفوذ الأخوه الثلاثة و تعاظم طموحاتهم اللامحدوده التي انتهت بانتزاعهم منه منطقتي كرج واصفهان . ولم يكن بأمكان مرداويج ،رغم مناوراته السياسية ، ان يفعل شيئا يذكر لتغيير الوضع الذي ترك امره الى القتل نتيجة مؤامرة دبرت له في اصفهان في ٣٢٢/٩٣٤ اثناء إستحمامه(٣) .

نجاح عماد الدولة في تكوين الامارة البويهية: بدأ عماد الدولة بمعونه اخويه ركن الدولة ومعز الدولة تكوين امارة خاصة بالبويهية متخذين من مناطق الجبال وفارس والأحواز مسرحا لعملياتهم العسكرية، ففي ٣٢٢/ ٩٣٤ نجح عماد الدولة في دخول شيراز ،عاصمة اقليم فارس،التي اصبحت من ذلك التاريخ حتى نهاية البويهين من اهم مراكز الحكم البويهي القائمة في ايران . وكان مرداويج حتى وقت مصرعه المفاجئ قد فرز التوسع في الاحواز ليمنع توسع الامارة البويهية الجديدة في هذا الاقليم.

ثم جاء مقتل مرداويج ليجدد من فعاليات عماد الدولة التي توقفت مؤقتا لتنظيم الأدارة البويهية في شيراز، فتحرك بسرعة في ضم اصفهان، التي كان قد خسرها سابقا مرداويج ،الى مناطق الحكم البويهي بعد ان كان مرداويج قد ضمها اليه، اذ كلف عماد الدولة أخاه ركن الدولة باحتلالها،فأنتزعها من دشمكير أخي مرداويج وحولها في ٣٣٥ / ٩٤٧ الى قاعدة جديدة للفرع البويهي الذي يترأسه شخصيا. كما كلف أخاه الاصغر معز الدولة التوجه الى بغداد فدخلها بوصفه أمير أمراء تابعا لعماد الدولة في ٣٣٤ / ٩٤٥. وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا التوسع الذي اصاب البويهين كان قد حصل على حساب ممتلكات البريديين في الجنوب والزياريين والسامانيين في وسط ايران وشرقها. وما ان جاءت سنة ٣٣٦/ ٩٤٨ حتى كانت حدود الدولة البويهية في ايران والعراق قد تحددت تماما. ولم يكن بالبويهين حاجة الى وقت طويل ليكونوا امارة مترامية في معظم اقسام ايران والعراق ظلت تتحكم بشؤون المنطقة الواقعة تحت نفوذها حتى نجاح السلاجقة في زحزحتهم عن حكم هذه المناطق ،بعد اكثر من مائة وثلاثة عشر عاما.

توفي عماد الدولة في شيراز عن عمر يناهز السابعة والخمسين ودفن في تربة اصبحت مدفنا تقليديا للبويهين ،بعد ان عين فناخسرو (عضد الدولة لاحقا) ،اكبر اولاد اخيه ركن الدولة خلفا له في الامارة.

ركن الدولة: كان ركن الدولة مسؤولا عن تكوين الفرع البويهي الحاكم في الري واصفهان ،واذ بالحملات العسكرية التي قادها ضد مرداويج وأخيه وشمكير مكنتّ هذا الفرع على مناطق وسط ايران، وكان عليه ان يبذل مجهودا اكبر في تثبيت دعائم حكمه هناك لان هذه المناطق كانت مطمحا لانظار الحكام السامانيين من جهة ،والزياريين من جهة اخرى. وكان ركن الدولة قد رضخ فعلا لشروط صلح قاسية فرضها عليه السامانيون منذ سنة ٣٤٢هـ/٩٥١، بما في ذلك دفع غرامه سنوية لحكام السامانيين، بحيث لم يتخلص من بعض من اجزائها الا في سنة ٩٧٢/٣٦١.

وبعد وفاه عماد الدولة في ٣٣٨هـ ، حل ركن الدولة محله في رئاسه الامارة ،البويهية (التي كانت مسؤولة عن نشاط وفعاليات الفرع البويهي المتسلط على بغداد؛ اذ ما انه سمع ركن الدولة بخبر وفاه اخيه حتى توجه الى شيراز لتأمين رئاسه الامارة له .وسار فيها على نهج وخط عماد الدولة في الحفاظ على ممتلكات البويهين باحترام حكم الفروع الثلاثة على مناطق نفوذها.

عضد الدولة والعصر الذهبي للامارة البويهية (٣٦٦ ــ ٩٧٧/٣٧٢ ــ ٩٨٣)

وهو اشهر الامراء البويهين واكثرهم طموحا وخدمه لتطلعات البويهين وتوسعاتهم. فبالرغم من قصر المدة التي بقي فيها هذا الامير على رأس الامارة البويهية اذ لم تزد عن ست سنوات ،فأن جهوده الرامية الى خدمه الامارة البويهية ،عن طريق طموحاته الشخصية ، ووصول حدودها الى الحد للتوسع البويهي ونجاحه في ذلك بجعل من امارته هذه اهم حقبة يشهدها التاريخ البويهي(٥). وكان ما يتوخى عضد الدولة عمله هو تحقيق وحده املاك الامارة البويهية تحت قيادته المباشرة او في تقويه حكم البويهين في العراق عن طريق احاطته بما له من الابهه والمراسيم الملكية. ومن هنا جاء تنفيذ عضد الدولة لسلسلة من الحملات العسكرية الرامية الى اخضاع قائمة مناوئية من حكام الاقاليم والدول المجاورة لمناطق حكمه المباشر. ألا ان هذه المسألة كانت وثيقة الصلة بقضية الفرع البويهي الحاكم في بغداد ، الذي كان ينوى تصفيته.

عضد الدولة وجهوده في توحيد املاك الامارة البويهية: كان عماد الدولة قد رشح عضد الدولة لرئاسه الأمارة البويهية من بعده، مع ان عمر عضد الدولة حين استدعاه عمه الى شيراز لم يكن اكثر من ثلاث عشرة سنة، ولكنه كما يبدو كان الامير البويهي الوحيد من الجيل الثاني الذي تتسم فيه علامات النضج والقيادة والتي كانت سببا في اختيار عماد الدولة له ... ومع ذلك ،فقد ظل عضد الدولة تابعا لامارة ركن الدولة من ولايته بفارس حتى وقت رحيل والده في ٩٧٦/٣٦٦ . عندما بدأ عهده القصير للأمارة البويهية.

كانت سياسة عضد الدولة في توحيد الفروع البويهية تحت قيادته تتطلب منه التخلص من الخط البويهي الحاكم في بغداد الذي اثبت عجزه في الحكم يسبب مقاومه اهل بغداد خاصة واهل العراق عامة له ،كما برهنت على ذلك احداث حكم معز الدولة (ت ٣٥٦هـ) وابنه عز الدولة، والذي سوّغ لعضد الدولة السعي وراء هذا الهدف . ولكن هذا الامر ،الذي كانت ترجع اوليائه الى ماقبل تسلم عضد الدولة رئاسة الأمارة ، كان يتعارض مع سياسة ركن الدولة ،ومن قبل مع عماد الدولة ، الداعية الى استمرار الفروع البويهية في الحكم مهما كانت الظروف ، والتي يترأسها هو شخصيا بحكم زعامته للأمارة البويهية. ولذلك فقد ظلت علاقات عضد الدولة مع ركن الدولة متأزمة حتى وقت توسط وزير الأخير في الخلافة، أبي الفتح من العميد ،الذي رتب اجتماعا بين الاثنين في اصفهان في ٩٧٦/٣٦٦ تم الاتفاق بموجبه على تسمية عضد الدولة، حاكم فارس، خلفا على امارة والده ركن الدولة ، شريطه ان يكون حكمه على الري وهمدان حكما غير مباشر ،اي تلك المناطق التي تخضع لنفوذ اخويه فخر الدولة ومؤيد الدولة على ان يعترف الاثنان برئاسه عضد الدولة للأمارة البويهية. ولم يتخذ ،كما يبدو ،اي قرار بشأن مستقبل الفرع البويهي المتسلط على بغداد من اجل استمرار التعاون بينه وبين المسؤول المباشر عن الأمارة ركن الدولة ،ولكن بعد مرور مدة قصيرة من هذه التسوية توفي ركن الدولة ، ذلك الحدث الذي استغله عضد الدولة لتصفيه الفرع البويهي في بغداد.

وهكذا بدأت حمله عضد الدولة الكبيرة على العراق في ٣٦٦هـ / ٩٧٦ .التي انتهت بتصفية ابن عمه عز الدولة الذي قتل بأوامر مباشره منه، وبتصفية حلفائه من الحمدانين، فرع الموصل، ممن حاول تنظيم الحرب ضد عضد الدولة. وبعد هذه الاجراءات رجع عضد الدولة لمحاسبة حلفاء عز الدولة في البطائح والأحواز والمناطق الكرديه بالتتابع (مع ان حملاته في البطائح كانت فاشلة. ثم قام بمحاسبه أخيه الأوسط فخر الدولة الذي كان قد وقف الى جانب عز الدولة في خلافة مع عضد الدولة، فكلف أخاه الاصغر مؤيد الدولة بمحاربه فخر الدولة وحلفائه من الأمراء الزياريين والسامانين، وتمكن من ايقاع الهزيمة بهم ومع ان عضد الدولة لم يكن موفقا في منع السامانين من اعطاء فخر الدولة وحلفائه حق اللجوء السياسي، الا ان الشئ الواضح هو ان الأمارة السامانية لم تكن من القوة بحيث تتمكن من تبني سياسته عدائية مباشره ضد عضد الدولة.

وهكذا اصبح عضد الدولة في اقل من سنتين من حملاته على مناوئيه حاكما لامارة اكبر حجما من كل التقسيمات البويهية الثلاثة مجتمعة : من عمان الى بحر قزوين ومن كرمان الى حدود شمال سوريا .ومع ان العاصمة الطبيعية لهذه الدولة كانت شيراز، ألا ان عضد الدولة ظل يفضل البقاء والاستقرار في بغداد تمشية اعماله ومراسلاته مع الفاطميين والبزنطين، وقد ظل فيها وقتا طويلا حتى وفاته في ٣٧٢هـ على اثر مرض خطير آلم به وهو في قمه حكمه وانتصاراته.

ولم يكن بالامكان المحافظة على وحدة هذه الامارة المترامية الاطراف إبقاء اقاليمها مجتمعة لوفاة لشخص المسؤول عن تكوينها، ولكن الاهم من ذلك ان هذه الاقاليم كانت تعكس اختلافات سياسية واثنوغرافية لايمكن بموجبها الحفاظ على منها الوحدة بينها ، ولذلك سرعان ما استرجع الملوك والأمراء مناطق الحكم التي خسروها في صراعهم مع عضد الدولة، وسرعان مااستفحل النزاع بين امراء البيت البويهي على الممتلكات البويهية. ومع ان عضد الدولة لم ينجح في بناء اسس ثابتة للأمارة، خاصة في مسألة ولأية العهد ، الا ان المختصين بالتاريخ البويهي يرون أن مدة حكم عضد الدولة وتلك التي تمثل والده في الامارة هي بمثابه العصر الذهبي للامارة البويهية ليس من الناحية السياسية فحسب ، بل حضاريا كذلك(٦). وكان عضد الدولة مقتنعا تمام الاقتناع بأن الحل لمشاكل البويهين السياسية تكمن في ايجاد توافق بين مؤسستي الخلافة والامارة، . الا ان اجراءات عضد الدولة في العراق كانت بدون شك تستهدف تقويه السيطرة البويهية هناك وتحقيق مكاسب سياسية ومالية لخدمة طموحاته ومشاريعه الخاصة(٧).

النزاع بين الامراء البويهين على الامارة البويهية بعد عضد الدولة: نشب النزاع بين امراء البيت البويهي حول من يخلف عضد الدولة في رئاسة الأمارة البويهية .وبالرغم من تعدد المرشحين لرئاسة الأمارة، الا ان المسألة لم تستق بشكل نهائي وانتهى الصراع بأنقسام مملكة عضد الدولة الى منطقتي نفوذ رئيستين: الاول في ايران بإمارة فخر الدولة والاخرى في العراق برئاسة صمصام الدولة مع عدد من الامراء التابعين لكل منهما. والحقيقة ان مرشح عضد الدولة لرئاسة الامارة كان مؤيد الدولة، الاخ الاصغر للامير الراحل، الذي كان عضد الدولة قد كلفه بمهمة محاربه فخر الدولة عندما وقف بجانب عز الدولة أثناء الصراع مع عضد الدولة حول مستقبل الفرع البويهي في بغداد ، الذي انتهى به الحال الى اللجوء عند السامانين .وكان هذا الامير المتشرد وجد نفسه فجأه سيد ايران البويهية عند وفاه مؤيد الدولة بعد مدة قصيرة من رحيل عضد الدولة نفسه؛ فقام وزيره المؤيد، الصاحب بن عباد(٨)، خلف أبي الفتح بن العميد في الوزاره بتوجيه الدعوه الى فخر الدولة بالمجئ من نيسابور الى جرجان لاستلام امور الحكم ،بعد ان اخذ موافقة امراء الجيش في اجتماع عام عقد في جرجان لهذا الغرض. وهكذا اصبح فخر الدولة حاكما مطلقا على المناطق التي كانت تتكون منها الأمارة زمن مؤيد الدولة (الري واصفهان وهمدان وجرجان). وقد حاول فخر الدولة بتشجيع من وزيره ابن عباد مهاجمة خراسان . مركز تشرده سابقا. واضافتها الى ممتلكاته لأهمية خراسان الكبيرة في علاقاته مع السامانيين. وقد قاد حملتين كبيرتين لتحقيق هذا الغرض ،ولكن المحاولتين فشلتا في اخذ خراسان من السامانين. وكان الوزير ابن عباد من انصار سياسة عضد الدولة المركزية وهو الذي كان يقف وراء تشجيع فخر الدولة في تبنى السياسة نفسها هذه المرة بالتوسع في فارس والعراق .

وكان الابن الاكبر لعضد الدولة المدعو شرف الدولة قد تمكن اخيرا من الاستحواذ على الامارة في بغداد (٣٧٦ ــ ٩٨٧/٧٩ ــ ٨٩) ،بعد صراع مع اخيه صمصام الدولة (٣٧٢ ــ ٩٨٣/٧٠ ــ ٨٧) واخذ بالاستعداد لمواجهة سيد ايران البويهية فخر الدولة. ولكن الموت الذي جاءه فجأة وضع نهاية لاحلامه وهو لايتعدى الثامنة والعشرين، فقط ليتبعه بهاء الدولة (٣٧٩ ــ ٤٠١ / ٩٨٩ ــ ١٠١٢)؛ الذي استمر مايقرب من عقدين ونصف من الزمن .ولم يتحسن هذا الوضع خلال حكم خلفاء بهاء الدولة كل من سلطان الدولة (شيراز) ابو كاليجار ومشرف الدولة (شيراز ايضا، وجلال الدولة (٤١٨ ــ ٤٣٥ / ١٠٢٧ ــ ١٠٤٤) الذي كان قد مد حكمه في اواخر سنوات امارته الى فارس(٩). وكان جميع هؤلاء الامراء قد تلقبوا بلقب «شاهنشاه» اي ملك الملوك المستعمل عند الساسانين القدامى. ولكن في حقيقة الامر الواقع ،لم يبق لرئاسة الامارة البويهية معنى يذكر، خاصة بعد تقلص المناطق التي كانت تشكل حدود امارتهم.

اما في وسط ايران وغربها فكان فخر الدولة قد ترك ولدين احدهما يحكم في الري بأسم مجد الدولة والأخر في همدان وكرمنشاه بأسم شمس الدولة. وكانت القوى المجاورة قبل مجئ الضربة القاضية على يد السلاجقة، قد بدأت بالتدريج بتصفية ماتبقى لبويهيين من ممتلكات ،مثلا قيام السلطان محمود الغزنوي في اواخر سلطنته بأخذ الري بعد ان وجهت له دعوه من حاكمها مجد الدولة يستغيث به من تمرد الجيش عليه،اما حكام بنو الكاكويه في استحواذهم على همدان في ٤١٤هـ وظل الوضع هكذا حتى ظهور السلاجقة على مسرح ايران السياسي.

خصائص الادارة والحكم عند البويهين: لم يتمكن البويهيون من تحقيق وحده ايران السياسية ومن مد نفوذهم الى اقاليم ايران المختلفة، بالرغم من ان هذا الانجاز ظل حلما يراود اشهر حكام البويهين ،عضد الدولة. ويعود السبب في ذلك الى ان طمعهم وتوسعهم كان موجها الى خارج حدود ايران، دولة الخلافة بصورة خاصة وممتلكاتها، التي كونوا فيها فرعا يحكم من بغداد يتبع الامارة الحاكمة في شيراز،وفي فشلهم في تحقيق اي شئ من هذا التوسع على حسب السامانين والغونوين المناصرين للخلافة العباسية والخليفة العباسي. كما يرتبط سبب الفشل بطبيعة الحكم البويهي ونظام الوراثة المرتبط به: فقد كان الحكم البويهي حكما لامركزيا تتعدد فيه مراكز الحكم التابعة لفروع البويهية في شيراز والري واصفهان وهمدان وبغداد. وبأستثناء امارة عضد الدولة ،ظل هذا الوضع هو الحالة التي يتميز بها الحكم البويهي ؛ كما عانت الامارة البويهية من صراع الامراء البويهين حول الأمارة وممتلكاتها وسببت في ضعفها وتقلص نفوذها لان الدولة البويهية لم تتمكن من تطوير نظام وراثي خاص بها فتعددت مراكز النفوذ البويهي وتنافست فيما بينها. وبالرغم من انتساب هؤلاء البويهين الى النسب البويهي الواحد الّا ان الخلافات كانت شديدة في ما بينهم ،ولم يكن حسمها ممكنا بدون اللجوء الى اسلوب القتل والاغتيال.

وكان البويهيون الأوائل يفتقرون الى مستوى حضاري يقترن بالقاعدة التي انطلقوا منها التي كانت قد انتشرت بينها الافكار الزيدية. ويظهر هذا الافتقار واضحا في مسألة النسب الذي تنكروا له بتبني انساب جديدة تتناسب مع اوضاعهم السياسية والحضارية الجديدة بشكل خاص تبنى التنسب الساساني الذي يعود بهم الى بهرام جور، والذي كان يتفق مع نشاط البويهين في احياء العادات والتقاليد الساسانية الخاصة بأصول الحكم ونظرياته. واول نسب كامل ادعاه للبويهين يرد في كتاب التاجي في الدولة الديلمية الذي الفه ابو اسحق الصابئ وهو في السجن بناءا على اوامر عضد الدولة لتغطيه تاريخ الدولة البويهية مقابل الحصول على حريته. ومع ان خصائص هذا النسب الاسطورية كانت معروفة حتى لدى المؤرخين المعاصرين ،ألا انه ظل في التداول بروايات مختلفة بين عدد كبير من المؤرخين المتأخرين. وكل المؤشرات ترجح بأن مصدر هذا النسب لم يكن سوي بلاط عضد الدولة نفسه.

كما ان البويهين بسياستهم الدينية والمذهبية التي عرفوا بها قد جعلوا من ايران منطقتين اداريتين متميزتين: الأولى تشمل الاتجاه البويهي في الأدارة الذي كان يضم اتجاهات باطنيه سائدة في غرب ايران، وهو الاتجاه الذي انتج فيما بعد تلك الحركات الهدامة التي قامت هناك بأسم الحشيشية او الاسماعيلية ،ثم الاتجاه الاداري الذي يمثله الخراسانيون التقليدية ، وهو المعروف بميوله في الادارة، التي يمثلها فيما بعد — نظام الملك عهد السلاجقة.

البويهيون والجوانب الحضارية والثقافية: بالرغم من طبيعة هذه الامارة الفارسية الأصل والمعروفه بأتجاهاتها السياسية المناوئه للعباسين، وبالرغم من جهل الامراء البويهين من الجيل الأول بالعربية وبأدابها، فأن الثقافة التي انتشرت وسادت خلال حكم تلك الامارة كانت تحمل الطابع العربي الاسلامي وتقاليده. ولهذه الظاهره اسباب تاريخية عميقة اهمها التأثير الكبير الذي كانت قد تركته اللغة العربية وادابها في اقاليم ايران البويهية ومناطق النفوذ البويهي خارج العراق كوسيلة من وسائل المراسلات والعبادة . كما ان هيمنه وزراء بويهين متأثرين بالثقافة العربية ومتمكنين من ادابها على رأس الأدارة البويهية له ارتباط كبير في نفسها كشخصية الكاتب الفذ أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة لمدة ثلاثين سنة، ودور ابنه أبي الفتح والوزير المشهور الصاحب بن عباد الذي وزر لكل من مؤيد الدولة وفخر الدولة ،والذي تميز بأطلاعه الواسع على مختلفُ الاداب والعلوم العربية وتشجيعه لها .ولكن يجب ان نتذكر أنه كان هناك شعور متزايد منذ امارة عضد الدولة بين الامراء البويهين ليستهدف احياء الثقافة الايرانية القديمة والأدب الساساني القديم والعادات والتقاليد الساسانية في الحكم.

الهوامش:

١. ينقسم التاريخ البويهي من حيث ارتباطه بحكم العائلة البويهية الى ثلاثة مناطق نفوذ مركزها شيراز والري وبغداد. وسوف نركز على فعاليات فرعي شيراز والري ضمن تاريخ ايران السياسي ،الا اذا تطلب سياق الكلام غير ذلك.

٢. عن سيرة عماد الدولة واخواته يراجع ترجمة ابن خلكان ،وفيات الاعيان، م٣ ، ص٣٩٩ — ٤٠٠.

٣. احسن المعلومات عن نشوء الدولة البويهية وجهود الأخوة الثلاثة موجوده في ابن الاثير، الكامل في التاريخ ،م٥٨ ، ص٢٦٤ — ٢٧٠،مسكويه، تجارب الامم، م١ ،ص٢٧٤ فمابعد .

٤. تمثل الأمارة البويهية استمرارا طبيعيا لمنصب امير الامراء، الذي ظهر في اعقاب فشل الأدارة العباسية من حل المشكلة المالية التي حدثت خلال خلافة المقتدر والتي اتخذت شكلها الرسمي زمن الراضي باستدعائه ابن رائق في ٣٢٤ لاستلام شؤون الحكم مقابل تهيئة الاموال اللازمة لدفع نفقات الدولة، ففي هذا المحتوى كان عماد الدولة هو الذي يشغل امره الامراء بينما كان معز الدولة في بغداد تابعا له.

٥. عن عضد الدولة واحداث امارته والانجازات التي تمت خلالها يراجع ماكتبه الاستاذ بوسه H - Busse في تاريخ كمبرج لايران، م٤، ص٢٦٢ — ٢٨٩. والدراسة التي قام بها من قبل فضل الله كبير ،الباكستاني الأصل، عن بويهي بغداد، ص٤٢— ٦٨.

٦. انظر بوسه، المصدر ذاته، م٤، ص٢٧٢ — ٢٧٣.

٧. كان ضد الاتجاه يمثل قاعدة بويهية عامة لكل امراء الفرع البويهي في بغداد ،وعلى الباحث مقابلتها في ضوء النظره البغدادية لهذه — الامارة — التي يمثلها خير تمثيل ابن الجوزي والمصادر البغدادية التي اعتمد عليها في المنتظم.

٨. يقارن عمل الصاحب بن عباد عاده بكل من الوزيرين نظام الملك السلجوقي وشمس الدين الجويني لحقبة الايلخانيه . وقد كان بدون شك من اهم وزراء الدولة البويهية.

٩. توجد خلاصه للاحداث التي حصلت خلال حكم هؤلاء الامراء في دراسه كبير،

١٠. عن مسألة النسب البويهي والشك في صحته راجع ابن خلكان ،وفيات الاعيان م١، ص٥٢، م٤، ص٥١، ابن الاثير ،الكامل، م٨، ص٢٦٤ — ٢٦٥.

١١. نظام الملك ،سياسته . نامه اوسير الملوك، ص٢٠٣.

١٢. كما عمل جلال الدولة مع الماوردي الذي رفض الاذعان لاوامره. انظر ابن الاثير، الكامل، م٩، ص٤٥٩.

المبحث الثاني:

الغزنويون: الغزنويون الأوائل في بلاد فارس

تأخذ الامارة الغزنوية اسمها من غزنه، احدى مدن اقليم خراسان التابع للأدارة السامانية قديما، ومن مدن افغانستان حاليا. فهذه الدولة من وجهة نظر ضيقه جدا دولة تركية الأصل حيث ان العائلة المسؤولة عن قيامها، اي عائلة سبكتكين هي اسرة تركية الاصل من التركستان ،وان عناصر الجيش ووحداته الرئيسية التي يتزعمها السلطان الغزنوي نفسه هي وحدات تركية مكونه من طبقة الغلمان المماليك العسكرية المتنفذه ضمن وحدات الجيش العباسي او تفرعاته، التي جهزت الجيش الغزنوي بالعناصر القيادية اللازمة. الّا ان هذه الامارة ليست ايرانية الاصل ولم تكن يوما ما كذلك ،بالرغم من ان اغلبية رعاياها كانوا من الايرانين وبالرغم من ان الادارة الغزنوية في تشكيلاتها كانت تعتمد على عناصر ايرانية متخصصة في الأدارة وامور الحكم. ومع ذلك ظلت الدولة الغزنوية مرتبطة بهذا التاريخ لانها تعد وريثه لحكم امارة ايرانية مهمة هي الامارة السامانية، الذين كانوا قبل حصول هذا التحول اسياد الغزنوين وسلاطينهم واحتفظوا بعلاقات طيبة مع الخلافة العباسية وممثليها من الخلفاء.

تولى الحكم الامارة الغزنوية بين وقت قيامها على يد سبكتكين في ٩٧٦/٣٦٦ وزوالها في ١١٨٧/٥٨٣ سبعة عشر حاكما بين سلطان وامير وملك، اشتهر من بينهم سبكتكين ومحمود ومسعود المعروفون بالغزنوين الاوائل. ومع ان هذه الامارة كانت قد استمرت في الحكم ـــ حتى الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، الّا انها كانت قد انتهت قوة سياسية ـــ عسكرية حاكمة فوق ايران في ١٠٣٩/٤٣٠ على اثر انتصار السلاجقة الكبير في دندانقان على سلطان الغزنوين مسعود، حيث تحولت منذ ذلك الوقت الى قوة ثانوية خاضعة لرحمة السلاجقة ،من قواعدهم مرو وبلخ في القسم الشرقي من ايران واستمرت على هذه الحال حتى بعد انتقال مركزها من غزنة الى البنجاب في شبه القارة الهندية. والواقع ان الامارة الغزنوية لم تتمكن في اوج توسعها من حكم ايران حكما مركزيا او توحيد اقاليمها المختلفة تحت قيادة السلطان بل اقتصر حكمها على حدود ايران الشرقية، اي المناطق المكونة لاقليم خراسان ،وايضا الري وجرجان من مناطق ايران الوسطى ولو ان هذه الهيمنة لم تستمر طويلا .ويرجع سبب ذلك الى اهتمام سلاطين الغزنوين بالتوسع في شبه القارة الهندية، والى وجود دولة منافسة للغزنوين في وسط وغرب ايران تعادى الغزنوين مذهبيا ،هي الدولة البويهية. واخيرا الى ظهور السلاجقة بشكل مفاجئ في قاعدة حكم الغزنوين ،خراسان، بحيث لم يعط اتجاه السلاجقة المتصاعد مجالا لسلاطين الغزنوين لتنفيذ خططهم الرامية الى التوسع غربا على حساب المناطق البويهية في وسط

وغرب ايران ،التي كان قد بدأها مسعود .وكانت ايران قبل قيام الامارة الغزنوية يحكمها السامانيون . مركزهم في بخارى ،من ماوراء النهر ،التي كانت تهيمن سياسيا واداريا على خراسان بقاعدته نيسابور ومدنه الرئيسية المهمة مرو وبلخ وغزنة وهراه وبست وبيهق وغيرها من المدن التي تدخل في ضمن حدود ايران الشرقية. ولتوضيح خصائص الحكم الغزنوي في ودور الغزنويين السياسي والحضاري سندرس اولا نشوء الامارة الغزنوية ثم تتابع خصائص الحكم من خلال احداث امارة وسلطنه كل من سبكتكين ومحمود مسعود من حيث علاقتها بايران فقط(٢).

قيام الإمارة الغزنوية ونشأتها: يقول ابو الفضل البيهقي،مؤرخ الغزنويين الرسمي عن قصة نشوء هذه الامارة وزوال نفوذها عن خراسان.إن هذه الامارة كانت قد ولدت في مرو وفقدت منزلتها السياسية والعسكرية في مرو ايضا، يقصد بالحدث الاول انتصار السلطان محمود على قائد السامانيين بكتوزون في ٣٨٩/٩٩٩، وبالاخير هزيمة مسعود الشنيعة على يد طغرل بيك وجغري بيك في دندانقان. وقد اصاب البيهقي الدقة بتقويمه لولاده الامارة الغزنوية الفتية ،الا ان انتصار محمود لم يكن ممكنا بدون جهود والده في تكوين قاعدة عسكرية له في غزنة.

امارة سبكتكين وجهوده في الانفصال عن الامارة السامانية: كان سبكتكين (الامير المحبوب) نموذجا نادرا بين امراء الجيش الساماني، وعسكريا واداريا ناجحا بحيث استرعت سيرته وخلقه انتباه معاصريه من المسؤولين ،ابتداءا بقائد الجيش الساماني البتكين(٤) . ويكفي على موهبته نجاح سبكتكين في اجتياز الرتب العسكرية التي يتدرج بها الغلام المجند من الاتراك بين تجنيده ووصوله الى رتبة «امير» في الجيش الساماني ،المعروف بتنظيماته العسكرية المشددة ، في وقت اقصر بكثير من وقت اي من نظرائه المرشحين لدخول الجيش الساماني.

كان سبكتكين واحدا من قواد البتكين ،قائد الجيش الساماني، وبوجه الخصوص كان احد غلمانه ومواليه وقد جعل منه موضع ثقته لاسراره، ولم يخف البتكين اعجابه هذا بسبكتكين فأختاره لقيادة قوة ولده ابن اسحق ،الذي كان يشغل منصب حاكمية غزنة(٦)، ممثلا للسامانيين هناك. وكان كل هذا من حظ سبكتكين لان يكون البتكين سيده المباشر لانه هو الذي كان وراء السر في التدرج برتب الجيش والارتقاء بسرعة الى درجة امير في الجيش الساماني. أما سبكتكين فقد كان ولاؤه لسيده البتكين ولاء مطلقا لايتزعزع، لذا نجده يشارك مع البتكين في المؤامرة الفاشلة التي دبرها الوزير ابو علي البلعمي ضد الامير الساماني نصر بن نوح مما اضطر الى البحث عن ملجأ له في غزنة. ولكن نجاح سبكتاكين في تكوين الأمارة الغزنوية يرجع الى مجهوده الشخصي بدون شك.

ارتقى سبكتكين الامارة على اثر خلو حاكمية غزنة ،بعد ان شغرت بوفاه اميرها ابو اسحق في ٩٧٦/٣٦٦. وكان امراء غزنة قد اختاروا في البداية امير في امراء الحامية بأسم ـيـ، ولكنهم سرعان مانخلوا عنه لضعفه لصالح سبكتكين بعد ان قرروا اخيرا اختياره للأماره، حيث ظل فيها اميرا متمكنا بدون انقطاع مايقرب من عشرين كان ٢٦٦ ـ ٣٨٧هـ .

كانت سياسة سبكتكين خلال مدة امارته تستند الى مبدأ التوسع على حساب الأمراء المحليين، شأنه في ذلك شأن بقية هذا النفر من الامراء الذين يرغبون في زيادة مواردهم المالية عن طريق مد نفوذهم السياسي الى المناطق الخاضعة لمنافسيهم من الامراء او الضعفاء منهم. وهكذا ضم سبكتكين الى امارته المناطق التي كان يحكمها امراء بست وقصدار في ٩٧٦/٣٦٦، كما استحوذ على مناطق مهمة من شبة القارة الهندية بعد نجاح جهوده هناك ضد غريمه جيبال «ملك الهند» . وهذا النجاح تحقق بفضل الاستقرار الذي كانت تتمتع به امارته واخلاص قواد القوة التي كانت بمعيته والموزعة بين بلخ وغزنه (التي كان سبكتكين قد تنجح في حل مشاكل ادارتها الحالية) ،فضلا عن قيادته المتميزة بكل ماعرف عنها من تعقل وموهبه.

ولكن رغم استقلاله في غزنة فقد ظل سبكتكين معترفا بسيادة السامانين عليه وظلت سياسته العسكريه، بعد فشل مؤامره البتكين ، تتحاش الاصطدام المباشر مع السامانين. ولذلك فقد بقيت هذه الأمارة محدوده النفوذ ولم تتحول الى دولة مهابة الجانب الا بجهود ولده محمود الذي تمكن من حل مشكلة خراسان والسامانين.

جهود السلطان محمود في تثبيت الحكم الغزنوي: يعد السلطان محمود بأجماع المختصين في التاريخ الغزنوي اهم حاكم من حكام غزنه السبعة عشر، الذين توارثوا حكم هذه الامارة ،فإليه يرجع الفضل في تحويل الامارة الغزنوية التي تركها سبكتكين الى سلطنه واسعة النفوذ والممتلكات وهو الذي نشر الاسلام في شبه القارة الهندية بعد جهود العرب الاولى في هذه الجهة .وبفضل هذه الانجازات وسيرته الذاتية ،اكتسب محمود شهره غير عاديه بين مؤلفي كتب التراجم والطبقات؛ مثلا ،يعده تاج الدين السبكي واحد من بين خمسة مشاهير من حكام المسلمين في العصور الوسطى ممن اشتهروا بعد التهم السياسية. بينما يهاجمه الكتاب الهنود بدون رحمه للاعمال التي ينسبون اليه ارتكابها في بلادهم اثناء تنفيذ الجيش الغزنوي لعمليات الجهاد والفتح هناك. وقد تكللت كل هذه الجهود ببناء امارة كبيرة شملت حدودها في وقت وفاته في ١٠٢٩/٤٢١ مناطق البنجاب واجزاء من أقليم السند من جهة، وبلوجستان وافغانستان وغرجستان والغور وسيستان وخراسان وفارس الى حدود الجبال (من ايران الغربية) من جهة اخرى(٧) : فكيف تمكن السلطان محمود من تحقيق هذه الانجازات الكبيرة وماعلاقة ايران بتاريخ هذا السلطان المشهور؟ للأجابه عن السؤال سندرس سلطنه محمود وانجازاته العسكرية والسياسية عن طريق تتبع

جهوده الرامية الى تأمين الامارة الغزنوية بالقضاء على تحديات امراء البيت الغزنوي له ثم جهوده الرامية في القضاء على مناوئيه من الحكام المعارضين،وعلى راسهم اسياده السامانين . وكان محمود حاكما محظوظا عند بداية عمله السياسي العسكري، فالسامانيون في حاله لايحسد عليها في الضعف بعد ان اوشك نظامهم على الاحتظار بفضل ضربات القرخانين، حكام التركستان ، والبويهيون بعد عضد الدولة، لم يبدوا قوة سياسية خطرة على شرق ايران، ولهم مايشغلهم من مشاكل داخلية عويصة.

سلطنه يمين الدولة ابو القاسم محمود: امتدت سلطنة محمود مده تقارب أربعا وثلاثين سنة من عمره البالغ ستين عاما، تنحصر بين سنة ٣٨٧ و ٤٢١ هـ. وكان محمود هو الأمير الوحيد من بين امراء البيت الغزنوي من الذكور البالغين ممن يصلح لحكم الأمارة الغزنوية بعد وفاه سيكتكين ،لعوامل الخبرة والقابلية التي كان محمود قد اظهرها بوضوح اثناء امارة والده. ولكن هذه الأمارة لم تستقر لمحمود الا بعد التخلص من منافسة اخيه اسماعيل، مرشح سيكتكين للأماره.

التخلص من اسماعيل: كان سيكتكين لاسباب خاصة به قد عهد بالأمارة الى ابنه اسماعيل ، بالرغم من ان محمود هو الابن الاكبر من بين اولاد سيكتكين الثلاثة محمود واسماعيل ونصر، وبالرغم من ان هذا العهد لم يأت الا قبيل شعور سيكتكين بدنو الآجل.

طلب محمود في سلسلة من المراسلات مع اخيه اسماعيل التنازل عن الأمارة لصالحه شخصيا، مذكرا اياه بأحقيته لها على اساس من السن والمركز، وبأن سيكتكين ماعمل مثل هذا الأمر الا بسبب غياب محمود عن غزنة، ووعد اسماعيل في حالة قبول التنازل بضمان حقوقه كاملة. ولكن اسماعيل لاسباب واضحة رفض التفاهم مع محمود وفضل الثبات مع قوته العسكرية في غزنه الى وقت اسره من امراء الجيش في غزنه عندما اذعن للصلح :على ان تكون الأمارة لمحمود وان يعوض اسماعيل بحاكمية بلخ، مركز ولايته قبل ترشيحه للأمارة. وكانت كل الدلائل تشير الى خروج محمود منتصرا ان هذا النزاع فقد أمن مساعدة عمه بغراجق ، امير هراه، ودعم أخا محمود الاخر نصرا حاكم بست، كما ضمن تأييد امراء الجيش الغزنوي الذين كانوا في خدمه اسماعيل والذين كانوا قد وجهوا دعوة الى محمود بالمجئ الى غزنة لغرض تسليمها الية(٨). والحق ان انتقال الأمارة الغزنوية من سيكتكين الى محمود كان امرا محتما فقد كان اسماعيل كما برهن خلال مدة حكمه التي لم تزد عن ستة اشهر ،اميرا مسالما يفتقر الى عناصر الخشونة والمقاومة الحربية التي كان لابد منها في لكل من يتطلع من الامراء لاشكال الأمارة، والى احترام امراء الجيش له؛ بخلاف محمود الذي اقترن اسمه بأسم والده في حروبه بالهند والذي عرف بتجربة السن والمركز.

القضاء على الحكم الساماني: كان السامانيون يعيشون ايامهم الأخيرة عاجزين عن الدفاع عن حدود امارتهم،العاصمة بخارى بضمنها، ضد تحرشات القوى المجاورة لهم، او حتى الحد من طموحات امرائهم من امثال أبي علي سيمبجور (ت ٣٨٥هـ وقائق خاصة، مثلا نجاح الأمير القرخاني بغرا هارون في ٩٩٣/٣٨٣ في احتلال بخارى دون ان يتمكن نوح بن منصور من ان يفعل شيئا لأسترجاع عاصمة بلاده، فأضطر الى الخروج موقتا عن بخارى والاقامة في أمل الشط ولم يتمكن هذا الامير من استرجاعها الّا عندما جاءته البشرى بوفاه نصرا . وقد ادى هذا التهديد المباشر للوجود الساماني الى اعتماد امرائهم على مساعدة الحكام المحليين في الدفاع عن انفسهم. وكان محمود احد هؤلاء الامراء المهمين الذين تهيأت لهم فرصة التدخل في شؤون السياسة السامانية خلال حكم كل من نصر بن نوح واخيه منصور، بعد الفراغ الذي احدثه السامانيون في خراسان.

كان محمود طموح غير متناه في ضم خراسان الى امارته وفي تنفيذ ذلك بكل الوسائل التي لديه ،بعد ان اصبح احدى الشخصيات الرئيسة التي تقرر مصير ماتبقى من الامارة السامانية. ومن اجل تحقيق هذا الهدف، ظهر محمود في البداية بمظهر المدافع عن السامانين، ولكنهْ غير سياسته تجاههم عندما رفض امر توليته على خراسان ،فلجأ الى استعمل القوة لتحقيق رغبته. وفي هذا لم تقف طموحات محمود بأمتلاك خراسان وحدها والما في تقاسم مع القره خانيين كل ماتبقى من ممتلكات الامارة المحتضرة. وكان محمود في.٩٩٤/٣٨٤ قد شارك في القضاء على التمرد المشترك الذي قاده كل من أبي علي بمجور وفائق خاصة ضد الادارة السامانية.والذي انتهى بهزيمة المتمردين وبتسليم خراسان لمحمود مكافأة له على دوره في الهزيمة التي سلمها لاخيه نصر. الّا ان اندلاع النزاع بين محمود واخيه اسماعيل على الأمارة الغزنوية بعد وفاة سبكتكين في ٩٩٧/٣٨٧ اجبر محمودا على الانسحاب موقتا من مركز الاقليم ،نيسابور . ثم جاءت مشاركته الثانية بعد الانقلاب الذي قادة قائد السامانين بكتوزون (حل محل محمود في خراسان) وفائق خاصة على الامير منصور بن نوح ،الذي جاء بأخيه الصبي عبد الملك مكانه في العرش الساماني. وكان محمود قد اختلف مع الامير المخلوع منصور حول مسألة ولاية خراسان ،بعد ان رفض هذا الامير طلب محمود في تنصيبه على ولاية خراسان مقابل الولاء والطاعة التي يحتفظ بها للبيت الساماني، واكتفى بتثبيته،على المناطق التي كانت تقع ضمن منطقة امارته. وكانت منزلة محمود قد تغيرت بعد ارتقائه لامارة البيت الغزنوي وزعامته، فأتخذ محمود من الانقلاب ذريعه لتصفيه اعدائه من قاده الانقلاب ولوضع حد لحكم السامانين في خراسان الى الابد فتم له ذلك في مرو ٩٩٩/٣٨٩ (١٠).واصبحت خراسان جزءا متمما من الامارة الغزنوية وظلت هكذا حتى وقت الانتصار السلجوقي على الغزنويين في مرو ايضا .بعد مايقرب من اربعة عقود من الحكم الغزنوي.

وبتقرير قواعد الحكم في خراسان تمكن محمود السلطان الجديد بالتدريج من مد سلطاته الى مناطق النفوذ الساماني القديمة ومناطق توسع الغزنويين التقليدية في الهند التي بدأ بتنفيذها سبكتكين وبالتعبير الجغرافي،فقد اخذ هذا التوسع الغزنوي اتجاهات ثلاثة: في التركستان متمثلة بخوارزم ،وفي العالم الايراني سيستان، غرشستان ،جرجان ،شاغتيان) وفي الهند بأقليم البنجاب، تحققت كلها خلال حكم السلطان محمود البالغ اثنين وثلاثين عاما (٣٨٨ ــ ٩٩٨/٤٢١ ــ ١٠٣٠)

فخضوع اقليم خوارزم لمحمود اعطاه الأرجحية على القرخانيين في التركستان ،الذين كانوا ينافسون الغزنويين على خراسان .وكانت العائلة المأمونية الحاكمة في خوارزم قد احتفظت بعلاقات طيبة مع الغزنويين وارتبطت مع السلطان بعلاقات مصاهره نتيجة لعقد الزواج . وجاء غزو محمود لخوارزم بعد اغتيال الخوارزمين صهره وتنصيب اداره غزنويه بأمره الحاجب التنتاش ، احد غلمان سبكتكين المتميزين. الّا ان المنافسة للحكم الغزنوي ظلت قوية بشخص على تكين ، حاكم بخارى وسمرقند ،الذي ابقاه محمود في حاكميته ولم يتخلص منه بشكل نهائي لاسباب خاصة تتعلق بسياسته مع القرخانيين !!

وفي ١٠١٢/٤٠٣ اخضع السلطان محمود غرشستان، ارض الجبال ،الى الشمال من أعالي نهر هرَى ــ رود التي كانت تخضع لحكم خط من الأمراء المحليين يحملون لقب شير ــ اي الحاكم. وكان محمود قد وضع في ١٠١١/٤٠١ جرجان الواقعة الى الشمال من هراه بأمره ابنه محمد، ونهبت السلطنه الغزنويه ،في اعقاب وفاة اميرها ابي نصر احمد من السلالة الغرينونية ولكن السلطان لاقى بعض الصعوبات في اخضاع الغور .جبال افغانستان الوسط، وبعد حملتين غزنويتين على المنطقة في ١٠١١/٤٠١ و ١٠٢٠/٤١١، خضع قسم من امراء الغور لحكم الغزنوي، واخذ الاسلام بالانتشار بينهم تدريجيا

وكانت سيستان قد قدمت بقيادة خلف بن احمد ،زعيم الصفاريين ، مقاومة مهمة للغزنويين ،الى حد التعرض الى ماكان بيد الغزنويين من مقاطعات ابان امارة سبكتكين كبست وبوشنك. فهاجم محمود سيستان في ٩٩٩/٣٩٠ ونصب فيها ادارة غزنوية برئاسة اخيه المظفر نصر بعد دحره لخلف!

اما بالنسبة لشاغتيان وختل ،على الجانب الايمن من مناطق سيحون العليا، فقد كانت تحكمها عوائل عربية متعاونة مع الأدارة الغزنوية، مثلا بنو محتاج في شاغتيان دخلوا علاقات مصاهره مع مسعود ،اكبر اولاد السلطان، او بنو داود في ختل. وكانت هذه المناطق ذات اهمية سوقية للغزنوي لانها تمثل خطا دفاعيا لدولتهم ضد تحركات القبائل التركية القادمة من التركستان.

ولكن توسع الغزنويين في الاراضي البويهية كان بطيئا ومتأخرا. ففي ١٠٢٩/٤٢٠ توجه محمود بقوه غزنويه الى الري، بعد ان استلم دعوه من حاكمها مجد الدولة، احد احفاد فخر الدولة ــ

يطلب منه مساعدته في القضاء على اعمال الشغب التي كان يثيرها رؤساء جنده من الديلم. فأنتهز محمود الفرصة لضم الري الى ممتلكاته، فتخلص من مجد الدولة بعد محاكمة كان محمود قد ترأسها بنفسه وعين فيها ابنه الاكبر مسعودا، الذي وقعت عليه مهمة متابعة التوسع الغزنوي في الاقليم ،اي في الديلم من جهة وفي اصفهان وغرب ايران بحاكمها ابن كاكويه من جهة اخرى . وتجدر الاشارة الى ان الري كانت مركزا مهما من مراكز المعتزله والباطنية، التي كانت قد راجت خلال حكم مجد الدولة ويقال ان محمودا قام باحراق كتب المعتزلة والباطنية وبأنه نقل قسما من قادتهم الى بلاده عقابا لافكارهم المتطرفه.

الّا ان اهم توسع غزنوي استهات فيه السلطان محمود هو ماتحقق على يده في جبهة الهند(١٢) واعطى محمودا سمعه كبيرة في «دار الاسلام» عرف بموجبها بأسم السلطان الغازى. ومع ان السلطان محمود لم يكن اول من جاء بالاسلام الى الهند بل سبقه الى ذلك الامويون العرب خلال خلافه الوليد بن عبد الملك ،الّا انه قام بنشره في البنجاب على نطاق واسع وفي تدميره لمملكة هندوشاه الهندية حيث هاجمها في ٤١٦هـ/ ١٠٢٥ وتمكن من اخذ «لسومنات» ومن تدمير اهم معبد هندي فيها. ومع ان دراسة حملات محمود الكثيرة على الهند يقع خارج نطاق اقليم ايران زمن الغزنويين، الّا اننا لانشك في نوايا السلطان وفي رغبته الاكيده في نشر الاسلام في شبه القارة الهندية، رغم ادعاءات المستشرقيين والباحثين الهنود بأن محمودا لم يكن مدفوعا وراء هذه الحملات بدافع الجهاد ونشر الاسلام بين الهنود ، بل كان بدافع السلب والنهب(١٣).

سلطنة مسعود (٤٢٢ ــ ٤٣١هـ /١٠٣١ ــ ١٠٤٠م : كانت المقاطعات التي تتكون منها سلطنه مسعود في بداية حكمه في ٤٢٢هـ / ١٠٣١ تشمل الاقليم والولايات التي اخضعها ابوه محمود بقوه السلاح ،الى اقليم خوارزم في التركستان ،ومناطق من الهند والسند والبنجاب الى غزنه وخراسان وبلاد الجبال في ايران، اضافه الى عدد من المراكز المهمة الاخرى الواقعة ضمن النفوذ البويهي . ولكن حكم هذا السلطان الجديد شهد تداعيا لركائز هذه الامارة المترامية ، التي بدأت اقاليمها بالتمرد عليها تباعا ابتداء بالتركستان موطن السلاجقة ،وخلفائهم في حكم خراسان وبقيه بلاد فارس.

يرجع قسم من مشاكل مسعود الى طبيعة السلطنة الغزنوية وقسمها الاخر الى سياسته تجاه الادارة المحمودية السابقة والى اجراءاته في الولايات الغزنوية بصورة عامة. واول مايجلب الانتباه هو الصراع حول السلطنة بين الأمين محمد، مرشح محمود الشرعي للسلطنة وبين مسعود ،اكبر اولاد محمود والمفضل لدى معظم امراء الجيش الغزنوي بموجب رتبته اذ كان قائدا للجيش بعد السلطان مباشرة.

الصراع حول السلطنة: لم يكن صراع الغزنويين حول السلطنة يشابه ماكان يحدث عند البويهيين او السلاجقة في ايران والعراق فيما بعد، الا ان الامر لم يكن يستقر للمرشح الا بعد التخلص من مناوئيه والدفاع عن حقه ضد تحديات الامراء المنافسين له.

لم يرث مسعود السلطنة عن طريق عهد والده اليه وانما استقرت له بعد تحديه لمرشح والده، أخيه المدعو جلال الدولة محمدا ،تماما مثل ماعمل محمود بعد وفاه والده سبكتكين ،عندما تخلص من مرشح والده اسماعيل بقوة السلاح.

كان مسعود بحكم الاوصاف التي فيه الرجل المهيأ لاشغال منصب السلطنة الغزنوية اذ يميزه كبر سنه وتأييد كبار امراء الجيش له (كالتنونشاش حاكم خوارزم) وسجله الاهم في حملات وفتوحات والده. الّا ان محمود فضل ترشيح محمد عليه لانه كان مستاءمن مسعود لجملة اسباب منها عدم احترام مسعود للأوامر الصادرة اليه من الدركاه، اي من بلاط السلطان وانغماسه في الملذات وسوء سلوكه وتصرفاته(١٤) .وقد انتفعت البيروقراطية الايرانية الموجودة في الأدارة الغزنوية من هذا الخلاف وزادت من حدته لمصالحها بالتحالف مع احد الفريقين ضد الأخر. ولذلك لم يكن ترشيح السلطان لمحمد شيئا مفاجئا تماما مثلما لم تكن هناك ايه مفاجئة من تحدي مسعود للترشيح، وكان تخلص مسعود من محمد قد تم بواسطة ، القوة التي كانت قد ساندت ترشيحه للسلطنة تأييدا لرغبة السلطان الراحل، اي القوة المكونه من عمه يوسف بن سبكتكين مقدم الجيش والحاجب علي خوشاوند ، احد كبار قادة السلطنة المحمودية ،وحامية غزنة وامرائها. وكان مسعود ، الذي يترأس الجيش الذي كان قد كلف بفتح الري وغرب ايران ،قد كتب الى محمد يخبره بأنه ليس في نيته منازعته على السلطنة ويقترح عليه أن يعترف له بحكمة على المناطق التي تم اخضاعها بأمرته ،الا ان محمدا رفض الاذعان لمقترحات مسعود لان الأخير كان قد طلب في حال قبول اقتراحه ان يقدم اسمه على اسم السلطان الجديد محمد اثناء الخطبه له في المناطق التي تخضع لحكمه. وكان قادة الجيش يأملون قبول محمد لهذه التسوية الا ان رفضه لشروطها شجعهم على التمرد عليه ابتداءا بيوسف بن يكتكين وعلى خويشاونه واتباعهما حيث عزل محمد (حبس في قلعه تكناباذ) ونصب مسعود مكانه(١٥).

كان انتصار مسعود هذا متوقعا وحاسما اذ تمكن وضع حدا لايه خطورة قد تثار من الأمراء الغزنويين حول السلطنة. الا ان الاهم من ذلك ان مسعود عرف كيف يستغل هذا الحدث لتصفيه القوى التي ايدت محمودا في ترشيح محمد للسلطنه من امراء الجيش والأدارة؛ بصورة خاصة قادة الجيش وتعرف هذه الأجراءات عند المؤرخين بتصفية مسعود «للمحمودين » ومجئ ادارة جديدة بقيادة الوزير احمد حسن أخندي .

الاصطدام بالسلاجقة : كانت المشكلة الاساسية التي واجهتها الأدارة الغزنوية خلال سلطنة مسعود مشكلة السلاجقة. الذين كانوا قد عبروا الى خراسان من ماوراء النهر واستقروا فيها بموافقه من السلطان محمود. وقد تحول هؤلاء بسرعة الى قوة ضارية تهدد السلطنة الغزنوية والعرش الغزنوي. وقد جاءت الضربة القاضية لهذه السلطنة من مناطقها الغربية سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م عندما سمح جيش غزنوي كبير يقوده السلطان مسعود نفسه برفقه عددا من الفيله بمناوشه السلاجقة عند رباط دندانقان،عند الصحراء الواقعة بين سرخس ومرو. وقد وضع السلاجقة في الساحة قوة مؤلفه من ١٦،٠٠٠ مقاتل مع ٢٠٠٠ رجل تنقصهم الخبرة لحراسه خيامهم «فركاه» وامتعتهم وممتلكاتهم. وفي معركة تعد من المعارك الحاسمة في تاريخ خراسان مزق جيش السلطان النظامي كلية وانفتح المجال امام القوى التركمانية بالانتشار في مدن خراسان ونواحيها فأتجه قائدهم طغرل صوب نيسابور ،مركز خرسان وموسى واتباع ينال الى مرو، وجقرى بيك الى بلخ وطخارستان .اما السلطان مسعود فقد تراجع الى غزنة في طريقة الى الهند وكان من نتائج داندنقان المباشرة على مسعود ان فقد امراء الجيش الثقة به، ولذلك قاموا بخلعه عنه وصولهم سهل المثلوس الأعلى وعينوا مكانه موقتا اخاه المخلوع احمد بن محمود .. ويلاحظ أن السلاجقة سمحوا للغزنويين بالاستمرار في حكم غزنة وماحولها ولم يعملوا على ازالتها لكنه لاسباب تتعلق باعتراف الغزنويين بالكيان الجديد وسيادتهم عليها. ولذلك فقد ظلت الدولة الغزنوية قائمة في غزنة والبنجاب برئاسه سلطانها أبراهيم بن مسعود واحفاده واستمر حكمهم مائة وثلاثين سنة اخرى.

خصائص الوضع السياسي والحضاري: كانت الادارة الغزنوية في تشكيلاتها مرتبة طبقا للنظام السائد عند السامانين في بخارى، الذي اعتمد بدوره على النظام الأداري المتبع عند العباسين: فقد كانت هناك خمسة اقسام ادارية تتكونه منها الحكومة هي ديوان الوزارة ،الذي يترأسه الوزير باختصاصاته المالية والأدارية، وديوان الرسائل، المسؤول عن المراسلات الرسمية والدبلوماسية وديوان العرض الذي يشغله العارض ،الذي كان موظفا مدنيا ويشبه في عمله مايقوم به وزير الدفاع اليوم، ثم ديوان الاشراف الذي يدير اموره المشرف وهو المسؤول عن الاتصالات الداخلية للحكومة وعن جهاز مخابراتها، وديوان الوكالة(١٦) الذي يشغله وكيل الخاصة،الذي يدير شؤون اولاد السلطان وحرمه . فكانت هذه المناصب وتفرعاتها يشغلها موظفون وكتبه ذوو اصل خراساني في الغالب. ومن هذه الشخصيات البارزة ،ابو العباس الاسفرايني، اول وزير للسطان محمود والوزير احمد حسن الميمندى ، (ت ٤٢٤/١٠٣٣) الذي يعده نظام الملك نموذجا جيدا للأداره المثالية الناجحة(١٧) ، والأمير حسن ، الذي اعدمه مسعود بسبب تهمة تحوله الى الباطنية، ثم هناك ابو نصر فسكك (ت ٤٣١/١٠٤٠) مسؤول ديوان الرسائل في الأدارة المحمودية وواحد من اشهر شخصيات السلطنة الغزنوية ومن هذا الديوان كانت تصدر الرسائل باللغات الثلاث

العربية ـــ الفارسية والتركية وهي اللغات التي كان يتراسل فيها مثلا مع الخلفاء العباسيين والبويهين والقرخانين .

وكانت حضارة الغزنويين الاوائل تعكس طابعا اسلاميا خاصة خراسان ،مصدر طاقات الغزنوين الادارية والفكرية ،كما كانت تعكس النموذج الساماني ذات الطابع العربي ـــ الاسلامي .ومع ذلك شهدت هذه الحقبة ظهور عددا من المفكرين الفرس الذين ألفوا بالفارسية في مواضع الشعر والادب. فالى هذه الحقبة يعود الشاعر الفردوسي (ت ١٠٢١/٤١١) مؤلف الشاهنامه، كما ينسب الى هذه الحقبة ابو الريحان البيروني الخوارزمي (ت ١٠٥٠/٤٤٢) صاحب الآثار الباقية عن القرون الخاليه وتحقيق ماللهند من الاثار المهمة في العلوم والحضارات القديمة ،وقد كتب بالعربية، ويرتبط بها ايضا مؤرخ الدولة المحمودية ابو نصر العتبي (ت ١٠٣٦/٤٢٧) ،مصنف كتاب التاريخ اليميني،اي تاريخ يمين الدولة محمود الغزنوي وفتوحاته في ايران والهند، وابو الفضل البيهقي (ت ١٠٧٩/٤٧٠)،مصنف التاريخ المسعودي، بالفارسية ،الذي ارخ فيه احداث سلطنة مسعود وسياسته تجاه السلاجقة ،وهو هنا احسن كتب المذكرات لانه يضم معلومات دقيقة جدا عن الادارة المسعودية التي كان هو نفسه احد أعمدتها، وابو منصور الثعالبي الذي كتب بالعربية ،والذي صنف مصنفات ادبية وتاريخية مهمة اشهرها يتميه الدهر.

الّا ان الاساس الذي كانت ترتكز عليه السلطنة الغزنوية هو الجيش ،الذي يترأسه السلطان عاده. والذي كانت تشكل غالبيته العظمى طبقة المماليك الاتراك (الغلمان). الا ان هذا الجيش كان يضم تشكيلات لعناصر غير تركية كالهنود والديالمه والعرب والاكراد وغيرهم. وقد شدّد كل من نظام الملك (سياسته نامه وكي ـــ كاووس في (قابوس ـــ نامه) على أهمية هذه العناصر في تشكيلات الجيش الغزنوي ،وجعلا تعدد هذه العناصر مصدرا من مصادر قوته لانها تشجع على نمو روح المنافسة بينها. كما كان هذا الجيش غاية في التطور ويتبع نظام التدريب العسكري المتبع عند السامانين، الذي نجد اسمه ايضا عند العباسيين. وكان رئيس الامراء الغزنوين هو الحاجب الكبير (حاجبي ـــ بزرك) كعلي خشلوندر حاجب السلطان محمودا. يليه في الاهمية امير الغلمان الاتراك ويفرق اسالارى غلامان، كما كان للسلطان حرسه الخاص. الذي يتم اختيار اعضائه من بين اعداد الغلمان الذين يشكلونه قوة الجيش الرئيسية . وكان العارض هو المسؤول عن حالة هؤلاء الجنود وعن رواتبهم بالتنسيق مع الوزير ،مثلا جيش محمود مكونا من (٥٤٫٠٠٠) ألفا من المقاتلين الخياله و (١٣٠٠) فيل .وكان هذا العدد طبقا لرواية الكرديزى ،لا يشمل أرقام الجنود التي تتجمع في غزنة من الاقاليم بأسم التطوع وللقيام بواجبات الحراسة أو اية اعمال اخرى يكلفون بها. بينما كانت قوة الغلمان الخاصة تقدر بحوالي (٤٫٠٠٠) مملوك.

واخيراً فأن ايران زمن الغزنوين احتفظت بعلاقات طيبة مع الخلافة العباسية ،حيث تشهد على ذلك المراسلات التي كانت تجرى بين السلطان محمود والخليفة القادر بالله، والتي عن

طريقها كان يحاول ان يوضح مدى أخلاصه لشخص الخليفه ولمصالح العباسين، وكانت محاولة السلطان محمودا وخلفائه ايضا في الجهاد في سبيل الاسلام بنشره بين الهنود، وضربه لحركات الباطنية؟ كالاسماعيله والمعتزله او رفضه للكرامية في اطار تبني المذهب الحنفي، ورفضه للتعامل مع القوى المناهضة للعباسين ،كل ذلك ساعد على اعطاء الرعايا نوعا من الامن والرخاء في المناطق التي كان الغزنويون يحكمونها بأسم الخليفة.

هوامش الفصل الرئيسية:

١. افضل ما كتب عن الغزنوين من دراسات جديثة نجدها في كتابات الاستاذ بوزورث C.Bosworth،المختص في الدراسات الغزنوية ونظمها. الذي نشر العديد من الدراسات والبحوث عنهم اهمها دراسته للدكتوراه التي تحمل عنوان الغزنويين بالانكليزية. كما ان هناك دراسات حديثة قام بنشرها عدد من الباحثين الهنود كالدراسة التي قام بها ناظم تعكس طابعا مفيدا بسبب مسؤولية محمود عن نشر الاسلام في شبه القارة الهندية .ومن المصادر الاولية مصنفات ابن الأثير وابي نصر العتبي وابي الفضل ابيهقي.

٢. ولذلك سوف لاندرس فتوحات السلطان محمود في شبه القارة الهندية والبنجاب والنظريات التي تفسر هذه الفتوحات.

٣. ابو الفضل البيهقي، تاريخ البيهقي (المسعودي). ص٧٠٦ (الترجمة العربية)

٤. واجع عن سيرته ابن الاثير ،الكامل ، م٨، ص٦٨٤.

٥. انظر نظام الملك،سياسته — نامه، ص١٣٤، (الفصل الخاص بالغلمان)

٦. ابن الاثير ،الكامل، م٨ ،ص٦٨٤.

٧. انظر مقاله بوزورث عن «الغزنويين» في دائرة المعارف الاسلامية ،ط١ جديد، مجلد٣، ص١٠٥ — ١٥١

٨. تفاصيل الاحداث نجدها في ابن الاثير ،كامل ،م٩، ص١٣٠ — ١٣١!

٩. ابن الأثير ،المصدر ذاته ،م٩، ص١٠٢ — ١٠٣.

١٠. كذلك ،م٩ ،ص١٤٦.

١١. انظر بوزورث الغزنويين الاوائل في التاريخ كمبودج لايران، م٤، ص١٧٥.

١٢. بوزورث، المصدر ذاته، م٤، ص١٧٨ — ١٨٠.

١٣. بوزورث، المصدر ذاته، م٤، ص١٧٩ — ١٨٠

١٤. ابن الأثير، الكامل ،م٩، ص٣٩٨.

١٥. ابن الأثير ،المصدر ذاته، م٩ ، ص٤٠٠

١٦. بوزورث، الغزنوبوية الاوائل، تاريخ كمبرج لايران ،م٤ ص١٨١.

١٧. نظام ، سياسته — نامه، ص١٩٩، ٢١٨.

المبحث الثالث: السلاجقة في بلاد فارس

لم يكن ظهور السلاجقة في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على شكل إمارة تتحكم في شؤون ايران والدولة العباسية الا بمثابة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ المنطقة فقد جاء الغزو السلجوقي بأوضاع وخصائص جديدة لم تكن تعرفها ايران خلال حكم البويهين لها. وقد حصل التعقيد هذا نتيجة عوامل خارجية خاصة بالغزو السلجوقي الذي حل محل الغزنوين والبويهين في حكم ايران مائة وستين سنة (من ٤٣١ ــ ٥٩٠هـ /١٠٤٠ ــ ١٢٩٤) بين سلطنتا طغرل الأول زعيم السلاجقة واخر سلاطين السلاجقة طغرل بن الثالث وكان الغزو السلجوقي ناجحا من تكوين عدة فروع سلجوقية في مناطق الشرق الأوسط : ١) سلاجقة ايران والعراق، موضوع بحثنا لهذا الفصل ،الذي يعرف عهدهم في البداية بأسم السلاجقة العظام وفيما بعد سلاجقة ايران والعراق، ٢) سلاجقة الروم في الانضول من اتباع سليمان بن قتلمش، ٣) سلاجقة بلاد الشام من اتباع تتش بن آلب ارسلان، الذين كانوا واحدا من اسباب حملة الفرنج الأولى على سوريا .

مقدمة في اصل السلاجقة: ينتسب السلاجقة الى قبائل تركية من التركستان واصلهم معروف ومثبت في رواية (الملك نامه)(٣) الذي كان قد ألف للسلطان آلب ارسلان والذي يحكي قصة السلاجقة بين دخولهم العالم الاسلامي وانتشارهم في خراسان. فهم ،طبقا لهذه الرواية من اتراك الغز (الغوز) الذين يشكلون مجموعة واحدة من تسع قبائل مجتمعة تسمى تقز ــ اوغز وكانت هذه القبائل تتبع حياة الرعي والكلا وتخضع لزعامه سلجوقه بن دقاق (تقاق اي القوس الحديد). وكان دقاق(٤)، على ماتذكر الرواية رجلا متميزا بين امراء الاتراك في المنطقة معروفا بصواب الرأي ،الا انه لم يخلف الا ابنا واحدا هو سلجوق الذي تقدم بسرعة بين صفوف اتباعه من الامراء التركان حتى رقاه بيغو ،ملك الترك، الى رتبة سباش (مقدم الترك) ،ولكن هذا الملك سرعان ماشعر بخطورتهم على زعامته،،فأضطر سلجوق الى الهجرة مع اتباعه الى نواحي جند حيث حصل لهم اول احتكاك بالعالم الاسلامي.

كان سلجوق شخصية مهمة بالنسبة للسلاجقة فهو الاساس في تحدر الزعامة السلجوقية ومن اسمه اشتق اسم هذه الدولة التركية المهمة .وكان سلجوق قد ترك لنا بعد حياة دامت اكثر من مائة عام اربعة اولادهم: مكائيك ،وارسلان اسرائيل وموسى يغوويونس(٦). وقد حقق سلجوق خلال زعامته للسلاجقة جمله انجازات لها انعكاسات مهمة على تاريخهم فيما بعد تتلخص بمايلي: ١) ايجاد مأوى جديد للسلاجقة بالقرب من سمرقند وجند بعد تهديد ملك الترك بيغو لسلجوق، والذي كان قد عزم على قتله والتخلص منه، وقد وفر هذا الملجأ الجديد

للسلاجقة الكلا والعشب الذي تعتمد عليه حياة هذه القبائل وبقاؤها ٢) نقل السلاجقة من عالم الكفر الى عالم الاسلام بعد احتكاك جماعته بالعالم الاسلامي فقد كان السلاجقة شأنهم شأن بقية الاتراك من الوثنية الذين يدينون بالشامانية، وقد عبر سلجوق كحاكم سمرقند عن رغبته وقومه في الانظمام الى الاسلام وقبول تعاليمه وبأن هجرتهم الى المناطق سمرقند وبخارى لم تكن الّا لتحقيق هذه الرغبة والتحول الى مجاهدين ضد اجناسهم الوثنية(٧) . وقد حدث هذا التحول للسلاجقة في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ،٣) ايجاد محل للسلاجقة في التحالفات التي تحدث على مستوى السياسية المحلية بين الاطراف المتناحرة يبين الاستفادة من هذه التي التحالفات لخدمة السلاجقة ،مثلا المساعدة العسكرية التي تقدم بتوفير العشب لمواشيهم المساعدة التي تقدم بها سلجوق للامير الساماني ابراهيم ،والتي كلف ابنه ارسلان اسرائيل بمتابعتها. بهدف استرجاع الأراضي السامانية التي كان ابراهيم قد فقدها للخان هارون بن ايلل .ويظهر من ملاحظات العماد الاصفهاني أن السلاجقة كانوا قد وضعوا خدماتهم تحت تصرف القرى التي كانت تتحكم في شؤون ماوراء النهر والتي من أجلها كان يكُلف رؤساء السلاجقة بأداء مهمات حربية معينه لانجازها(٨).

ولكن هذه الانجازات لم تكن كافية لتجعل من السلاجقة قوة منافسة للقوى التي تتحكم في ماوراء النهر، فكان عليهم الهجرة مرة اخرى، وكان على اولاد سلجوق متابعة هذه المهمة التي تكللت على يدهم بنجاح. ومن بين اولاد سلجوق الاربعة يهما ذكر ميكائيل وارسلان اسرائيل اذ الى ميكائيل ينتمي سلاطين السلاجقة العظام (طغرل وآلب ــ ارسلان وملك ــ ملك شاه) واحفادهم سلاجقة ايران والعراق والشام ،والى ارسلان اسرائيل ينتمي سلاطين سلاجقة الروم من اتباع سليمان بن قتلمش واحفاده. وكان ميكائيل هو الابن الاكبر لسلجوق ومرشحة للزعامة . الّا ان زعامه ميكائيل لم تتحقق لانه قتل في أثناء حياه والده عندما كلفه بأداء احدى المهمات الحربية، وترك الأمر الى ولديه طغرل وجفرى لانجاز ذلك .وكان سلجوق، يرى فيهما القيادة والزعامة التي يتطلع اليها السلاجقة وحضيا برعايته طيلة ماتبقى من حياته(٩).

عبور السلاجقة الى خراسان وهزيمة الغزنويين: خلال رئاسة طغرل وجفري تحقق اهم عمل في تاريخ العائلة السلجوقية وهو عبور السلاجقة جيحون والاستقرار في خراسان اولا ونجاحهم في تكوين السلطنة السلجوقية بانتزاع الحكم من الغزنويين ثانيا.وكان السلاجقة قد قرروا عبور جيحون والاستقرار في خراسان ومدنها كأبيورد ونسا وفراوه وغيرها من مدن ونواحي خراسان .وقد تم لهم ذلك خلال سلطنة محمود وبموافقته على عبورهم رغم معارضة احد كبار قواده ،ارسلان الحاجب. لهذه الخطوة ودعوته الى التخلص منهم بقطع اصابعهم(١٠).

والواقع ان الصدام بين السلاجقة والغزنويين بعد انتشارهم في خراسان كان امرا محتما لان خراسان كانت القاعدة الرئيسية للغزنويين وسقوطها بيدهم سيؤدي حتى الى زوال الأدارة الغزنوية هناك. ولم تكن للغزنويين سياسة واضحة في هذا الاتجاه ، نعم كانت الأدارة الغزنوية ترى في انتشار السلاجقة واعتداءاتهم على المدن والقرى التابعة للحكم الغزنوي مشكلة عويصة يجب حلها ومعالجتها، وتطلب من السلطان اتخاذ موقف حازم تجاهها .الّا ان السلطان مسعود لم يكن مقتنعا بهذه الخطورة ولايرى من وجود العصابات التركانية المنتشرة في بلاده تهديدا للسلطنة وكان في هذه النظرة المتفائلة يعكس رأى أبي سهل الحمدوني المهيمن على شؤون السلطان مسعود والذي كان في شورته يفتقر الى بعد نظر يخدم مصلحة السلطان والغزنويين(١١). ولذلك كان مسعود يعمل اي شيّ من اجل التهرب من هذه المشكلة ويفضل عادة تقدم حملات الهند عليها بينما كان قسم من اصحاب الأدارة التي تحرص على مستقبل الدولة الغزنوية ترتأى عدم خروج السلطان الى محاربة السلاجقة شخصيا ويفضل حل المشكلة عن طريق التفاوض لان خروج السلطان يقلل من قيمة السلطنة ويعزز من مكانة هذه العصابات.

وهكذا تحولت قضية السلاجقة الى اكبر مشكلة للأدارة الغزنوية خلال سلطنة مسعود البالغة تسع سنوات ،وبعد مدة من الهدوء في فعاليات السلاجقة خلال سلطنة محمود تمكن طغرل وجغرى من دحر كل الجيوش الغزنوية التي ارسلها مسعود لمواجهة العصابات السلجوقية اي الحملات التي قادها ضدهم الأمراء يكتفدى وارسلان الجاذب وسباش، الذي عدّ انتصار السلاجقة على الجيوش الغزنوية شيئا من «الاوامر الألهية والاحكام السماوية(١٢). وهكذا تطلب منه الأمر ان يتوجه شخصيا لمواجهة جغرى وطغرل حيث خسر اللقاء في دندانقان ١٠٣٩/٤٣٠) ، وتم اجتاح السلاجقة مناطق نفوذ الغزنويين تباعا. وقام السلاجقة بتقسيم المناطق المفتوحة بعد انتصار ، دندانقان الفاصل على الوجه الاتي: خراسان لجغري ــ بلك مع مرو عاصمة لحكمه ،والمناطق الغزنوية في هراه وبوشنك واسغزار وغور وسيستان وبسُت ذهبت الى أخي جغري المدعو موسى، وتوجه قادرة اكبر اولاد جغري الى كرمان ،بينما صاحب ابراهيم ينال وقتلمش بن اسرائيل وعدد من الأمراء طغرل في التوجه من نيسابور صوب الري واصفهان وبغداد لتصفيه حكامها البويهين.(١٣)

جهود طغرل في تصفيه ممتلكات الامارة البويهية في ايران: لم تكن تصفيه املاك البويهين على يد طغرل امرا صعبا، فقد كان بويهيو ايران في حالة لايحسدون عليها من الضعف ،فمن جهة هناك فرع الري والجبال الذي لم يكن تحت قيادة بويهية قوية منذ وفاة فخر الدولة عندما انقسمت السلطة بين ولديه مجد الدولة في الري وشمس الدولة في وهمدان وكرمنشاه اذ استحوذ عليه ابن تاكو به، من احدى الأسر الديلمية المشابهه للبويهيين .ومن جهة اخرى كان يترأس بويهي فارس

ابو كاليجار، الذي دخل بعلاقات مصاهرة مع طغرل. وكان يترأس بويهيي بغداد كل من جلال الدولة ثم الملك الرحيم .اضافة الى حكم عدد الامراء المحليين من العرب والاكراد. وكان هم طغرل وشغله الشاغل هو ان يصفي بويهيي ايران من اجل الوصول الى دولة الخليفة وقد اعاق خططه موقتا تمرد اخيه ابراهيم ينال مساعد طغرل في فتح ايران واخيه من والدته: ففي ٤٣٣هـ حصل طغرل على جرجان وطبرستان بدون مقاومة، وفي ٤٣٤ اخذ الري ينال وسلمها لطغرل ،الذي استحوذ بدوره على قلعه طبرن العائدة لمجد الدولة .ولم يظهر البويهيون ايه مقاومة تذكر في شيراز التي تمت تصفيتها(١٤). ومابقى من احداث سلطنة طغرل هو يتعلق بالسلطة العباسية وللفرع البويهي الحاكم هناك.

سلطنة آلب ــ ارسلان (٤٥٦ ــ ١٠٦٣/٦٥ ــ ٧٣)

وهو اكبر اولاد جغري ــ بك داود ،أخي السلطان الراحل طغرل. وكان عضد الدولة آلب ــ ارسلان محمد من ابناء الجيل الثاني للسلاجقة وقد كان سلطانا حادا المزاج سريع الغضب يخشى بطشه اقرب الناس اليه حتى وزيره نظام الملك(١٥). وقد قضى مدة سلطنته البالغه تسع سنين في صراع مستمر مع مناوئيه من امراء السلاجقة وغيرهم. الى الحد الذي لم تسمح له الفرصة بزيارة بغداد على عادة سلاطين السلاجقة العظام وسلاجقة ايران والعراق في التوجه صوب بغداد اظهارا لعظمه السلطنة السلجوقية. الا ان آلب ــ ارسلان هذا هو صاحب الانتصار الكبير على الامبراطور البيزنطي رومانيوس **Romamus** في معركة ملازكرد في ربيع ٤٦٣هـ / ١٠٧١) التي انتهت بأسر الامبراطور البيزنطي والذي لم يكن قد تحقق من قبل على يد من سبقه من الحكام المسلمين.

كان آلب ــ ارسلان يحكم من خراسان بوصفه ملكا سلجوقيا ينتظر دوره لارتقاء السلطنة من مركز قاعدته بمرو، وقد ظل هكذا حتى خلو عرش السلطنة على اثر وفاة عمه طغرل ــ بك في رمضان ٤٥٥/آب ١٠٦٣، الذي كان قد رشح بتأثير من وزيره عميد الملك الكندري طفلين صغيرين لا يصلحان بحكم التقاليد السلجوقية لارتقاء السلطنة هما انو شروان ثم سليمان.

ولذلك فقد كانت مشكلة آلب ــ ارسلان الرئيسية هي الحصول على السلطنة اولا وتأمين الدفاع عنها ثانيا ضد خطر الامراء المنافسين له من افراد البيت السلجوقي ممن يدعى الحق في السلطنة على اساس السن والتقاليد السلجوقية والتي بموجبها يمكن تحدى اي ولاية لها في هذه الحالة سليمان بن جغري . ولم يكن هناك احترام من الامراء البالغين من افراد البيت السلجوق لما يسمى بحق ولي العهد في تولي السلطنه في اعقاب وفاه السلطان الحاكم، الا عندما يتمكن هذا الوريث من الدفاع عن حقه الشرعي بالقوة كما يتضح من فشل سليمان في الاحتفاظ بحقه الذي كان يقف وراء ترشيحه عميد الملك الكندري. والذي جاءه التحدي من قتلمش وآلب ــ ارسلان.

تمرد قتلمش: تعكس حركة قتلمش بن ارسلان ــ اسرائيل، الجد الاعلى لسلاطين سلاجقة الروم وقريب آلب ــ ارسلان من جهة عمه، حاله عدم الارتياح التي كانت سائده بين مجاميع التركمان التي على اكتافها قامت الامارة السلجوقية والتي كانت على خلاف مع السلطان السلجوقي بسبب عدم التزامه بالتقاليد السلجوقيه الخاصة بالفتح . التي تفترض توزيع الاراضي المفتوحه على العناصر التي قامت بالفتح. وهي تشبه حركة ابراهيم ينال ضد طغرل، حركة قاورد ضد ملك شاه اذ كانت جميعها تعتمد في عناصرها على قوى التركمان المستاءة من تصرفات السلطان الشخصية بخصوص «الفتح» والترشيح للسلطنة او المتمرده على حكم السلطة المركزية وعلى تصرفاتها من قادة التركمان. كما ان فشلها كان قد امن السلطنة لألب ارسلان واجبر عميد الملك على ترك مرشحه سليمان واعلان الخطبة بأسم السلطان الجديد آلب ــ ارسلان. وكان قتلمش قد قتل في المعركة التي جرت بينه وبين آلب ــ ارسلان (في ذي الحجة ٤٥٥/ تشرين الثاني ١٠٦٣) ،عندما كان الأخير في طريقة من نيسابور الى الري ،مركز قاعدة طغرل العسكرية(١٦)، لتصفية خلافاته مع الكندري. وكانت خسارة التركمان في هذه المعركة متوقعة للفارق الكبير بين عصاباتها وبين الواحدات النظامية العائدة للملك آلب ــ ارسلان والتي يعود الفضل في تنظيمها الى كل من وزيره نظام الملك والعارض سعيد. ويقول ابن الاثير ان آلب ــ ارسلان عندما كسب المعركة اراد قتل الاسرى من جيش قتلمش بما فيهم اولاده ،الّا ان وزيره نظام الملك تدخل لمصلحتهم ونصح «السلطان» الجديد بأرسالهم صوب حدود السلاجقة الشمالية للاستفادة منهم في ايه مناوشات تحدث مع اعدائهم البيزنطين.

نهاية عميد الملك الكندري: بعد القضاء على قتلمش كان على آلب ــ ارسلان معالجة وضع عميد الملك الكندري، الذي كان لايزال يتحدث بوصفه وزيرا للسلطنه ،رغم وفاه السلطان السابق طغرل، والذي كان يواجه الآن منافسا جديدا بشخص الوزير الكبير نظام الملك. وكانت سياسة الكندري تجاه آلب ــ ارسلان تنبع من معرفته بأن ارتقاء آلب ــ ارسلان الى السلطنه معناه سقوط الكندري وصعود نظام الملك محله: الذي كان يخدم سيده بوصفه وزير مجلس خلال مدة حاكميته لخراسان والذي يستعد الأن للارتقاء الى وزارة السلطنه لسيده السلطان. وقد تبين أن لهذه المخاوف مايعززها وفق اكثر الاحتمالات تفاؤلا كان الحدث يعني انتهاءا الكندري وزيرا للسلطنه؛ ومن اسوئها كان يعني انتهاء حياته وقرب دنوا اجله. فمن اجل تجنب هذه الاحتمالات حاول الكندري ان يضع سليمان على رأس السلطنه كترشيح رسمي من طغرل وان يوقف طلب آلب ــ ارسلان لها. ولذلك هدد الكندري آلب ــ ارسلان على اثر وفاه طغرل، بالمعاقبه اذا لم يلتزم بوصيه طغرل ويقتنع بحكمه لولاية خراسان.

الّا ان انتصار آلب ــ ارسلان على قتلمش قلب الموازين وغير موقف الكندري، إذ أجبر على

التخلص عن مرشحه سليمان واعلان الخطبة بأسم السلطان الجديد، رغم استيائه من كل الامر الذي آل الية وضع السلطنه. وقد قام آلب ــ ارسلان بعد دخوله الى الري واعلان سلطته رسميا بمحاكمه الكندري شخصيا وقرر عزلة عن وزاره السلطنة وتعين نظام الملك محله. وبعد كما تقرر مبدئيا الابقاء على حياة الكندري وحجزه في مرو الروذ. الا ان هذا القرار غير ،وفيما بعد لغير صالح الكندري، وهو القتل ، على مايقال بتحريض من نظام الملك ،وذلك في ٤٥٦هـ / ١٠٦٤(١٧)، ومع ان نظام الملك كان المنتفع الرئيس من سقوط الكندري، فأن دوره الحساس في التأثير على قرار آلب ــ ارسلان في حبس الكندري اولا وقتله فيما بعد يحتاج الى عدم تسرع المؤرخ في تحميل نظام الملك مسؤولية التحريض على قتله، لان قضية الكندري تنطوي على اكثر من اهمية سياسية في ضوء محاولاته تحقيق رغبه السلطان طغرل بزواجه من بنت الخليفة القائم بالسيده.

سلطنه ملكشاه (٤٦٥ ــ ٨٥/ ١٠٧٢ ــ ٩٢) ووزارة نظام الملك (٤٥٦ ــ ٤٨٥/ ١٠٦٣ ــ ٩٢)

تأخذ سلطنه جلال الدولة أبي انفتح ملكشاه مكانتها في تاريخ السلاجقة السياسي من انها تمثل حقا العصر الذهبي لعهد السلاجقة العظام، لابسبب ان هذه السلطنه كانت قد وصلت الى اوسع نقطة في التوسع السلجوقي فحسب بل لان هذه الحقبة تمثل حكم الوزير الكبير أبي علي الحسن بن اسحق، نظام الملك ،الذي تعرف مدة حكمه بأسم الدولة النظامية اذا جازلنا استعمال تعبير عبد الفاخر عنها في السياق لتاريخ نيسابور. فقد كان هذا الوزير سلطانا غير متوج وله من الانجازات والسيرة التراثية، خلال حكم هذا السلطان البالغة عشرين عاما من الحكم على ايران ومناطق الدولة الاخرى، مايبهر العقول ويدعو المؤرخ الى التفكير والتأمل في شخصية هذا الوزير الموهوب(١٨).

صراع ملكشاه ــ نظام الملك من اجل السلطنه: كان ملكشاه ،مرشح آلب ارسلان للسلطنه، واحدا من بين ستة اخوه كان السلطان الراحل قد تركهم للمشاركه في تقسيم ممتلكاته السلجوقية عليهم. وكان على ملكشاه الدفاع عن حقه للسلطنه ضد تحديات امراء البيت السلجوقي ، التي ترتبط مواقفهم بمشكلة التركمان والسلطة المركزية التي يعمل رؤساؤهم على عدم الخضوع لها. كما كانت هناك مشكلة الدويلات الحدودية التي كانت تقف حجر عثرة بوجه التوسع السلجوقي كالدولة المروانية في بكر،التي اقتضت سياسة السلطان ازالتها عن الخارطة السياسة للامارة السلجواقية، ومثلها الدولة القرضانيه في التركستان وغيرها. كما كانت هناك مشكلة تحويل بغداد

الى قاعدة سلجوقية وفشل هذه المحاولة بعد الموت المفاجئ الذي ألم لشخص المسؤول عنها السلطان نفسه. واخيرا هناك قضية نظام الملك نفسه ،الذي كان يشكل مشكلة خاصة للسلطان منذ تفويض ملكشاه سلطانه له في بداية توليه للسلطنة.

حركة قاوردبك وتفويض الامور لنظام الملك: ثار قاوردبك ــ حاكم كرمان ــ على ملكشاه بعد ان ضمن تأييد زعماء التركمان له ،متحديا وصيه اخيه آلب ــ ارسلان في حق ابنه ملكشاه(١٩) .على اساس السن والتقاليد التركمانية، والتي تتوضح في جواب قاورد للملكشاه عند محاسبيته على عصيانه بالقول: انت الولد الصغير وان الاخ الكبير . وقد اضطلع نظام الملك بحل قضية قاورد لان السلطان الجديد كان لايزال صغيرا في السن ،لايزيد عن ثمانية عشر عاما ،وقد نجحت القوات السلجوقية النظامية المحترفة وقوات نظام الملك المعروفة بقوة «الغلمان النظامية» المتفوقه على عصابات التركمان بالتنظيم والعدد من كسر قاورد بالقرب من الري ومن اسره شخصيا . والتخلص منه بخنقه بالوتر (على عادة قتل الامراء السلاجقة) بأمر من نظام الملك. وقد ادى هذا الانتصار الى تثبيت دعائم السلطنه والى ايقاف الحركات التي كانت تستهدف التمرد على ملكشاه . وكان نظام الملك قد تذمر من ان سلطاته الوزارية غير كافية لمعالجة خطر التحركات التي يقوم بها اعداء السلطنه من حكام وامراء وحدات الجيش ومن فرض الامن والنظام اللازمين للسلطنه فقرر ملكشاه تفويض سلطاته الى نظام الملك التي تشمل «الامور كبيرها وصغيرها وقليلها وكثيرها ولا في اعتراض عليك ولارد لي يكون منك وانت الوالد»(٢٠) .وقد منح هذا التفويض نظام الملك سلطان واسعه جدا، اضافه الى سلطاته الوزارية التي كان يتمتع بها والتي كانت كبيرة ايضا، لان هذا التفويض جعل من الوزير اتابكا على السلطان لادارة اموره حتى يكبر ويتمكن من الأضطلاع بشؤون السلطنه، مع ان هذا التفويض . كما سنرى، هو اساس الخلاف الذي الى اصدام بين السلطان ووزيره فيما بعد.

كما شهد عصر ملكشاه نهاية الامارة المروانية على يد جيش سلجوقي قادة فخر الدولة وابنه عميد الدولة ابن جهر، من عائلة موصلية مشهورة في ١٠٨٤/٤٧٧ وقد ادى زوال هذه الامارة الكردية الى التحرش بأملاك دولة اخرى مجاورة للمروانين هي الدولة العقيلية في الموصل بشخص اميرها شرف الدولة مسلم بن عقيل ،الذي خسر حلب في معركة قادها ملكشاه بنفسه في ١٠٨٥/٤٧٨ . وهكذا اصبحت الموصل واجزاء كبرى في بلاد الشام جزءا من منطقة النفوذ السلجوقي.

الا ان مشروع ملكشاه في تحويل بغداد الى قاعدة سنجوقية تضاف الى قواعد السلطنة الموجودة في ايران (نيسابور، الري ،همدان ،اصفهان) لم ينجح .وكان هذا المشروع الذي بدأ بتطبيقه السلطان بعد زيارته الثالثه لبغداد في ١٠٩٢/٤٨٥ يعني التخلص من الخليفة العباسي

نفسه، المقتدى بامر الله الذي منحه ملكشاه فرصة اختيار مكان اخر غير بغداد مركزا للخلافة (البصرة، او الرقة). ولكن المشروع فشل اذ توفي ملكشاه فجأة عن عمر لايزيد عن السادسة والثلاثين، بعد رجوعه من الصيد في اطراف الكوفة حيث كان قد خرج اليها من انتظار انتهاء الايام العشرة التي حددها لخروج المقتدى من بغداد: وتجدر الأشارة الى ان نظام الملك كان لايؤيد هذا المشروع ولايرى فيه ضرورة سياسية تذكر لانه كان من انصار سياسة التآلف بين السلطنه والخلافة(٢١).

التخلص من نظام الملك: ولكن بالرغم من الانجازات العظيمة التي كانت قد تحققت خلال سلطنه ملكشاه البالغة عشرين عاما بفضل جهود السلطان وجهود نظام الملك، الّا ان هذا الوزير بوضعه الخاص من السلطنه السلجوقية خلال حكم ملكشاه بقي مشكلة خاصة للسلطان ولم يتمكن من التخلص منها الّا بدسائس ومؤامرات رؤساء الكتاب من رجال الأدارة السلجوقية ،التي كان يترأسها نظام الملك .وقد نجحت واحدة من هذه المؤامرات بتدبير تاج الملك ،الذي خلف نظام الملك في الوزارة والذي يشتهر ذكره في المصادر بحادثه مقتل الوزير.

كان نظام شخصية مهمة بالنسبة للسلطنة السلجوقية تقف وراء كثير من الانجازات التي تحققت خلال عهد السلطان ملكشاه ،ومن قبل في عهد والده آلب — ارسلان .على رأسها الدفاع عن السلطنة ضد تحديات امراء البيت السلجوقي وفي توفير الأدارة المركزية اللازمة لأدارة شؤون السلطنة الادارية والمالية، والتي حافظت على الاستقرار لما يقرب من ثلاثة عقود من اشغاله وزارة السلطنه المركزية (عدا مدة وزارته الاقليمية غير المحددة في المصادر)، وكان قد لخص تجاربه الادارية هذه في مؤلفاته الشهيرة سياسته .نامه (كتاب السياسة)، الذي صنفه للسلطان ملكشاه، ووصيت — نامه (كتاب الوصايا) او دستور الوزارة .فماهي خصوصيات سياسة نظام الملك وما اهمية حكمه بالنسبة للتاريخ السلجوقي؟

كان نظام الملك في حكومته يعتمد على ادارة عالية الكفاية تتشكل من مجموعة دواوين ترتبط بالوزارة يشغلها كل من المستوفي ومشرف المملكة والطغرائي والمنشئ والعارض، اضافة الى عدد من الوظائف المحلية التي يديرها «العميد» و«الشحنة». وكانت الدولة السلجوقية يديرها قسمان: ديوان الوزارة الذي يترأسه نظام الملك، والدركاه او بلاط السلطان السلجوقي والذي له ارتباط بالحاجب والطغرائي.وكان نظام الملك يعتمد في ادارة هذه الدواوين والاقسام التابعة لها على ماكانت تموله خراسان، مركز قاعدة حكمه ،من موظفين اكفاء يتم إستخدامهم في دواوين الدولة والتي يشرف عليها وينظمها اولاده (مؤيد الملك وفخر الملك من اشهرهم) وعدد من مساعديه وكان نظام الملك في ادارة هذه الدواوين وتنظيماتها متأثرا بالنظام الأداري الغزنوي الذي كان يستقر على قاعدة خراسانية ايضا من الكتاب .وهذا الجانب الأداري في دولة نظام الملك يرتبط بسياسة الوزير التعليمية التي قامت ببناء المدارس والجوامع والربط في مدن ايران والعراق الرئيسية.

وكان الوزير قد أمر ببناء سلسلة من المدارس في مالا يقل عن تسعة من مدن ايران والعراق تعرف بالمدارس النظامية، اشهرها نظامية بغداد التي افتتحت في ٤٥٩هـ ونظامية نيسابور التي كانت قد شيدت قبل نظامية بغداد في ٤٥١هـ ،جعل جميعها وقفا على اصحاب الشافعي(٢٢) في الاصول والفروع ليدرس فيها الفقة، اضافة الى علوم اخرى مساعدة لهذه الدروس .وكانا الوزير قد قام بتمويل بناء هذه المدارس من ماله الخاص وجعلها تحت ادارته مباشرة لأغراض سياسية وادارية تخص سياسة الوزير الأدارية والتعليمية والدينية. وبموجب ذلك، فقد عد نظام الملك اول من امر ببناء المدارس في الاسلام. الا ان هذا الرأى كما يظهر من معلومات السبكي، خطأً شائع لان المدارس كانت قد انتشرت في خراسان انتشارا واسعا قبل ان يرى نظام الملك الحياة (تماما كالخطأ الشائع عن مسؤوليته في استحداث نظام الاقطاع). ولكن نظام الملك له مساهماته في هذا الباب من حيث انه قام بنشر نظام المدارس (والاقطاع ايضا) في مناطق واقاليم من أيران والعراق لم تكن تعرفه من قبل، وفي عمله بصرف رواتب شهرية (ارزاق او معاليم) لكل المدراس النظامية(٢٣) .ومن ناحية اخرى كان هذا الوزير يحتفظ بقوة من الغلمان تعرف بالمماليك النظامية ،مكونه من عدة آلاف، يدعي الوزير بأنه قد قام بتشكيلها لخدمه شؤون السلطنه ولكنه لم يكن يتردد في استعمالها لمصالحه الخاصة عندما يتطلب الامر الدفاع عن نفسه ضد مؤامرات الكتاب والأداريين عليه ،(كما فعل في المؤامرة التي دبرها ختنه ابو المحاسن في ٤٧٦هـ).

وبسبب هذا الوضع الخاص لنظام الملك والمبالغ الكثيرة التي كان يقوم بصرفها على مشاريعه المختلفة ،والصدقات التي كان يصرفها على المتصوفة والزهاد والفقهاء والعلماء، فقد اصبح مشكلة كبيرة بالنسبة للسلطان ملكشاه الذي اراد التخلص منه واسترجاع سلطاته التي فوضها اليه في بداية سلطنته عن طريق تشجيع اعداء الوزير في الأدارة السلجوقية. وقد وجد اعداء نظام الملك مجالا في سياسة نظام الملك للنفوذ منها الى تحقيق اغراضهم المنشودة، بصورة خاصة مسألة الاموال الكثيرة التي كان الوزير يقوم بصرفها على مشاريعه المختلفة، وفي اعتماده على اولاده الاثنى عشر في اشغال الوظائف الدولة الرئيسية وفي الاشراف على امورها. وقد وجد ملكشاه في هذا وسيلة للتخلص من الوزير فشجع اعداءه على تحديه (مثلا ابن بهمنيار، ابو المحاسن) من خلال أربع محاولات تكللت اخر محاولة منها بالنجاح اي محاولة تاج الملك الذي حل وزيرا على نظام الملك).

وكانت منزله نظام الملك خلال مدة وزارته لالب ـ ارسلان تختلف عن منزلته خلال سلطنه ملكشاه، فقد كان عند السلطان الاول لايزيد عن كونه شخصا مساعدا للسلطان ،شأنه كشأن اي وزير اخر من وزراء الدولة السلجوقيه .. اما بالنسبة للسلطان لثاني ،فقد كان يشارك ملكشاه في مسؤولية الحكم عن طريق التفويض الذي عمله للوزير على اثر وفاه والده في بداية سلطنته .وقد

لخص الوزير خلافاته مع ملكشاه وامتعاضه من موقفه بالكلمات الموحيه التالية: «قولوا للسلطان إن كنت ماعلمت أني شريكك في الملك ماعلم ،فأنك مانلت هذا الامر الا بتدبيري ورأي. اما يذكر حين قتل ابوه فقمت بتدبير امره، وقمعت الخوارج عليه من اهله، وغيرهم ،منهم:فلان وفلان، وذكر جماعة من خرج عليه ، وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني، ولايخالفني، فلما قدت الامور اليه ،وجمعت الكلمة عليه ،وفتحت له الامصار القريبة والبعيدة واطاعة القاصي والداني اقبل ليتمنى الى الذنوب ويسمع في بالسعايات؟ قولوا له عني:ان ثبات تلك القلنسوه معذوق بهذه الدواة ...)(٢٤).

وليس هناك من شك حول إخلاص نظام الملك للسلطنه السلجوقية كما تتمثل في السلطان آلب ـــ ارسلان وابنه ملكشاه فهو الذي وقف مع آلب ـ ارسلان طيلة مدة سلطنة وجعل له من خراسان قاعدة تدعم السلطنه السلجوقية وهو الذي امّن لملكشاه السلطنه بعد تحدي عمه قاورد له.

الصراع بين اولاد ملكشاه حول السلطنه وحكم سلاجقة ايران والعراق: نشب الصراع بين اولاد ملكشاه حول السلطنه، ولم يستقر الامر للسلطان الجديد بركيارق الا بعد انفصام عرى وحده الدولة وانقسامها الى عده مراكز سلجوقية يتحكم فيها كأقطاع اولاد السلاطين واتابكتهم وامرائهم وتكونت عده مراكز سلجوقية اهمها خراسان وهمدان واصفهان والموصل وديابكر والشام

كان بركيارق الابن الاكبر للسلطان الراحل ملكشاه .لكن لم يكن مرشحه المفضل اذ كان هذا الأمر من نصيب ابنه الأصغر محمود من زوجته المفضلة تركان ـــ خاتون. وقد تحدى هذا الترشيح حاكم الشام الملك تتش ،وهو أخو السلطان السابق آلب ـــ ارسلان، كما تحداه وريث بركيارق في السلطنه لاحقا محمد بن ملكشاه ،واتباعهم من ملوك البيت السلجوقي واتابكتهم ووزرائهم وحكام الولايات المختلفة.

وفي اقل من سنة نجح بركيارق في التخلص من محمود واتخذ اصفهان مركز قاعدته بمساعدة مماليك نظام الملك ،الذين كانوا قد قتلوا تاج الملك وزير محمود ،والذي كان ينسب اليه مسؤولية قتل سيدهم نظام الملك ،ثم تخلص من منافسة الرئيس وعمه الملك تتش في معركة قرب الري سنة ٤٨٨، بعد انتصار اولي على بركيارق لم يعرف كيف يستغله لمصلحه قضيته في السلطنه. ثم دخل بركيارق سلسلة من المناوشات مع اخيه محمد عددها خمس فمن بين السنوات ٤٩٢ ـــ ٤٩٧هـ ،لم تكن حاسمة للطرفين ،مع انها كانت وبالا على العراق ،مركز فعاليات الجيشين المتطاحنين،الا ان هذه المناوشات انتهت بالصلح بين الاخوين تم بموجبه الاعتراف بسلطنه بركيارق ،مقابل عدم تدخل السلطان في شؤون المناطق التي كانت تخضع لحكم محمد(٢٥).

. الّا ان المرض لم يسمع لبركياروق بالتمتع بالسلطنه (التي قضى فيها يحارب اثني عشر عاما ونصف عام)، اذ توفي سنة (٤٩٨هـ) ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر.

وهكذا بدأ عهد السلطان محمد ،الذي تمكن بسهولة من التخلص من مرشح بركياروق ،ابنه ملكشاه، بقتل اتابكه اياز، ليبدأ مدة من الاستقرار بالسلطنه خلال السنوات ٤٩٨ — ٥١٢هـ.

وكانت المشاكل الاساسية التي واجهتها السلطنه لعهدي بركياروق ومحمد هي مشكلة الباطنية ونزاع الاتابكه والامراء العسكريين فيما بينهم حول اقطاعاتهم العسكرية والتحول بولائهم السياسي من سلطان الى اخر. كما كانت هناك مشلكة الفرنج في بلاد الشام، الذين نجحوا في تكوين أربع امارات وممالك صليبية هناك منذ حلول العقد الاخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تشمل على امارات الرها،انطاكيا، طرابلس ومملكة القدس .وكان الباطنية من اتباع ابن الصباح قد نجحوا من داخل ايران في التحول الى أكبر قوة مناوئه للسلاجقة، والى التغلغل داخل الأدارة السلجوقية لتنفيذ سلسلة من اعمال القتل الاغتيالات ضد مناوئيهم من قادة السلاجقة والخلافة العباسية. فنكل بركياروق بالباطنية للتدليل على برائته بعد ان اتهم بممالأتهم وبأنه واحد منهم كما قام السلطان محمد بشن سلسلة من الحملات على قلاعهم الحصينة خاصة قلعة الموت ولكن بدون نجاح يذكر. وقد ظلت هذه المشلكة قائمة طيلة حكم السلاجقة، ولم يوضع حد لها الّا على يد هولاكو في ٦٥٤هـ وعندما اجتاح وسط ايران في طريقة الى اخضاع الدولة العباسية. كما لم يتمكن السلاجقة من ايجاد حل لمشكلة الفرنج التي استمرت كأحداهم مشاكل العالم الاسلامي حتى زمن المماليك. الّا ان عماد الدين زنكي ،مؤسس الدولة الاتابكية في الموصل وحلب وخليفتيه نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي، قد تمكنوا من توجيه ضربات رئيسة لهم خلال الحملات الصليبية الاولى والثانية والثالثة .وكان السلطان محمد الذي كان يحتذى بسيرة آلب — ارسلان وبأنجازاته العسكرية على الروم في ملازكرد قد حاول بدون نجاح في ٥٠٩هـ محاصرة بعض قلاع الفرنج ومناوشة حكامها الصليبين.

ومع ذلك ،فقد ظلت السلطنة خلال حكم السلطان محمد محافظه على حاله من الاستقرار حتى وفاته في ٥١١هـ عندما اندلع الصراع بين اولاده على السلطنه ،كل من محمود ومسعود وطغرل .وما حدث بعد وفاة ملكشاه بين اولاده من صراع على ارتقاء السلطنه كان قد تكرر مع اولاد محمد نفسه. واصبحت خراسان سلطنه مستقلة، برئاسه سنجر، أخي السلطان الراحل. كما قامت الامارة الاتابكية في الموصل وحلب من حين كان عدد تناصر من هذه الاتابكيات تنافس السلطان في مصالحه الشخصية. وتبنى العباسيون في العراق سياسة النهوض والاستقلال بالخلافة التي اثمرت اخيرا بطرد السلاجقة من بغداد . وقد حدث كلّ ذلك على حساب ممتلكات السلطنة واستقلال ولاياتها.

وضع سلاجقة ايران بعد السلطان محمد: كان امر السلطنه اهم مايشغل بال السلطان الراحل محمد ،الذي كان قد اختار ابنه محمودا ليخلفه فيها. وبالرغم من حصول محمود على هذا المنصب وبقائه في السلطنه لما يقرب من ثلاثة عشر عاما من مركز حكمه في همدان، الآ انه ظل يواجه جملة من التحديات التي تصدرها عمه سنجر وأخواه مسعود وطغرل (من سلاطين السلاجقة لاحقا) حتى وفاته في ٥٢٥هـ ،وهو لم يزد عن سبع وعشرين سنة؛ فقد تحداه مسعود في ٥١٢هـ بغرض لقوته في بغداد بأشراف اتابكه أي . أيه جيوش بك مستغلا بعد السلطان عنه، كما كرر المحاولة في ٥١٤هـ بدون نجاح .ثم عصاه طغرل في ٥١٣ من مركز قلعته الحصين سرجهان في ٥١٣هـ فأضطر السلطان الى القيام بحملة تأديبية ضده وقد فشلت محاولات الصلح التي قادها وزير السلطان انوشروان بن خالد . الآ ان هذا الملك رضخ لشروط السلطان بعد ثلاث سنوات من تمرده.

سلطنة سنجر: كان سنجر حاكما مستقلا في خراسان واهم قوة قائمة في مناطق شرق ايران بعد خضوع الغزنويين وحكام ماوراء النهر له. ولكنه كان يتطلع الى اشغال السلطنه بعد وفاه اخيه محمد. كما كان السلطان محمود على علم بتطلعات سنجر، فحاول التفاهم معه عن طريق المفاوضات التي اختار لها الوزير الذي قاد التفاوض من قبل مع طغرل .الآ ان سنجر رفض التفاوض بحجه ان «ولد اخي الى السلطان صغير وقد تحكم عليه وزيره»(٢٦). وفي معركة قرب الري، قرر مصيرها قطيع من الفيله، نجح سنجر في كسب الحرب التي كانت تجري حتى ذلك الوقت لصالح السلطان. وكان من نتائج هذه المعركة التزام السلطان بعدم الخروج عن طاعة سنجر ،مقابل اعتراف سنجر بسلطنه محمد (مما زاد من دور سنجر في عزل وتعين امراء السلاجقة).

ولكن هذا السلطان (ت ٥٥٢هـ) ،الذي حكم مدة لاتقل عن نصف قرن في خراسان ، تمتعت خلالها هذه المنطقة باستقرار كامل، وقع في اسر عصابات الغز التي خرجت في ٥٤٨هـ على شكل موجه جديدة من التركستان لتدمر معالم الحياة الحضارية والفكرية والثقافية في خراسان ولتجهز على كل ماتمكن سنجر من انجازه خلال مدة حكمه لها.

وضع الخلافة العباسية وسياسة النهوض والاستقلال: بسبب هذه الحالة التي احدثها الصراع بين ابناء البيت السلجوقي واتابكتهم وامرائهم على السلطنه ونقل مكان هذا الصراع الى بغداد نفسها، التي فيها ادارة سلجوقية تابعة للسلطان ،فقد واجهت الخلافة العباسية طيلة بقاء السلطنه ،خاصة سلطنه مسعود (٥٢٦ ــ ٥٤٧هـ) ،تحديا سياسيا للخليفة استمر قائما الى وقت تمكن الخلفاء من تحقيق حالة من النهوض والاستقلال بالخلافة. وينظر المؤرخون الى هذه المدة على انها

بداية لعهد جديد في تاريخ الخلافة ، اي مدة حكم الخليفة المسترشد (٥١٢ ــ ٥٢٩هـ) والراشد (٥٢٩ ــ ٥٣٠) والمقتفى (٥٣٠ ــ ٥٥٥هـ) وابنه المستنجد (٥٥٥ ــ ٥٦٦هـ).

واهم شي يجب ذكره عن سياسة سلاطين السلاجقة تجاه الخلافة هو انهم كانوا يعارضون مسألة استقلال الخليفة العباسي ومباشرته النظر الى مسائل السلاجقة ومشاكلهم لان هدف السلاجقة الأساسي هو الهيمنة على شؤون الخليفة والتدخل في ادارته ليتماش مع مصالح السلاجقة وارادة السلطان .بصورة خاصة ،كان السلطان لايسمح للخليفة بممارسة حقه في فتح التجنيد العسكري وفي تكوين جيش خاص بالخلافة والخروج على رأس حملات عسكرية ضد السلاجقة وامرائهم ممن يطمع في اعمال الخلافة او يشكل خطرا سياسيا عليها. ولم يكن الخروج على هذه القاعدة للخلفاء الأوائل ــ القائم والمقتدى ــ امرا ممكنا ولكن منذ بداية خلافة المسترشد بالله، ورغم النهاية المحزنة التي انتهى اليها، وجد هذا الخليفة نفسه في وضع يسمح له بمارسة هذا الحق ،الذي ساعده على التخلص من هيمنة السلاجقة وطردهم من بغداد نهائيا(٢٧).

حتى اذا ماجاء المقتفى كان الخليفة قد استرجع سيادته المباشرة على العراق ،التي كانت قد فقدت للبويهين والسلاجقة لاكثر من قرنين من الزمن ،والحقيقة ان خلافة المقتفى(٢٨) كانت بمثابه نقطة تحول في الاستقلال السياسي والمالي للخلافة لانها كانت تحمل اشارات واضحة على زوال التدخل السلجوقي في العراق. وقد جاء هذا التحول تدريجيا على يد المقتفى بمساندة وزيره ابن هبيرة واصبح حقيقة واقعة عند وفاه السلطان مسعود في ٥٤٧هـ فبعد هذا التاريخ لم يذكر اسم سلاطين السلاجقة في بغداد لأي من القضايا الرسمية وطرد الشحنة منها نهائيا. وقد انتفع الناصر لدين الله عند مجيئه الى الخلافة في ٥٧٥ من جهود هؤلاء الخلفاء في مسألة النهوض واستقلال الخلافة عن السلاجقة التي تحققت بشكلها النهائي في خلافته.

ان هذه الملاحظات تبين أن السنوات الأخيرة من حكم السلاجقة شهدت ثلاثة تطورات واضحة تخص مستقبل سلاجقة ايران والعراق ١) الدور المهم والمتصاعد الذي اخذ بممارسته الخلفاء العباسيون في تحديد مسارات السلطنة ومستقبلها في ايران على المستوى السياسي والعسكري سويه، ٢) تزايد واستقرار دور الاتابكة وامراء الجيش في اختيار ،السلطان، اتخذت في بعض الحالات تكوين اتابكيات وراثية ٣) ضعف قوة السلطان واعتماده في البقاء بالسلطنه على قوة الاتابكه وامراء الجيش. ولم تكن هناك قوة تستطيع تغير امر هذه الحقيقة حتى عند وجود شخصيات القيادة في شخص اخر سلاطين سلاجقة ايران طغرل بن ارسلان(٢٩). ولذلك فقد تهيأت هذه المنطقة لحكم جديد تتمثل بامارة خوارزمشاه .وكانت منطقة خوارزم في التركستان تحت حكم السلطان سنجر، الّا ان المنطقة كانت قد تحولت منذ النصف الاول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي الى قاعدة لدولة تركية جديدة تحمل اللقب المحلي المستخدم للأمراء الاتراك خوارزمشاه. وقد تمكنت هذه الامارة الجديدة من الاستحواذ على ممتلكات السلاجقة في ايران ومن اذ تصبح حاكمة ايران حتى قيام الغزو المغولي لايران.

هوامش الفصل الرئيسية:

١. ظهرت مجموعة لابأس بها من الدراسات السلجوقية الحديثة مؤخرا اهمها ماأسهم به الاستاذان كلود كاهن CL. Cahen وبوزورث C.E. Bosworth حول تاريخ السلاجقة العام في ايران والاناضول. كما ان هناك دراسة الاستاذ مقدسي G. Makdisi عن ابن عقيل تخص علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية بالفرنسية. اما اهم المصادر الأولية فهي بالضرورة المصادر البغدادية: غرس النعمه محمد بن هلال الصابئ الذي عاصر طغرل وآلب ارسلانه وملكشاه. والذي نجد جزءا من تاريخه محفوظا في سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ، ثم ابن الجوزي وابن الاثير . وهناك العماد الاصفهاني ،تاريخ دولة آل سلجوق، وسلجوق ــ نامه لظهير الدين بالفارسية ،الذي هو الاساس لمجموعة من المصادر الفارسية المتاخرة وضمن هذه المجموعة كتاب اخبار الدولة السلجوقية لابن ناصر الحسيني ،يليه في الاهمية ابن النظام ، العراضمة في الحكاية السلجوقية، وراحة الصدور للراوندي.اما المصدر الذي يحكي قصة السلاجقة الملك ــ نامه لمؤلف مجهول لم يصل الينا ونجد بعض الروايات منه في روضة الصفا لمير ــ خواند. كما ان كتاب سياسة ــ نامه نظام الملك يحوي معلومات قيمة عن نظم السلاجقة وتنظيماتهم العباسية.

٢. تتكرر قصة السلاجقة وينسبهم لي عدد من الكتب التي تخص تاريخ هذه الامارة ونظمها، مثلا العماد الاصفهاني ،تاريخ دولة آل سلجوق ،ص٧ ؛ ابن الاثير ،الكامل ،م٩ ص٤٧٣ ــ ٧٤.

٣. هذا الكتاب لم يصل الينا ولايعرف مؤلفه ولكن المصادر السجلوقية الرئيسية تشير الى هذه القصة. جوانب من هذه الرواية نجدها في ميرخوان، روضة الصفا، م٤، ص٢٣٦.

٤. ميرخواند، روضة الصفا ،م٤، ص٢٣٧، ص٢٥٤.

٥. دقائق شخصية غير اسطورية .انظر رواية الملك ــ نامه في ميررخواند ــ روضة الصفا، م٤، ص٢٣٦.

٦. ميرخواند، روضة الصفا، م٤ ،ص٢٣٧، ٢٥٤.

٧. يورد ميروخواند لدلة على اخلاص سلجوق للاسلام .راجع المصدر ذاته، م٤ ص٢٣٧.

٨. العماد الاصفهاني ،تاريخ دولة آل سلجوق، ص٧؛ وانظرا ايضا ابن الاثير ،الكامل، م٩ ص٤٧٤؛ ميرخواند، روضة الصفا، م٤، ص٢٣٧.

٩. راجع ميرخواند، روضة الصفا، م٤، ص٢٣٧.

١٠. ابن الاثير ،الكامل، م٩، ص٣٧٧ ــ ٧٨ ؛ مير .خوند ،روضة الصفا ،م٤ ، ص٢٥٦. وكان السلطان محمود قد انبه الى خطوره مركز السلاجقة في ماوراء النهر فأرسل دعوه الى رؤساء السلاجقة لمقابلة حتى تمكن من اسند راجهم فكلف الأخوه الاربعة ارسلان اسرائيل لهذه المهمة. وطبقا لهذه الرواية فأن محمودا اظهر تخوفا من عرض ارسلان لقوة السلاجقة فودعه السجن وظل فيه (بعد فشل محاولة هروبه منه؟ الى وقت وفاته في قلعه كلنجر بالهند. انظر ابن النظام الحسيني ،الواضة في الحكاية السلجوقية ،ص٢٣ ــ ٣٠؛ ميرخواند ،روضة الصفا، م٤، ص٢٥٤..

١١. العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سجلوق، ص٨.

١٢. ابن الاثير ،الكامل، م٩، ص٤٥٧؛ ميرخوند ،روضة الصفا، م٤. ص٢٥٠ .

١٣. العماد الأصفهاني، تاريخ آل سجلوق ص١٠؛ ابن الاثير، الكامل، م٩ ، ص٤٨٣ — ٨٤

١٤. ابن الاثير ،الكامل ،م٩ ،ص٤٩٦ — ٩٧، ٥٠٧ — ٥٠٩.

١٥. انظر الملاحظات في سياسة — نامه، ص٢٠٨ ، ويقارن بما ذكره غرس النعمة في سبط بن الجوزي، مرآة الزمان (حوادث السلاجقة)، ص١٢٦.

١٦. انظر التفاصيل في ابن الأثير، الكامل، م١٠، ص٣٦ — ٣٧.

١٧. تفاصيل المحاكمة برواية كاتب الكندري موجودة في سبط بن الجوزي، مرآة الزمان (حوادث السلاجقة ،ص١٢٥ — ١٢٩.

١٨. انظر عن سيرته ابن الجوزي ،المنتظم ،م٩، ص٦٤ — ٦٨.

١٩. انظرا سبط بن الجوزي ،مرآة الزمان (حوادث السلاجقة)، ١٦٢ — ٦٣ ؛ ابن الاثير، (كامل) م١٠، ص٧٨ — ٧٩.

٢٠. ابن الجوزي، المنتظم، م٨، ص٢٧٨؛ ابن الاثير ،الكامل ،م١٠ ،ص٧٩.

٢١. نظام الملك ،سياسة — نامه ص٢٣٧ ، ابن الجوزي، المنتظم، م٨، ص٦١ — ٦٢.

٢٢. ابن الجوزي، المنتظم م٩ ، ص٦٥ — ٦٦ ؛ تاج الدين السبكي ،طبقات الشافعية الكبرى، م٣، ص١٣٧.

٢٣. السبكي ،طبقات الشافعية الكبرى، م٣ ،ص١٣٧.

٢٤. ابن الاثير، الكامل ،م١٠، ص٢٠٥ .

٢٥. عن صراع برقياروق مع محمد راجع ابن الاثير، م١٠ ،ص٢٨٩ ، ص٢٩٣ — ٩٦ ، ص٣٠٣ — ٣٠٤ ، ص٣٠٦ — ٣٠٧ ، ص٣٢٩ — ٣٣.

٢٦. انظر ابن الاثير، الكامل ،م١٠ ص٥٤٧ — ٥٥٠.

٢٧. يتضح من قول المسترشد للسلطان محمود: انك تعلم مابين وبينك في العهد واليمين وان لا اخرج ولا ادون عسكرا» ؛ وقول يرنقش الزكوي بحق المسترشد: (انه قد قاد العساكر ولقي الحروب وفويت نفسه ..»؛ او بالنسب الى الخلفية الاثر متى جندت لو خرجت فقد خلعت نفس من الامر» يراجع ابن الجزري المنظم، م١٠ ،ص٢٠ ،ص٦٠ ؛ ابن الأثير الكامل، م١٠، ص٦٣٥.

٢٨. مدد ابن الاثير،اعمال المتقي بانه: «اول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول ايام الديلم الى الامراء انظرا ،الكامل، م١١، ص٢٥٦.

٢٩. بوزورث ، في تاريخ كمبردج لايران، م٥، ١٦٧.

أتابكة فارس وأذربيجان

يرجع أصل نشوء هاتين الامارتين الى نظام الاتابكه(١) المرتبط بالدولة السلجوقية، حيث نجد أصل هذا النظام في تنظيمات التركمان الأجتماعية وعاداتهم، واذا كان نظام الاتابكة ذا طبيعة أجتماعية فأن الصفات العسكرية التي رافقته والتي أصبحت هي الأساس في تمثيله ماهي إلا تطورات لاحقه بالنظام سببتها عسكرية الامارة السلجوقية ونظام الاقطاع الذي شاع فيها بصورة واسعة. وكان شخص الأتابك بأستثناءات قليلة جدا هو واحد من أمراء السلاجقة العسكريين المقربين للسلطان الحاكم، الذي يكلفه بتحمل مسؤولية تربية أحد أولاده من الملوك. والتي يشترط لتثبيته التزوج فيما بعد من والدة المكلف بتربيته. ومن هنا جاء معنى الأتابك أي «الأمير الوالد» فهو تعبير سلجوقي يضم وراءه أهدافا سياسية وعسكرية تخص تربية الولد ومنعه من التمرد في الأقليم الذي يخص الأتابك المشرف على تربيته. غير أن مايعني نظام الاتابكه في حقيقة الامر الواقع هو أن هذا الولد المكلف بتربيته يتحول الى سجين عند الأتابك المشرف، وأن الأتابك يصبح من القوة والنفوذ بحيث لاجد السلطان بدا من الاعتراف باتابكيته. والى هذا النظام تنتمي كل من اتابكة فارس وأذربيجان. اللتان أدتا دورا مهما في تاريخ ايران السياسي والحضاري خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

اتابكة فارس كان عائلة السلغوريين(٢) في فارس قد حكمت مايقرب من مائة وعشرين سنة قوة تابعة للسلاجقة اولا ثم لخوارزم شاه وريثة الحكم السلجوقي في ايران، ثم خضعت فيما بعد للأيلخانيين، بعد أن أجتاحت جيوش هولاكو غرب ايران في طريقها الى دولة الخليفة في بغداد.

يرجع السلغوريون في الاصل الى عائلة تركمانية من قبيلة سلغر (او سلر) التي أسهمت في تقرير قواعد حكم سلطنة سلاجقة الروم. ويرجع تاريخ نشوء هذه الاتابكية الى سنة ٥٤٣/١١٤٨ بشخص مظفر الدين سنقر الذي استفاد من المشاكل التي كان يواجهها السلطان مسعود لتوسيع نطاق النفوذ السلغوري على فارس، فمد نفوذه على كرمان واتخذ شيراز عاصمة للملكة. وتذكر بعض المصادر أن سنقر هذا كان أبن أخ لحاكم سابق على المقاطعة، مع أن هذه العلاقة ليست مؤكده. وكان ولد سنقر المدعو زنكي قد ثبته على فارس السلطان ارسلان بن طغرل. ويبدو أن المقاطعة كانت قد حققت خلال حكمه درجة لابأس بها من الاستقرار والازدهار ساهمت في نمو الحركة الفكرية والعمرانية هناك. ولكن الازدهار الحقيقي لحكم هذه الاتابكيه كان قد حدث خلال عهد الاتابك عز الدين سعد (٥٩٠ ــ ٦٢٨/١١٩٤ ــ ١٢٣١)، وريث زنكي في الحكم، الذي اتسعت املاك أتابكيته لتشمل أصفهان. ومن خلال سيرة هذا الحاكم تمكن الشاعر المعروف سعدى(٣) من أنتاج عمله الأدبي، الذي كان له علاقة بالاتابك عن طريق والده (كان في خدمته شخصيا).

إلا أن الحرب مع القوى المعاصرة لهذه الاتابكية أخذت شوطا من حكم هذا الاتابك ،فبعد ثمانية أعوام من النزاع مع عمه طغرل كان على سعد أن يعيد حالة الاستقرار الداخلي الى مقاطعته المنكوبه، فأخضع أكراد فارس بزعامة أحد رؤسائهم من الشبنكرا، وهاجم كرمان القريبة من مركز حكمه، وحاول أخذ الري والتوسع في الجبال ولكن سعد ،بعد مدة من الثبات والمقاومة ، أضطر الى الاعتراف بسلطة علاء الدين محمد خوارزمشاه وتنازل عن قسم من أراضية له كما ووافق على أن يعطيه سنويا ثلث وارداته المالية، ولكن الأتابك سعدا دخل معه في عقد زواج على عروسة خوارزمية(٤).

وفي زمن الاتابك ابي بكر .الذي تولى الحكم بعد وفاة سعد، خضعت الاتابكية لجنكيز خان ،وارسلت له الهدايا مقابل السماح لابي بكر بالاحتفاظ باتابكيته. ثم خضعت هذه الاتابكية لهولاكو عندما اجتاح ايران لغرض تدمير الأسماعيلية في طريقه الى التوجه نحو بغداد ،وقد منح هولاكو الاتابكيه الى الاميرة آبشما، حفيدة أبي بكر، التي زوجها من أبنه الحادي عشر منكو تيمور(٥) (٦٥٤ — ٦٨٠/١٢٥٦ — ١٢٨٢) .

أتابكة أذربيجان

اتابكة أذربيجان(٦): ينسب هولاء إلى شمس الدين ايلركز(٦) أتابك أيران واجزاء من أذربيجان. وكانت المقاطعات الشمالية الغربية في ايران قد بقيت خارج نفوذ السلطان المباشر، فقد كانت مقسمة بين جماعتين ،اتابل ايلركز أو الايلركزيون ، والاحمديلية. وكان شمس الدين ايلركز في أصله أحد مماليك الوزير كمال السميرمي، وزير السلطان محمود، الى إن أنتقل في خدمة السلطان مسعود الذي عينه حاكما لأران. وقد ظل ايلركز زمنا بعيدا عن صراع امراء السلاجقة حول السلطنه حتى زواجه من أرملة السلطان الراحل طغرل ،مؤمنة خاتون، التي تركت له كلا من بهلوان وقزل آل ارسلان اللذين أستمرا في حكم أتابكيه اذربيجان بعد ايلدكز.

أتابكيه ايلدكز وسياسته تجاه السلطنة السلجوقية: كان شمس الدين ايلدكز قد ناصر في البداية دعوة ملكشاه بن محمود للسلطنة، ولكن سرعان ماتبنى قضية أرسلان بن طغرل وزوجته مؤمنه خاتون ،والذي رتب له أمر السلطنة في همدان بعد مقتل سليمان شاه في ١١٦١/٥٥٦. الا أن نشاط ايلدكز السياسي والدبلوماسي لم يكن مقتصرا على منطقة حكمه في اران واذربيجان وحدها، بل تعدت الى خارج دائرة نفوذه، مثلا في خراسان مع أيه أبه الذي أستفاد منه فيما بعد عند ظهور خطر خوارزمشاه .كما قام هذا الأتابك بالدفاع عن حدود ايران الشمالية الغربية ضد محاولات الحكام الجورجيين للتغلغل داخل ايران .وقد تمكن ايلدكز من ايقاف توسعهم تدريجيا (كنجه دربند) الى وفاته في نخجوان في ١١٧٥/٥٧٠.

أتابكية جهان بهلوان محمد: ثم خلفه أبنه بهلوان محمد الذي دخل من البداية في صراع مع السلطان ارسلان ،الذي حاول التخلص من سيطرة الايلدكزيين عليه، حيث كان قد تحول من همدان الى زنجان من أجل مهاجمة أذربيجان. ولكن السلطان، وهو في سن لاتتجاوز احدى واربعين عاما سقط مريضا وتوفي على مايقال بعد ان دس له السم بهلوان، الذي رتب طغرل أبن ارسلان سلطانا جديدا لسلاجقه ايران ..

توفي جهان بهلوان في ١١٨٦/٥٨٢ فحل محله في الاتابكيه أخاه قزل أرسلان عثمان ،الذي تقاسم حكم الاتابكيه مع أولاد بهلوان الأربعة.

كانت سياسة جهان بهلوان في الحكم مسؤولة عن تردي أوضاع الأتابكه ،فقد عين أخاه مظفر الدين قزل أرسلان خلفا له على الأتابكيه ،ولكنه في الوقت نفسه قسم المناطق التي كانت تخضع لحكمه الشخصي بين اولاده الأربعه، الذين كانوا يخضعون لاشراف قزل «أرسلان» الذي وجد نفسه في هذا الوظيفة بموجب عادات الاتراك التي تحترم عامل كبر السن للذكور، بالترشيح لهذه المناصب. وسرعان مانشب النزاع بين ولدي جهان بهلوان المتمردين من زوجته أننج خاتون بنت أمير الري (أننج سنقر) وبين بقية اولاده المترديين من زوجته الأخرى الجارية في الأصل،

ولاسيما ولده ابو بكر، الذي كان قد حصل على دعم وتأييد قزل أرسلان، الذي ورث في النهاية الاتابكية التي كانت تحمل اسم والده جهان بهلوان. وقد وقف السلطان الجديد طغرل (الثالث)، أخر سلاطين السلاجقة في ايران مع أولاد أنبج خاتون (قتلغ أنبج محمد) كرها لقزل أرسلان الذي كان قد نصب سنجر بن سليمان شاه سلطانا منافسا لطغرل. وبالرغم من جهود طغرل في كسب تعاون صلاح الدين الايوبي والخليفة الناصر لدين الله الا إنه أجبر في ٥٨٦/١١٩٠ على تسليم نفسه الى قزل ارسلان ،الذي أحتجزه مع أبنه في قصر بالقرب من تبريز(٧).

وهكذا أصبح المجال مفتوحا أمام قزل ارسلان للمطالبة بالسلطنة شخصيا، بما ذلك التمتع بشارات وميزات منصب السلطان ،ولكن قزل ارسلان لم يبق كثيرا في السلطنة ،فقد وجد مقتولا بصورة غامضة بعد سنة من انتصاره على طغرل ويرجح أن زوجته انبج خاتون قد دست له السم، وكان قد تزوجها بعد وفاة أخيه بهلوان. وقد تمكن طغرل ،بعد أطلاق سراحه (٥٨٨/١١٩٢) من القضاء على المنافسه التي كان يثيرها له الايلدكزيون بشخص أبي بكر أو من اولاد بهلون الاخرين (قتلغ انبج). وقد حاول قتلغ أنبج أن يحصل على دعم من قوة جديدة تحكم إيران هي خوارزمشاه بشخص تكش الذي كان قد مد نفوذه تدريجيا الى غرب ايران وتمكن في ٥٩٠/١١٩٤ من القضاء على السلاجقة بشكل نهائي بشخص طغرل في معركة مهمة خارج الري. ولكن بعد تعاون سياسي قصير الامد أختلف قتلغ مع خوارزمشاه وتكش (٥٩٦/١٢٠٠) والذي حاول التحكم به عن طريق اشراك اولاده معهم في الحكم .أما ابو بكر فقد بقي محتفظا بمركزه في اذربيجان واتجه نحو تشجيع الحركة الفكرية والتعليمية عن طريق بناء المساجد والمدارس لعدد من الفقهاء. ثم أستقر حكم هذه الاتابكيه لمظفر الدين باوزبك، أخي أبي بكر ،ومن بعده أبنه خلموش تجاه بداية الربع الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

الهوامش:

١. مصادر دولة الاتابكه هي مصادر الدولة السلجوقية نفسها المتأخرة منها بصورة خاصة ،لذا يراجع بخصوصها الملاحظات المذكورة في الفصل السابق عن مصادر السلاجقة. ولكن يجب ان نضيف الى ذلك دراسة الدكتوراة التي قام بها حسام النقشبندي عن أذربيجان ، والمقالات والعامة عن اتابكه فارس واذربيجان في دائرة المعارف الاسلامية .

٢. عن السلغوريين راجع ميرخواند ،روضة الصفا، م٤ ،ص٦٠٦، وانظر ايضا بوزورث، العالم الايراني .. في تاريخ كمبرج لايران ،م٥ ،ص١٧٢ — ١٧٣.

٣. انظر ملاحظات بوزورث، «العالم الايراني» في تاريخ كمبرج لايران، م٥ ،ص١٧٣؛ وانظر ايضا ميرخواند، روضة الصفا، م٤، ص٦٠٨ — ٦٠٩.

٤. بوزورث، العالم الايراني في تاريخ كمبرح لايران ،م٥ ص١٨٤ (ومصادره) .

٥. ميرخوند ،روضة الصفا ،م٤ ،ص٦٢٠.

٦. عن هذه الاتابكيه انظر النقشبندي «اذربيجان» رسالة دكتوراة غير منشورة ص٢٣٣ — ٣٧١ ؛ وانظر ايضا حافظ احمد حمدي، الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي، ص١١٠. القاهرة ١٩٥٠.

٧. انظر بوزورث «العالم الايراني» في تاريخ كمبرج لايران، م٥ ،ص١٦٩ — ١٧١. ميرخوند، روضة الصفا م٤، ص٥٩٩ — ٦٠٥.

المبحث الرابع:

الخوارزميون ...

٤٩٠ ــ ٦٢٨هـ / ١٠٩٧ ــ ١٢٣١م

ظهور الخوارزمية:

لعل أول ظاهرة تلفت النظر فيما يتعلق بنشوء هذه الكيانات السياسية في خراسان وبلاد ماوراء النهر. ان كل كيان في بدايته نشأ وترعرع تحت رعاية وكنف الكيان الذي سبقه في المنطقة ثم استغل الضعف الذي دب في هذا الكيان الراعي وتوسع مادا نفوذه في اراضي ذلك الكيان فالسامانيون نشأوا في كنف الطاهريين واخذوا العديد من تقاليدهم السياسية وارثهم الاداري. ونشأ الغزنويون في كنف السامانيين ثم سلبوهم اعز اقاليمهم (خراسان) ونشأ السلاجقة في كنف الغزنويين واخيرا نشأ الخوارزميون ــ موضوع بحثنا ــ في كنف السلاجقة ثم توسعوا على حسابهم!! ولهذا فإن الكيان الخوارزمي انبثق عن الكيان السلجوقي وسمي بهذا الاسم نسبة الى اقليم خوارزم الواقع شرقي بحر الخزر وشمالي شرقي خراسان آخر اقاليم بلاد فارس .واقليم خوارزم منطقة سهول ومراع عامرة وسكانها من بدو الترك. وقد استمر الكيان الخوارزمي اكثر من قرن وربع قرن من الزمان.

تعزو المصادر التاريخية بداية الاسرة الخوارزمية الى انوشتكين الذي كان عبدا مملوكا تركيا في البلاط السلجوقي على عهد السلطان ملكشاه. وكان يشغل وظيفة (الطشتدار) اي المسؤول عن حمام السلطان وأوانيه على حد قول بعض الروايات، أو (الساقي) الذي يشرف على الماء والمشروبات على حد قول مصادر اخرى. ثم تدرج في المناصب حتى منحه السلطان السلجوقي بعض الاقطاعات ثم عينه واليا على خوارزم حيث خلفه ابنه قطب الدين محمد الذي اقره السلطان بركياروق في محل ابيه سنة ٤٩٠هـ ومنحه لقب خوارزمشاه. ويعد قطب الدين محمد مؤسس الكيان الخوارزمي. فقد استطاع خلال حكمه الطويل (٢٢ سنة) ان يوطد نفوذ الخوارزمية وان يكسب احترام ومودة السلطان سنجر السلجوقي الذي اعترف بخوارزمشاه حاكما على الاقليم سنة ٥١٢هـ . ولابد من الاشارة الى أن الخوارزمية جابهوا العديد من التحديات ومراكز القوى على ساحة المشرق الاسلامي المضطربه في القرن السادس الهجري واوائل القرن السابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين فهناك اولا السلاجقة والغوريون وثانيا الخلافة العباسية التي شهدت الانتعاش على عهد الناصر لدين الله وهناك نشاطات الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) في بلاد فارس التي اتسمت بالارهاب والاغتيال السياسي وهناك اخيرا الخطر المغولي المدمر الذي بات على ابواب العالم الاسلامي المشرقية.

اتساع النفوذ الخوارزمي:

إذا كان قطب الدين محمد قد حقق للخوارزمية اعترافا رسميا بنفوذهم في خوارزم فإن الأمر الذي حقق لهم الاستقلال السياسي عن السلاجقة هو علاء الدين أتسز على عهد السلطان سنجر السلجوقي في سنة ٥٣٨هـ / سنة ١١٤٣م.

وكما اشرنا في مايتعلق بالكيانات السابقة فإن صفة الحاكم وشخصيته السياسية تبقى ناقصة حتى ينجح في الحصول على عهد الخليفة العباسي بتعينه على الاقاليم وحينذاك تغدو سلطته شرعيه في نظر جماهير الاقليم الذي يحكمه والرأي العام الاسلامي كله. وقد ارسل له المتقي لأمر الله هذا العهد على ولاية خوارزم «وماينضاف اليها»!!

ولقد استطاع علاء الدين أتسز ان يحقق نجاحا كبيرا في صده لغزوات السلطان سنجر السلجوقي وحصل منه في النهاية على الاعتراف بكونه حاكما مستقلا على خوارزم .وعلى العموم فقد قاست الدولة السلجوقية من الانقسام والوهن بعد وفاة السلطان ملكشاه وتنافس الامراء السلاجقة على الحكم فانقسموا على انفسهم وقد استغل الخوارزميون هذا الضعف وتوسعوا في حد نفوذهم. ولقد امتدت السيادة الخوارزمية على خوارزم وكل بلاد فارس ماعدا اقليمي فارس وعربستان (الاحواز). كما امتدت شرقا حتى جبال السند.

استمر الخوارزمية بعد وفاة علاء الدين أتسز على نهج سياسته في القوة والتوسع والجهاد .في الثغر الشرقي ولكنهم واجهوا انقساما حادا سنة ٥٦٨هـ ١١٧٢م حيث تنازع الاخوان سلطان شاه وتكش اولاد إيل ارسلان .وانتصر الثاني مستوليا على خوارزم وخراسان والري حتى استطاع ان يقضي على سلاجقة العراق بقتله أخرهم طغرل الب أرسلان السلجوقي سنة ٥٩٠هـ .كما توسع في الشرق على حساب دولة الخطا. ونجح في اعاقة امتداد خطر النزارية الحشيشية في ارجاء بلاد فارس.

وجاء بعد تكش ابنه علاء الدين محمد سنة ٥٩٦هـ /١١٩٩ وغدت امارة الخوارزمية أقصى اتساعها على عهده فامتدت من بحر قزوين شمالا الى الخليج العربي جنوبا ومن حدود العراق الشرقية غربا الى حدود الهند غربا. وكان امراء بلاد ماوراء النهر يستنجدون به كلما تعرضوا لخطر الخطا فقد كتب له صاحب سمرقند كما يقول ابن الاثير يستنجده ١٢٠٧م / سنة ٦٠٤هـ قائلا:

«ان الله قد اوجب عليك بما اعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود ان تستنقذ المسلمين وبلادهم من ايدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الاموال والابشار».

ولكن علاء الدين محمد في حملته هذه وقع اسيرا في يد الخطا رغم انه افلت من الاسر بعد مدة وجيزة. وواصل حملاته ضد الخطا حتى اسقط كيانهم وبهذا زال الحاجز بين الخوارزمية وقوة المغول المتنامية. كما استولى على اقاليم الغوريين واحتل العاصمة غزنه سنة ٦١٢هـ /سنة ١٢١٥م فسقط الغوريون كذلك أمامه.

واذا كان خوارزمشاه علاء الدين محمد قد استطاع ان ينقذ بلاده في اخطار عديدة جابهتها فانه وقف متحيرا تجاه الزحف المغولي الهائل الذي اجتاح اقليم خوارزم سنة ٦١٧هـ /سنة ١٢٢٠م وقد ادرك علاء الدين محمد انه لاقبل لجيشه بهذا السيل البشري فترك السلطة وفر الى احدى جزر بحر قزوين حيث مات في السنة نفسها بعد ان أوصى لابنه جلال الدين منكبرتي بالحكم من بعده.

ويعد جلال الدين منكبرتي من سلاطين الخوارزمية العظام نظرا لقابلياته الحربية ولكنه جاء متأخرا بعد فوات الأوان كما ان سياساته تجاه القوى الاسلامية في بلاد المشرق وغيرها كانت تستند الى الشك والريبة والقسوة في التعامل مما نفر منه العديد من الامراء والخلافة العباسية نفسها. فبدلا من ان يجمع المسلمين على هدف واحد وهو رد الزحف المغولي فرقهم وشتتهم بسبب اطماعه التوسعية وشكوكه. فلم يكتف جلال الدين منكبرتي بالتوسع على حساب الخلافة وامراء بلاد فارس بل طمع حتى في املاك الايوبيين في بلاد الشام.

لم يستطيع منكبرتي الوقوف أمام المغول الذين تعقبوه من موقع الى آخر حتى قتل في احدى قرى كردستان سنة ٦٢٨هـ/سنة ١٢٣١م وبهذا انتهى نفوذ الخوارزمية في المشرق الاسلامي.

لقد اشرنا في كتابنا (الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة) الى ان علاقة الخلافة العباسية بالخوارزمية مرت بمد وجزر. صحيح ان الخلافة العباسية استعانت بهم للقضاء على آخر السلاجقة ولكنهم عدوا انفسهم ورثة السلاجقة الشرعي مما ضايق الخلافة الى ابعد الحدود وبدأت تتشبث بكل الوسائل المتاحة لديها لدرء خطرهم والتخلص من احتمال سيطرتهم على بغداد.

على ان الخوارزميين انفسهم ،ومن خلال سياساتهم المعروضة في كتب التراث التاريخي لم يكونوا طلاب وحدة اسلامية او جبهة اسلامية متحدة ضد دار الكفر للأسباب الثلاثة الأتية:

اولا ــ ان علاقتهم بالخلافة العباسية لم تكن على العموم ودية او جيدة.

ثانيا ــ ان سياساتهم تجاه القوى الاسلامية في بلاد فارس وبلاد الشام كانت تستند الى مبدأ الشك والتنافس والصراع على النفوذ والتوسع وخاصة في العصر الخوارزمي الأخير.

ثالثا ــ ان اطماعهم التوسعية كانت متجهة نحو بغداد والعراق حيث الخلافة العباسية وليس للجهاد في سبيل الله في الساحة الشرقية حيث دار الكفر. ولهذا فإن الخوارزميين كرروا خطا الصفاريين والبويهيين والزياريين في كون هدفهم الخلافة والعراق ولم يسيروا على النهج الاسلامي الصحيح الذي سلكه الغزنويون والغوريون والسلاجقة في جعل الجهاد الاساس الذي تقوم عليه سياستهم الدائمة الامر الذي أعطى الانطباع الجيد عنهم لدى الرأي العام الاسلامي.

لقد ارادت الخلافة العباسية من الخوارزمية ان يكونوا سدا منيعا بينها وبين المغول ولكن الخوارزمية على العكس من ذلك وبسبب الطموحات الشخصية لحكامها انشغلت بالتوسعات

الاقليمية الداخلية ففشلت في تحقيق هدفها وفشلت في تحقيق أمل الخلافة العباسية فيها واضعفت كيانات القوى الاسلامية الأخرى في المنطقة اما بتدميرها كما فعلت مع السلاجقة والغوريين او باضعافها كما فعلت مع الامراء الأخرين في بلاد فارس وبلاد الشام. ولم تستطيع حتى اجتثاث النزارية الحشيشية ذلك الاجتثاث الذي حققه المغول الكفار!! في سنة ١٢٥٦م/ سنة ٦٥٤هـ .

لم يكن الخوارزميون مخلصين في تعاونهم مع الخلفاء العباسيين بل كانت مصلحتهم الشخصية فوق مصلحة الخلافة ويبدو ذلك واضحا في موقف اتسز من الخليفة الراشد سنة ٥٣٢هـ حين انسحب اتسز بجيشه عن جيش الخليفة الضعيف في (بطايح الحويزة) حين سمع بقدوم السلطان مسعود السلجوقي مع جيشه وترك الخليفة للمصير المؤلم حيث انسحب الى اصفهان وقتله الحشيشية.

على انه لابد من وقفة تفصل العلاقات بين الخلافة والخوارزمية على عهد الناصر لدين الله الذي حاول استرجاع قوة الخلافة والسلطة المركزية العباسية. وقد استعان الناصر بتكش للقضاء على السلاجقة سنة ٥٩٠هـ. ولكن الشكوك لم تنعدم بين الطرفين وزاد منها الاطماع لاقتسام املاك السلاجقة ،حيث نجح الناصر في طردهم من خوزستان وهمذان والري وبهذا ابعدهم عن حدود العراق الشرقية ولو لمدة قصيرة من الزمن .الا ان الطرفين العباسي والخوارزمي لم يلبثا أن ادركا حاجة بعضهما الى بعض فوقع الصلح بينهما.

ومع هذا فقد استغلت الخلافة وجود الغوريين لتهديد الخوارزمية ووقف تحركهم باتجاه العراق ،وقد توفي خوارزم شاه تكش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م وهو يعد العدة للهجوم على بغداد. وجاء بعده ابنه علاء الدين محمد حيث سادت علاقات المودة بينه وبين الخليفة الناصر وتبودلت الوفود الرسمية خلال المده الاولى من حكمه. ولكن هم خوارزمشاه انحصر في تحقيق أمله في إقامة الخطبة بأسمه في بغداد الى جانب اسم الخليفة الأمر الذي كان لايتماش مع سياسة الخليفة الناصر القائمة على إعادة هيبة واستقلالية الخلافة العباسية.

لقد أصر خوارزمشاه علاء الدين محمد في غطرسته تجاه الخلافة ببغداد فكتب الى الناصر يطلب منه ان «يكون امر بغداد والعراق لي ولايكون لك الا الخطبة»!! ولما رفض الناصر هذا الطلب بشدة بدأ خوارزمشاه يخطط لتنفيذ مأربه بالقوة. ولم تنقصه الذرائع للحرب ضد العراق، فقد بدأ يثير القلاقل والاضطرابات داخل العراق ودبر تمردا قام به مماليك الديوان واعانهم ولكن التمرد أحبط. ثم تبنى قضية الظاهر بن الناصر الذي عزله والده عن ولاية العهد. وجعل ذلك حجة لسير الى العراق بالعساكر ليرد لولي العهد حقه الشرعي!!. واكثر من ذلك استطاع خوارزمشاه ان يقنع بعض العلماء والفقهاء الموجودين عنده للافتاء بعدم شرعية حكم العباسيين واسقاط اسمهم من الخطبة والسكة. وذلك على اعتبار انهم يشقون جماعة المسلمين ويتركون فريضة الجهاد ويتصلون بالكفار الخطا ولايقمعون اهل الضلالة من الباطنية.

وبعد ان هيأ خوارزمشاه الاجواء بدأ بالزحف نحو بغداد سنة ٦١٤هـ/سنة ١٢١٧م ولكن الناصر العباسي استعد لملاقاته فأثار ضده حكام اقليم فارس واذربيجان. كما ان نائب خوارزمشاه قتل على يد الحشيشية النزارية. كما ارسل له الناصر رسولا يثنيه عن الزحف نحو بغداد ولما لم تجد وسائل السلم نفعا أستعد الخليفة الناصر للحرب ولكن فصل الشتاء القارص البرد والرياح الثلجية الشديدة جابهته بعد مسيرة ثلاثة ايام عن همدان باتجاه استراباذ فخسر العديد من الرجال فاضطر للقفول راجعا يجر اذيال الخيبة والندامة.

وقد حاول الخليفة الناصر عن طريق وزيره مؤيد الدين القمي ان يتصل ببعض قواد علاء الدين محمد سنة ٦١٥هـ مقترحا عليهم التخلص منه. بالاستعانة بقبائل الخطا الذين كانوا في جيشه ولكن خوارزم شاه تنبه الى هذه المؤامرة قبل وقوعها.

اما المحاولة الثانية لاحتلال الخوارزمية بغداد فقد حدثت على عهد جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين محمد (٦١٧هـ ــ ٦٢٨هـ). فقد حاول فكبرتي التوسع غربا على حساب الخلافة العباسية متناسيا او متغافلا عن خطر المغول. وحين فشل منكبرتي ان يكسب الى جانبه امراء آخرين من حكام الاقاليم قرر الزحف بنفسه نحو بغداد لكي يتم مافشل والده عن تحقيقه .فأحتل اقليم الاحواز التابع اداريا وسياسيا لبغداد وهزم طلائع جيش الخلافة الا انه لم يستطع احتلال تستر عاصمة الاقاليم انذاك. فتركها وزحف نحو بلدان العراق بين واسط وبغداد ينهب ويسلب ويقتل اهلها. فسادت الفوضى وكثر قطاع الطرق ونهبت القوافل التجارية.

اما منكبرتي فزحف بجيشه باتجاه بعقوبا واحتلها فأرسل اليه الناصر جيشا بقيادة مملوكه قشتمر ولكنه لم يفلح في صده. الا ان الناصر كعادته استعد للدفاع عن بغداد وهيأ نفسه لحصار طويل وبذل المال الكثير لاصلاح السلاح ونصب المجانيق وترميم الحصون، كما طلب من حاكم أربل حليف الخلافة العباسية أن يقطع تموين العساكر الخوارزمية. وقد ادرك منكبرتي انه لاقبل له بالتصدي او الهجوم وقد اعيا جيشه التعب والارهاق فقرر الانسحاب نحو بلاد فارس بعد ان استراح اكثر من اسبوعين في بعقوبا. وفي طريق انسحابه هدم ودمر ونهب القرى في ضواحي بغداد كما دمر داقوقا.

وهكذا فشلت المحاولة الخوارزمية الثانية لاحتلال بغداد وعادت المياه الى مجاريها بين العباسيين والخوارزمية رغم انه لم يكن هناك تحالف حقيقي بين الطرفين مع تحسسهما بان المغول باتوا على الابواب!! .ولم تفد السلطان منكبرتي كل الالقاب التي حصل عليها من الخليفة العباسي مثل لقب «الجناب العالي الشاهنشاهي» في الوقوف امام التيار المغولي الجارف الذي جرفه سنة ٦٢٨هـ ثم جرف بعده الخليفة العباسي نفسه سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م.

المبحث الخامس:

الحشيشية في بلاد فارس

٤٨٣هـ/١٠٩٠م ـ ٦٥٤هـ ١٢٥٥م

مقدمة:

في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وخلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كان العالم العربي ــ الاسلامي يمر بحالة من الضعف السياسي والتفكك الاداري يرثى لها فالخلافة العباسية في بغداد كانت ومنذ سنة ٣٣٤هـ قد وقعت تحت سيطرة البويهيين الديالمة، وقد نزل الخليفة مكرها عن كل سلطانه المدنية الى امير الامراء البويهي. اما الجزيرة الفراتية فكانت تحت سيطرة الحمدانيين، كما سيطر القرامطة على البحرين واجزاء من شرقي الجزيرة العربية وسيطر الاباضية على عمان في الخليج العربي وتقاسم بلاد فارس البهويهيون والساسانيون وسيطر الفاطميون على المغرب ومصر . وحكم الامويون بلاد الاندلس.

ان هذا الانقسام السياسي لما كان يسمى بالخلافة العباسية هو الذي شجع على ظهور حركات سياسية تتبرقع بالدين لكي تنشط بين الجماهير وتكسبها الى جانبها ثم تستخدمها لضرب النظام القائم وكل ما يمثله هذا النظام من قيم سياسية ودينية واجتماعية وثقافية ولتستبدل به نظاما جديدا يختلف عنه تمام الاختلاف. ومن هذه الحركات «الدعوة الجديدة» وهو الاسم الذي اطلقه زعماؤها على الحركة الحشيشية.

ما «الدعوة الجديدة»؟

الدعوة الجديدة حركة متطرفة منشقة عن الحركة الاسماعيلية التقليدية (القديمة) عرفت لدى معاصريها ولدى المؤرخين بأسماء عديدة(١) لعل اشهرها الحشيشية او النزارية او السبعية او الباطنية. كما عرفت لدى مؤرخي اوربا باسم Assassins «السفاكين» لانها تبنت مبدا الاغتيال السياسي والارهاب وسيلة لتحقيق اهدافها، كما عرف زعماؤها لدى الاوربيين باسم «شيخ الجبل».

وتمثل «الدعوة الجديدة» الحشيشية جهود العقائد السابقة للاسلام ــ وخاصة الفارسية المجوسية منها ــ للتغلغل الى العقيدة الاسلامية وتخريبها وتدمير اصولها ومن ثم احلال عقائد قديمة محلها او العودة بالمجتمع العربي ــ الاسلامي الى الوثنية. وطبيعي ان هذا الهدف يتضمن تدمير النظام السياسي الذي يرتكز على الاسلام الا وهو الخلافة العباسية. والمعروف تاريخيا ان الحركة

الاسماعيلية التقليدية، رغم انقسامها فرقا عديدة، استطاعت ان تحقق مكاسب سياسية واضحة على حساب الخلافة العباسية فالقرامطة سيطروا على البحرين واجزاء من غربي العراق وبلاد الشام، كما استطاع الاسماعيلية ان يؤسسوا الدولة الفاطمية التي امتدت الى مصر واجزاء من بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/التاسع الميلادي.

وليس يهمنا في هذا المجال الكلام عن نشاطات الفرق التي انشقت عن الحركة الاسماعيلية التقليدية ولكن الذي نود الاشارة اليه هو الانشقاق الذي يمت بصلة الى موضوع بحثنا «الدعوة الحشيشية الجديدة»، وهو الانشقاق الذي وقع بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بمصر سنة ٤٨٧هـ /١٠٩٤م فلقد قاست الحركة الاسماعيلية التقليدية في مصر منذ وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله من سيطرة قادة الجيش على الادارة المدنية وتحكمهم في سياسة الدولة فمنذ سنة ١٠٧٤م / ٤٦٧هـ أصبح القائد الارمني أمير الجيوش بدر الجمالي الحاكم الحقيقي للدولة الفاطمية ولم يعد للخليفة الفاطمي اي أثر في السياسة. كما لم تعد الدولة تهتم بأمور الدعوة الاسماعيلية ونشرها في انحاء جديدة من العالم الاسلامي.

وحين توفي الخليفة المستنصر الفاطمي كان امام الافضل بن بدر الجمالي خيارين لا ثالث لهما فاما ان يختار للخلافة نزارا الابن الاكبر للمستنصر وكان ناضجا كما عرف عن والده انه رشحه لولاية العهد وحظي كذلك بتأييد الدعاة الاسماعيلية .او ان يعين المستعلي وهو الابن الاصغر للمستنصر ولم يكن له اي فئة تؤيده او دعاة ينادون بزعامته ولكنه كان يمت بصلة المصاهرة الى الافضل بن بدر الجمالي. وقد اثر هذا الاخير ان يختار المستعلي للخلافة ضاربا عرض الحائط رغبة الخليفة السابق والدعاة الاسماعيلية. ولاشك في أن المستعلي الضعيف سيكون خليفة بالاسم فقط اما الحاكم الفعلي فهو الافضل الاجمالي(٢).

لقد شق الافضل بن بدر الجمالي ،باختياره المستعلي، الحركة الاسماعيلية الى قسمين: النزارية وهم الذين يعترفون بنزار بن المستنصر اماما للدعوة والمستعليه الذين عدد المستعلي الامام الشرعي بعد ابيه المستنصر. وفي روايات تاريخية(٣) ان نزارا اكره على التخلي عن الامامة ثم اودع السجن مع ابنه حيث لقيا حتفهما. ولعل الافضل بن بدر الجمالي هذا كان مدفوعا عن قصد ووفق خطة مرسومة اراد بها ان يبعد الخلافة الفاطمية بمصر عن الدعوات والنشاطات الاسماعيلية المتطرفة في بلاد فارس. وقد كان له مااراد حيث انشقت الفرقة الاسماعيلية الشرقية في بلاد فارس بقيادة الحسن بن الصباح عن الخلافة الفاطمية ولم تعد تعترف بأمامة المستعلي او بمذهبه الاسماعيلي بل دانت بالولاء الى نزار وابنائه من بعده .وفي رواية تاريخية(٤) ان المهتدي وهو احد ابناء نزار نقل الى بلاد فارس ونشأ هناك تحت رعاية الحسن بن الصباح. وبهذا بدأ التاريخ الحقيقي للحشيشية .«الدعوة الجديدة» في بلاد فارس:

قطعت الحركة الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) كل علاقاتها بالدولة الفاطمية بمصر بل عدتها — مثل الخلافة العباسية — خلافة غير مشروعة ومعادية من الواجب اسقاطها. وقد مرت الحشيشية تحت زعامة الداعية الحسن بن الصباح في بلاد فارس بمدة نشاط على الصعيدين الفكري والسياسي.

اما زعيم «الدعوة الجديدة» في بلاد فارس الحسن بن الصباح، فتشير رواياتنا التاريخية(٥) الى أنه كان فارسي الاصل من مواليد قم او الري ،درس في نيسابور حيث تلقى علوم الفقه والشريعة مع صديقه عمر الخيام وربما كذلك نظام الملك!!.

ولكن الحسن بن الصباح لم يبق على مذهبه طويلا بل اعتنق الاسماعيلية في وقت مبكر من حياته ويحدثنا هو عن نفسه فيقول:

«... وتعرفت الى ابي نجم السراج ،رغبت اليه في ان يزيد في حديثه عن مذهبه واخذت افكر عميقا في هذا المذهب (الاسماعيلي) ثم قدرّ لي ان أتعرف بالداعي مؤمن وكان موفدا الى مدينة الري من قبل عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة في العراقيين فتوسلت اليه ان يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر فتردد الداعي ثم اجابني الى طلبي وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية ...»(٦)

ويبدو أن الحسن بن الصباح هذا قد تقدم بسرعة في مراتب الدعوة الاسماعيلية وحين زار القاهرة سنة ١٠٧٨م/سنة ٤٧١هـ كان من دعاة الاسماعيلية الكبار في بلاد فارس. وفي القاهرة اتصل بالخليفة المستنصر بالله واستقى منه علوم الدعوة وتعرف عليه، كما علم منه ان ولي عهده سيكون ابنه الاكبر نزار. ولكن اقامة الحسن بن الصباح في مصر لم تدم طويلا حيث ازعجت فعالياته الوزير بدرا الجمالي فعمل على اخراجه من مصر بشتى الوسائل. وقد جاب الحسن بن الصباح العديد من الاقاليم بعد خروجه يدعو للمذهب الاسماعيلي وللخليفة المستنصر، فزار بلاد الشام والعراق والاحواز (خوزستان) ومدن عديدة في بلاد فارس .وحين علم الحسن بن الصباح ماحل بنزار بن المستنصر في مصر هاله ذلك فانشق عن الدعوة وتبرأ من الامام الجديد واتهم الدعاة بالتامر على المذهب الاسماعيلي وبدأ يفكر بضرورة القيام بحركة سريعة لتأسيس دولة اسماعيلية جديدة في بلاد فارس تكون مقرا للنزارية(٧).

لقد كانت سنة ٤٨٣هـ /١٠٩٠م منعطفا مهما في تاريخ الحركة الحشيشية في بلاد فارس حين تمكن الحسن بن الصباح من ان يستولي على قلعة ألموت(٨) (بالعربية عش العقاب) وهي قلعة منيعة جنوبي بحر قزوين شمالي غربي مدينة قزوين. وقد نجح الحسن بن الصباح ان يكسب الكثير من سكان الديلم واذربيجان المجاورتين لمركزه في ألموت(٨) ولم تمض مدة طويلة حتى استطاع الحسن بن الصباح ان يجند اعدادا كبيرة من المغامرين الارهابيين الذين عرفوا بأسم «الفداوية» ،الذين غدوا وسيلة بيد الحسن بن الصباح لتحقيق اهدافه عن طريق العنف والارهاب واغتيال الخصوم وتصفيتهم.

وقد نقل العديد من المؤرخين المحدثين القصة التي ذكرها الرحالة الاوربي ماركو بولو الذي زار حصون الحشيشية في القرن الثالث عشر الميلادي ،وفي القصة تظهر الطريقة التي كان الحسن بن الصباح يدرب فيها اتباعها ومريديه من «الفداوية» تدربيا ذهنيا وجسديا تقول القصة(٩):

ان شيخ الجبل ـ الحسن بن الصباح ـ انشأ في واد يقع بين جبلين حديقة فيحاء فسيحة فيها انواع الفاكهة والزهور وبنى فيها مقصورات ذات نقوش. واجرى في الحديقة انهارا من خمر ومن عسل ومن لبن .واسكن فيها الفتيات الجميلات من حور العين والفتيان من الولدان المخلدين. واشاع فيها جوا مرحا موسيقيا غنائيا راقصا.

وقد دبر ذلك كله لفتنة مريديه من الفداوية الذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين. وكان شيخ الجبل يدخلهم جنته جماعات صغيرة حيث يسقيهم من منقوع الحشيش فينامون ثم ينقلون الى داخل الجنة فاذا ما استيقظوا وجدوا انفسهم بين هذه الملذات وايقنوا بأنها جنة الشيخ. فاذا ما اراد الشيخ اغتيال احد خصومه أمر احد «الفداوية» بذلك واعدا اياه بالجنة التي رآها وعاش فيها ردحا من الوقت.

اضافة الى الطاعة العمياء التي اتصف بها هؤلاء الارهابيين «الفداوية» فقد كانوا مدربين باتقان على حمل السلاح. ومن المهم ان نلاحظ هنا ان السلاح الذي كان يستعمله هؤلاء كان على الدوام الخنجر او السكين الحادة. فهم لم يستعملوا على الاطلاق السم او اي نوع اخر من السلاح .كما ان الاغتيال كان يعد لدى الحشيشية واجبا دينيا ذا صفة مقدسة !!

لقد عاث الحشيشية فسادا وعبثوا بالامن العام واقلقوا الناس وارعبوهم لكثرة ماكانوا ينفذونه او يهددون بتنفيذه من اعمال الاغتيال والارهاب. وينقل المؤرخ العماد الاصفهاني وصفا لحالة المجتمع الاسلامي في القرن الخامس الهجري فيقول:

«فنابت النوائب وظهرت العجائب وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا وكانوا معنا في المكتب وأخذوا حظا وافرا من الفقه والادب.

وكان بينهم رجل من أهل الرأي ساح في العالم وكانت صناعته الكتابة فخفي أمره حتى ظهر وقام. فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع معينة وبدأ في القتل والفتك بأمور شنيعة وخفيت عن الناس احوالهم ... وأخافوا السبل واجالوا على الاكابر الاجال .. ولم يجد احد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة»(١٠)!!

ومنذ البداية حاول الحسن بن الصباح ان يحصن نفسه واتباعه في قلاع متناثرة في اقاليم وعرة مثل قزوين والجبال واذربيجان وبقيت قلعة الموت المركز الرئيسي ومقر الحسن بن الصباح الذي يعد نفسه نائبا عن الامام النزاري. وقد جلب له اسلوبه المعتمد على العنف والاغتيال وبث الرعب بين الناس الكثير من الاتباع خوفا او طمعا، وهكذا كان بامكانه ان يعتمد على «الرتل الخامس» المنتشر في العديد من مدن الخلافة العباسية او الاقاليم التابعة للسلاجقة او للفاطميين(١١).

وكان امام العديد من الامراء خيارين اما التعاون مع الحشيشية او الاغتيال على أيديهم. وفي قائمة ضحاياهم العديد من الخلفاء والوزراء والامراء والسلاطين .لعل من اشهرهم الخليفتين العباسيين المسترشد والراشد والخليفة الفاطمي ألامر والوزير نظام الملك وأمراء مسلمين وصليبيين في بلاد الشام كما حاولوا اغتيال ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي الا انهم فشلوا.

وقد مرت الدعوة الحشيشية الفارسية خلال الحقبة العباسية التي نبحث فيها بدورين رئيسيين

(١) دور الستر الأول من ٤٨٨هـ ــ ٥٥٧هـ كانت الدعوة خلال هذا الدور بيد داعي الدعاة وكبار الدعاة واولهم الحسن بن الصباح الذين ينوبون عن الامام المستور من ابناء نزار .وقد توفي الحسن بن الصباح سنة ٥١٨/١١٢٤م وهو في نحو التسعين ،من عمر قضاه في نشر الدعوة الحشيشية واساليبها الرهيبة وطابعها العنيف الذي عرفت به في التاريخ .وقد اوصى في وصيته الى اثنين احدهما للزعامة الروحية والثاني للزعامة الدنيوية وقيادة «الفداوية».

(٢) دور الظهور الاول ويبدأ باعلان الحسن بن محمد امام الحشيشية الفارسية امامة الظهور وادعائه بانه من نسل نزار سنة ٥٥٧هـ . وينتهي هذا الدور باجتثاث زعيم المغول هولاكو لقلاع الحشيشية في بلاد فارس واستيلائهم على ألموت وقتلهم امام الحشيشية ركن الدين خورمشاه سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٥م (١٢).

الصراع مع السلاجقة في بلاد فارس:

يقول المؤرخ ابن الأثير ان اول قتيل للحشيشية في بلاد فارس كان مؤذنا من ساوة دعاه الحشيشية لكي ينضم الى حلقتهم فرفض فخشوا ان يفشي اسرارهم للسلطة فقتلوه .وفيما بلغت الانباء الوزير نظام الملك امر بقتل رئيس الحلقة طاهر النجار حيث مثل بجسده وجره العامة في السوق وهذا «اول اسماعيلي يقتل» في بلاد فارس كما يقول ابن الأثير ايضا.

الا ان السلطة السلجوقية لم تهمل خطر الحشيشية. فقد ارسل ملكشاه السلجوقي سنة ١٠٩٢م حملتين واحدة ضد قل ألموت والثانية ضد قوهستان. ولكن الحملتين لم تحققا اهدافهما المنشودة. بينما توصل الحشيشية وفي السنة نفسها الى احراز اكبر نصر على الساحة السياسية الا وهو قتل عدوهم اللدود الوزير نظام الملك حيث جاءه احد الفداوية بزي صوفي في منطقة نهاوند وضربه بسكين في رمضان ٤٨٥هـ / تشرين الاول ١٠٩٢م فكان مقتله بداية سلسلة طويلة من اعمال الاغتيال السياسي والارهاب للملوك وامراء وقادة وحكام وفقهاء ووزراء.(انظر عملية الاغتيال على غلاف الكتاب)

لقد كان هؤلاء الفداوية الحشيشية زمرة ارهابية من الواجب قتلهم، وكما قال احد الفقهاء «ان سفك دم باطني اكثر ثوابا من قتل سبعين كافرا روميا» .اما بالنسبة للحشيشية فان الفداوية يمثلون جماعة مخلصة اشد الاخلاص وانهم بتفانيهم في مهاجمة الظالمين من الحكام يقيمون البرهان النهائي لاخلاصهم وينالون شرف «الشهادة» ثم الجنة!!

لقد استمر الحسن بن الصباح في كسب الاتباع وكان منهم حكام لمدن فارسية كما استولى على قلاع جديدة وخاصة ان السلاجقة بعد موت ملكشاه دخلوا في صراع على السلطة بين السلطان الجديد بركياروق واخيه محمد تبر سنة ١٠٩٢م. بل أكثر من ذلك استغل بركياروق سرياً نشاطات الحشيشية ضد اخيه وخاصة حشيشية قوهستان .وتصل سجلات الاغتيالات السياسية في الموت الى حوالي خمسين اغتيالاً وقع في عهد الحسن بن الصباح بدءاً بنظام الملك وان اكثر من نصفها تعود الى هذه المدة من حكم بركياروق.

في سنة ١١٠٠م انتصر بركياروق على اخيه ولما كان الحشيشية قد ساعدوا عن طريق الارهاب السياسي والاغتيالات في تحقيق هذا النصر فقد كان على بركياروق ان يمنحهم بعض الامتيازات او على اقل تقدير ان يتغاضى عن نشاطاتهم. وقد تغلغلوا بالفعل في البلاط السلجوقي والاكثر خطورة في الجيش السلجوقي فكسبوا العديد من الجند والقادة. كما هددوا كل من يعارضهم بالاغتيال. ولهذا كان الامراء يلبسون الدروع والزرديات تحت ثيابهم «واستأذنوا السلطان بركياروق بالدخول عليه بالسلاح وأعلموه بخوفهم من اعدائهم فأذن لهم»!!

لم يستمر تغاضي بركياروق عن تحركات الحشيشية فخطرهم المتزايد وضغط الامراء والاتباع عليه جعله يغير من سياسته تجاه الحشيشية حيث اتفق سنة ١١٠١م مع السلطان سنجر امير خراسان للقيام بعمل مشترك ضدهم في قوهستان وطبس وهدمت العديد من قلاع الحشيشية الذين خضعوا للسلاجقة وتعهدوا بعدم بناء حصون جديدة او شراء سلاح جديد او استمرار الدعوة الى مذهبهم. على ان الرأي العام الاسلامي لم يكن راضيا على سنجر لعقدة اتفاقية مع الحشيشية بل كان الاصوب اجتثاث اصولهم.

اما في اصفهان والعراق فان بركياروق لم ينظم حمله عسكرية جدية ضدهم ولكنه سمح للجماهير في اصفهان بتعقبهم وقتلهم الا ان هذه العملية لم تكن منظمة ودخلت فيها الاضغان والحقد الشخصي ولهذا قتل العديد من الابرياء بتهمة الباطنية !!. كما قتل العديد من الاسماعيلية في بغداد واحرقت الكثير من كتبهم في العراق.

ومع ان الحشيشية قد ضعفت بعض الشئ بعد فقدانها تأييد او تغاضي بركياروق الا ان الاغتيال السياسي لم ينقطع حيث اغتيل مفتي اصفهان في الجامع ومحتسب بيهق وزعيم الحركة الكرامية من مسجد نيسابور بخراسان. وعلى هذا يمكن القول. ان خطر الحشيشية كان قد غدا محدوداً ولكنه لم يجتث من الجذور.

لقد بذل السلطان السلجوقي الجديد محمد تبر بعد توليه الحكم سنة ١١٠٥م/٤٩٩هـ جهداً مضاعفاً ضد الحشيشية «فلم يكن عنده امر اهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم». ففي سنة ١١٠٧م استولى على قلعة اصفهان واسر زعيمها

ابن عطاش فشهر في شوارع اصفهان ثم قتل وارسل رأسه الى بغداد. وبهذه المناسبة اصدرت السلطة السلجوقية منشورا اوضحت فيه انتصارها وقتل الحشيشية في اصفهان ومما جاء فيه:
«... كان حقا علينا ان نجاهد عن حمى الدين ونركب الصعب والذلول في مقارعتهم ولو الى الصين».

وفي العراق تنازل الحشيشية عن تكريت التي ملكوها حوالي اثنتي عشرة سنة . وكذلك هوجمت قلاع الحشيشية في قوهستان وارجان. ورغم ان السلطان السلجوقي ارسل وزيره احمد بن نظام الملك للاستيلاء على قلعة ألموت سنة ١١٠٧م ولكن الحملة لم تحقق غايتها. ولما كان الوزير احمد الذي قتل ابوه واخوه على يد الحشيشية مصمما على معاقبة الحشيشية فقد حث السلطان على بدء حرب الاستنزاف اذ كانت القوة العسكرية غير قادرة على اخضاع ألموت .وقد استمرت الحرب زهاء السنة ١١١٧/ ٥١١هـ ــ ١١١٨/ ٥١٢هـ ولكنها انتهت بموت السلطان محمد في اصفهان.

«فتشتت العساكر وترك الملاحدة احياء بل انهم استولوا على المؤن والسلاح الذي تركته العساكر في مكان الحصار»!!

ويبدو من بعض المصادر التاريخية ان سبب انسحاب الجيش السلجوقي لم يكن بسبب موت السلطان محمد بل بسبب مؤامرة دبرها احد الوزراء السلاجقة ناصر بن علي الدركزيني الذي سمم قلب السلطان الجديد محمود بن محمد ضد قائد الحملة مما ادى الى تشتت الجيش.

وبعد موت السلطان محمد دخل السلاجقة في صراع جديد فيما بينهم حول السلطة وهذا ما جعل الحشيشية تتنفس الصعداء وتتخلص من الضغط المتزايد عليها. على ان الحشيشية قبل هذه المدة وخلالها استمروا في تدبير عمليات الاغتيال والتخطيط للارهاب السياسي فقتلوا عبد الله الخطيب قاضي اصفهان سنة ١١٠٩م كما حاولوا اغتيال الوزير احمد بن نظام الملك لكنهم نجحوا في جرحه فقط. ووقع كذلك العديد من الضحايا من قضاة وفقهاء ومشايخ بخناجر الفداوية الحشيشية.

توفي الحسن بن الصباح سنة ١١٢٤م / ٥١٨هـ ولكن قبل وفاته جرت مفاوضات بين ألموت والقاهرة من أجل رأب الصدع والعودة الى الوفاق الا ان الفاطميين بمصر والحشيشية بفارس تمسكوا بوجهات نظرهم مما ادى الى فشل المفاوضات. وكان الحسن بن الصباح قد اختار قبيل وفاته خليفته وهو بزرك أميد . وقد شجع موت الحسن بن الصباح السلطان السلجوقي سنجر على القيام بعدة حملات ضد الحشيشية سنة ١١٢٦م .وكان وزيره معين الدين الكاشي المدبر لهذه الحملات فقد أمر « بغزو الباطنية وقتلهم أينما كانوا ونهب اموالهم وسبي حريمهم ... وسير الى كل طرف من اعمالهم جمعا من الجند وأوصاهم ان يقتلوا من لقوه منهم».

كما قاد سنجر بنفسه حملة اخرى ضد ألموت وقتل اكثر من عشرة الاف من الحشيشية ولكن الحشيشية مالبثوا ان انتقموا من الوزير الذي اغتيل سنة ١١٢٧م/ سنة ٥٢١هـ.

على ان استمرار النزاع بين امراء السلاجقة زاد من قوة الحشيشية. فقد اغتالوا المسترشد سنة ١١٣٩م حين وقع اسيرا بيد مسعود السلجوقي. وتتهم بعض الروايات السلطان مسعودا بالتواطؤ مع الحشيشية او بالتغاضي والاهمال المتعمد في حراسة الخليفة من خناجر الحشيشية. وقد تبع ذلك سلسلة من الاغتيالات خلال حكم بزرك أميد زعيم الحشيشية تناولت عددا من الحكام والمفتين والمحتسبين.

واستمرت الاغتيالات خلال حكم محمد بن بزرك أميد الذي جاء للسلطة سنة ١١٣٨م وكان من بين الضحايا الخليفة العباسي الراشد بن المسترشد كذلك!!

على ان الحركة الحشيشية في بلاد فارس لم تبق على حيويتها التي كانت عليها ايام الحسن بن الصباح بل غدت قلاعهم مراكز لاسر حاكمة اقليمية وليست رأس حربة للانقضاض على الخلافة العباسية وتأسيس دولة نزارية كبرى. كما ان الحركة الحشيشية قد دخلت في متاهات عقائدية حين اظهر الحسن الثاني بن محمد (١١٦٢ ـ ١١٦٦م) اراءه الجديدة بطرح الفرائض وعدم اقامة الشعائر وانه خليفة الامام المستور وحجته الحية. وانقسم الحشيشية بين متقبل للتفسير الجديد ورافض له. فأستخدم الحسن الثاني سياسة تعسفية لفرض تعاليمه. ولكن حفيد الحسن الثاني وهو الحسن الثالث بن محمد (١٢١٠ ــ ١٢٢١م) امر باقامة الفرائض الدينية وبناء المساجد وعاد الى الاسلام الصحيح وتحالف مع الخليفة العباسي الناصر الدين الله. وساعد الحسن الثالث الخلافة العباسية في صراعها ضد الخوارزمية .الا ان هذه لم تكن سياسة ثابتة للحشيشية الذين تذبذبوا بين العباسيين والخوارزميين. كما انهم حاولوا ان يتقربوا للمغول حين بدا خطرهم واضحا على المشرق خاصة بعد ان انهارت دولة الخوارزمية. ومهما كان نوع التفاهم بين الحشيشية والمغول فانه لا يمكن ان يستمر طويلا فقد قضى هولاكو على قلاعهم ودمرها تدميرا تاما سنة ١٢٥٦م / سنة ٦٥٤هـ قبل وصوله الى العراق .ولابد ان نشير هنا الى أن الحشيشية نقضوا تعاليم الحسن الثالث بعد ان اغتاله احد الفداوية وعادوا سيرتهم الاولى وعقيدتهم الباطنية القديمة.ولهذا فان هولاكو الوثني كان يطلق عليهم اسم «الملاحدة»!!

«الدعوة الجديدة» في بلاد الشام: إنعكاسات الوضع السياسي في بلاد فارس على الشام.

ان الوضع السياسي المتدهور في بلاد الشام حيث الامارات والاتابكيات السلجوقية المتنازعة بعضها مع بعض وكذلك الاطماع الصليبية الاوربية في بلاد الشام، ان هذا الوضع هو الذي اغرى الحشيشية الفارسية بالتركيز على بلاد الشام باعتبارها تربة خصبة للدعوة الجديدة. خاصة وان بلاد الشام عرفت النشاط الاسماعيلي منذ مدة مبكرة حين كانت سلمية (قرب حمص) مركزا للدعوة السرية. ثم ان اجزاءا كبيرة من بلاد الشام وقعت تحت سيطرة الدولة الفاطمية الاسماعيلية مدة طويلة نسبيا وكذلك تحت سيطرة القرامطة.

كل هذه العوامل جعلت الحسن بن الصباح الفارسي يحاول جر بلاد الشام الى نفوذ الدولة الحشيشية في بلاد فارس. وقد بدأت فعاليات الدعاة الحشيشية في بلاد الشام مع بدايات القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري، ووجدت تجاوبا مقبولا لدى انصار الاسماعيلية هناك الذين وقعوا بين نارين: السلاجقة والصليبيين فكانت الدعوة الحشيشية الفارسية منقذا لهم بل ملجئا للتخلص من الضغط الموجه اليهم من هاتين القوتين الجديدتين في بلاد الشام.

ولابد من الاشارة بدءا الى أن زعماء الحركة الحشيشية في بلاد الشام كانوا جميعا من الدعاة الفرس أرسلهم زعيم الحشيشية الفارسية الحسن بن الصباح من ألموت وزودهم بتعليماته وأوامره. ثم انهم استمروا يتلقون التعليمات والاوامر من بلاد فارس حتى استلم راشد الدين سنان بن سلمان زعامة الحشيشية في بلاد الشام بعد سنة ١١٦٢م /سنة ٥٥٨هـ فأستقل بها عن الحشيشية الفارسية خلال حياته فقط حيث عادت فارتبطت ببلاد فارس مرة اخرى بعد وفاته. وقد بذل زعماء الحشيشية قبل راشد الدين سنان جهدهم لتثبيت مركزهم في بلاد الشام عن طريق الاستيلاء على حصون وقلاع منيعة في ارجاء مختلفة من الاقليم، فكونوا جيوبا منيعة يبثون منها دعوتهم وينشرون مبادئهم ويرسلون أنصارهم لبث الرعب عن طريق الاغتيال(١٣). ولهذا نرى عددا من امراء بلاد الشام من سلاجقة او اتابكة او صليبيين يتعاونون معهم اما خوفا من القتل او طمعا في كسبهم واستخدامهم لقتل خصومهم ومنافسيهم .على ان نشاطات الحشيشية السورية لاتدخل ضمن نطاق منهجنا في هذا الكتاب(١٤).

نهاية الحشيشية:

كانت نهاية الحشيشية في بلاد فارس على يد المغول بقيادة هولاكو، وفي بلاد الشام على يد المماليك بقيادة السلطان الظاهر بيبرس. ففي بلاد فارس نجح هولاكو حيث فشل جميع امراء المسلمين في القضاء على كل قلاع الاسماعيلية وجيوبها بدون كبير عناء. بل ان قلعة ألموت الحصينة نفسها سقطت سنة ١٢٥٦م/٦٥٤هـ واستسلم الداعية الفارسي ركن الدين خورشاه ثم اعدم بعد ذلك بقليل.

وكان هولاكو المغولي رغم وثنيته قد ارسل خطابا الى ملوك المسلمين وعلى رأسهم الخليفة العباسي في بغداد يحثهم على مساندته في حرب الحشيشية فيقول:

« نحن انما حضرنا بأمر الخان لندك حصون الملاحدة (اي الحشيشية). فاذا رأيتم ان تحضروا بأنفسكم الينا وتلحقوا عساكركم بعساكرنا فانا سنحفظ عليكم بلادكم وسنعوض عليهم معاونتكم هذه بالانعامات الملكية. اما اذا ترددتم وتمنعتم فاني سأنقض عليكم فور انتهائي من امر هذه الطائفة الضالة الاسماعيلية»(١٥).

ومما لاشك فيه فان خطر الحشيشية بالنسبة لهولاكو الوثني كان خطرا سياسيا وعسكريا بالدرجة الأولى الا انه رفع شعارات دينية ووصف الحشيشية «بالملاحدة» و«الطائفة الضالة» لكي يكسب الى جانبه امراء المسلمين. كما إن استعمال هذه النعوت يدل على الاثر السئ والسمعة الرديئة التي تركتها هذه الحركة في نفوس جماهير الناس في تلك الحقبة وقد استجاب العديد من امراء المسلمين للنداء اما خوفا من خطر المغول او رغبة من التخلص من الحشيشية. وقد دك هولاكو بالفعل قلاع الحشيشية في بلاد فارس التي بلغت زهاء الاربعين قلعة وباتت كنوزها نهبا لجنده.

اما في بلاد الشام فقد شارك الحشيشية جماعة المسلمين في صد الهجوم المغولي رغم ان ركن الدين خورشاه كان قد أمر داعيته بالشام بتسليم قلاع الحشيشية الى المغول حين قدومهم الى الشام ولكن داعية الشام رفض ذلك وانضم الى جيوش بيبرس التي الحقت بالمغول الهزيمة المعروفة في عين جالوت سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. ولكن بيبرس الذي كرس حياته للجهاد ضد الخطرين المغولي والصليبي لا يتوقع منه ان يحتمل طويلا وجود قلاع الحشيشية الباطنية في بلاد الشام. ولذلك فقد اتخذ بيبرس عددا من الاجراءات لاضعافهم حيث وزع بعض اراضيهم على قادته، كما قبل منهم ضريبة سنوية يدفعونها لمصر واصبح كذلك له الحق في ان يعين او يعزل من يشاء من الدعاة الحشيشية. وقد عزل فعلا الداعية نجم الدين سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وولى بدله داعية جديدا على ان يكون مركزه في قلعة القدموس. اما قلعة مصياف وهي قلعة الحشيشية الرئيسية فقد احتفظ بها بيبرس لنفسه(١٦). ورغم محاولات متعددة قام بها الحشيشية للتخلص من سيطرة بيبرس عليهم لم يكتب لها النجاح فان بيبرس لم يجتث شملهم في سورية، وربما ابقاهم ليهدد بخناجرهم اعداءه من امراء الفرنك الصليبيين والى هذا يشير ابن بطوطة حين يصفهم:

« وهم (الحشيشية) سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من اعدائه، ولهم المرتبات واذا اراد السلطان ان يبعث احدهم الى اغتيال عدو له اعطاه ديته. فان سلم بعد تأدية ما يراد منه فهي له وان اصيب فهي لولده»(١٧).

ولكن هؤلاء الفداوية الحشيشية سيف ذو حدين وكان بامكان اعداء بيبرس ان يستأجروهم، لاغتياله. وهذا ماوقع فعلا سنة ١٢٧١م سنة ٦٧٠هـ على ان بيبرس تنبه له قبل وقوعه. وبحلول سنة ١٢٧٣م سنة ٦٧٢هـ كان اخر قلاع الحشيشية قد استسلم لبيبرس حيث لم يعد لهم وجود مستقل في بلاد الشام. وبهذا لم تعد الحركة الحشيشية سوى فرقة صغيرة لا اهمية سياسية لها سواء في بلاد فارس او بلاد الشام. وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حدث انشقاق جديد في الامامة النزارية واتبع الحشيشية الفارسية اماما جديدا يختلف عن أمام الحشيشية السورية. ومنذ ذلك التاريخ لم يبق بينهما اي ارتباط سياسي أو عقيدي(١٨).

عقيدة الحشيشية:

يركز بحثنا على التاريخ السياسي للحركة الحشيشية ولذلك فلا مجال لعرض تفصيلي لتعاليم الحشيشية وارائها الدينية واختلاف الكتاب الاوائل والمحدثين حولها .ولنا أن نقرر بدءا أن هذه التعاليم اختلفت من اقليم الى اخر ومن وقت الى اخر ومن داعية الى اخر اذ ان هؤلاء الدعاة «كانوا يكلمون الناس على قدر عقولهم .. وكانوا يدخلون مع كل فرقة من جهتهم»(١٩). وعلى العموم يمكننا القول إن هذه العقيدة انحرفت عن الاسلام الصحيح ومارت في الالوهية وادعت ان النبوة لم تنته بمحمد صلى الله عليه وسلم ودانت بالباطن والظاهر «لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل». وان لكل الفرائض الدينية والاحكام الشرعية ظاهر وباطن والمهم هو الباطن لانه اللب. وكانت تأويلاتهم وتفسيراتهم تتفق مع نزعاتهم السياسية واهدافهم وكانت الدعوة تعتمد السرية والكتمان حين تلقن التعاليم بصورة تدريجية وعلى مراتب متتابعة تنتهي بالفرد الى التحلل الكامل من الفرائض والحرمات الدينية. ويرى العديد من الباحثين المحدثين(٢٠) أن هذه العقيدة خليط من مذاهب دينية واراء سياسية وفلسفية واجتماعية. وتبرز فيها عقائد الفرس المجوس ومنها المانوية. ولذلك يصفهم البغدادي بكونهم دهرية زنادقة حيث يقول:

«والذي صح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع»(٢١).

ولم يكن عداؤهم للعروبة باقل من عدائهم للاسلام ولهذا فهم يسمون العرب في احدى رسائلهم «الامة المنكوسة»(٢٢).

على ان اراءهم لم تنطل على غالبية الناس فلم يتبعهم، على حد قول الغزالي(٢٣)، غير السذج من الناس الذين قلت بصائرهم في امور الدين والوصوليين الراغبين في تقلد مناصب رفيعة بطرق غير مشروعة والمجوس الذين انقطعت دولتهم بظهور دولة الاسلام والملاحدة واصحاب الفسوق. ان غايتهم النهائية هي اسقاط الخلافة العربية الاسلامية سياسيا ،وابدالها بدولة حشيشية تعم العالم الاسلامي ،وانحلال العقيدة الاسلامية والقضاء عليها.

الحشيشية وتفاسير القرن العشرين:

يحاول المؤرخون(٢٤) ان يجدوا تفاسير جديدة للدعوة (الحشيشية) تناسب فكر القرن العشرين ومزاج المثقفين المعاصرين!!.فالحركة الحشيشية عند البعض حركة فارسية .«لمقاومة التسلط العربي والتعسف الاسلامي في بلاد فارس». بل ان الخيال الخصب يذهب ببعض المستشرقين ليقارن الحركة الحشيشية بالجمعيات السرية الثورية في ايطاليا في القرن التاسع عشر!! اما بالنسبة لفئة اخرى من المستشرقين فهي محاولة مسلحة قامت بها الارستقراطية الاقطاعية الايرانية التي تسكن الريف ضد النظام الاجتماعي الحضري الذي جاء به الاسلام الى بلاد فارس !!

فلقد كان المجتمع الفارسي قبل الاسلام مجتمع نبلاء اقطاعيين يرتكز على الريف. وجاء نظام المدينة باعتباره بدعة اسلامية جديدة. ولهذا شن الاقطاعيون الفرس يساعدهم مجتمع الريف حربا شعواء من قلاعهم ضد النظام الاسلامي الجديد. وقد كانت الحشيشية سلاحا بيد النبلاء الفرس في هذه الحرب. بينما عدتها جماعة اخرى من الباحثين «حركة شعبية جماهيرية تستند على الحرفيين والفقراء في المدينة وضمت اليها فلاحي الجبال»!!

وواضح ان هذه الفرضيات الاستشراقية في غالبيتها ركزت على واجهة واحدة في الحركة الحشيشية واهملت الواجهات الاخرى منها .ولعل التفسير الشمولي للحركة يعتني بكل العوامل المحركة لها من عرقية عنصرية او سياسية او اجتماعية واقتصادية، حتى دينية ونفسية. ومن وجهة النظر الموضوعية للحركة الحشيشية فانه ليس هناك تفسير واحد بسيط يكفي لتوضيح هذه الحركة المعقدة التي ظهرت في مجتمع متطور كثير التعقيد. لقد ظهرت الحشيشية والدعوات التي افرزتها وتطورت عبر مدة تاريخية ليست بالقصيرة وعبر منطقة واسعة من العالم العربي — الاسلامي وكانت تعني مفاهيم مختلفة في اماكن مختلفة. ففي كل اقليم رفعت شعارات ونادت بمبادئ اختلفت عن الاقليم الاخر .او انها عدلت من مبادئها لكي تناسب مجتمع ذلك الاقليم وحاجاته وتطلعاته. ولعل من مظاهرها البارزة على سبيل المثال انها عبرت عند فئة معينة في مجتمع بلاد فارس[*] عن الحقد الدفين للحكم العربي الاسلامي الذي كان ولايزال مستمرا منذ عدة قرون فكانت بهذا وسيلة للتخلص من «التسلط» العربي «والهيمنة» الاسلامية، ولتحقيق مطامح عريضة واحلاما قرمزية بالرجوع الى امجاد فارس القديمة وتحقيق الامبراطورية العالمية!!

ولم تكن الحركة الحشيشية ظاهرة معزولة وانما كانت جزء من حركات الباطنية والخرمية والشعوبية التي كانت تنفجر في المجتمع الاسلامي من حين لاخر. ولقد استطاع الحسن بن الصباح زعيم الحشيشية كغيره من زعماء الحركات الاخرى المذكورة انفا تنظيم الحركة عقائديا وسياسيا ولكنه اختلف عن سابقيه باعتماده على العنف والارهاب والاغتيال السياسي لخدمة اهداف حركته بصورة لم يسبق لها مثيل.

لقد كانت الحركة الحشيشية تمثل تهديدا للنظام القائم المتمثل بالخلافة العباسية بكل مؤسساتها الدينية والسياسية والاجتماعية ولذلك عملت هذه الخلافة على حث العلماء والفقهاء للرد على مزاعم الحشيشية فألف الغزالي كتابه «فضائح الباطنية» داحضا ادعاءاتهم. كما انشئت المدارس (الجامعات) ودور الثقافة لنشر الوعي الاسلامي الصحيح في العديد من المدن المهمة ومنها المدارس المعروفة باسم (النظاميات). واذا كانت الخلافة العباسية لا تمتلك القدرة العسكرية التي تواجه بها الحشيشية في تلك الحقبة فقد انبرى امراء مسلمون عديدون للقيام بهذه المهمة كما اشرنا الى ذلك سابقا. فكانت المحصلة النهائية أن فشلت الحركة الحشيشية فشلا كاملا فلم تتمكن من زعزعة النظام القائم سياسيا او عقائديا .ورغم عملياتها الارهابية لم تتمكن من السيطرة

بصورة دائمية على مدت صغيرة أو كبيرة ،واختارت قلاعها في مناطق جبلية صعبة المســالك ... ولم يبق منها في نهاية المطاف سوى طائفة دينية صغيرة.

الهوامش والتعليقات:

(١) الحشيشية بسبب ماشيع عن تعاطيهم منقوع الحشيش المخدر بأمر زعيمهم شيخ الجبل ـ اما النزارية فنسبة الى نزار بن الخليفة المستنصر ـ اما السبعية فنسبة الى اسماعيل الذي بعد الامام السابع عندهم او نسبة الى العدد سبعة الذي له صفة مقدسة لديهم فالنظام الكوني والحوادث مرتبة على هذا العدد ـ اما الباطنية فلقولهم لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل.

(٢) راجع طه شرف ،دولة النزارية القاهرة ١٩٥٠، ص٢١٢ ـ سرور ،الدولة الفاطمية، ١٩٩٦، ١١٧.

(٣) ابن ميسر، تاريخ مصر ،ص٣٧.

(٤) هودسون، نظام الحشيشية، هولندا، ١٩٥٥، ص٤٨ فما بعد (بالانكليزية).

(٥) راجع المصدر السابق ص٤٣ فما بعد.

(٦) الجويني، جهان كشاي ،تحقيق محمد بن عبد الوهاب قزويني ليدن ١٩١١، ص٣٤ فما بعد.

(٧) راجع لويس، الحشيشية (بالانكليزية) ١٩٦٧ ص٤٠ ـ ٤١ نفس المؤلف ،مقالة الاسماعيلية والحشيشية (ضمن كتاب تاريخ الصليبين) بالانكليزية، ١٩٥٨، ص١٠٦.

(٨) هودسون، المصدر السابق، ص٤٨؛ فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، الشارقة ١٩٨٣، ص٩٦.

(٩) راجع مثلا حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام ،. ج٤ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ محمد كامل حسين ،طائفة الاسماعيلية، القاهرة ١٩٥٩، ص٧٢.

(١٠) راجع البنداري، مختصر دولة ال سلجوق للعماد الصبهاني القاهرة ١٣١٨هـ ،ص٢٣١ فما بعد.

(١١) لويس، المقالة ،ص١٠٩.

(١٢) فاروق عمر، المصدر السابق ،ص٩٧ ـ ٩٨.

(١٣) لويس، الحشيشية ،٤٦ ـ ٦٣، ٦٤ ـ ٩٦، مصطفى غالب، الثائر الحميري، ١٢٠ فما بعد ـ عصام الدين عبد الرؤوف الدول الاسلامية المستقلة ٢٢٥ ـ ٢٣٧.

اعتمدنا في تلخيص هذا الباب على كتاب برنارد لويس الحشيشية الترجمة العربية ٥٠ فما بعد.

محمد كامل حسين ،المصدر السابق ،ص٩٨.

(١٤) راجع فاروق عمر ،الشعوبية، ص١٣٥ فما بعد.

(١٥) كذلك عصام الدين عبد الرؤوف، الدول الاسلامية في المشرق ص٢٣٨.

(١٦) لويس ،المقالة ،ص١٣٠ ـ ١٣١.

(١٧) ابن بطوطة، تحفة النظار ،القاهرة ١٩٢٨، ص١٤٢.

(١٨) راجع ايفانوف «فرع سني من الاسماعيلية، بالانكليزية ١٩٣٨.

(١٩) الديلمي، بيان مذاهب الباطنية وبطلانه، استانبول ١٩٣٨ ص١٥ كذلك العلوي الاقحام ص١٧.

(٢٠) راجع مثلاً: عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد ١٩٧٦ ص٤٤ ــ ٤٨، بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص٧٢ ــ جوزي، تاريخ الحركات الفكرية في الاسلامية ص١٢١ ــ النشار ،نشأة الفكر الفلسفي ١٨٣ ــ كولدزيهر، العقيدة والشريعة، ص٢٣٩.

(٢١) الفرق بين الفرق، ص١٧٧.

(٢٢) المصدر السابق ص٢٨٣.

(٢٣) فضائح الباطنية ص٣٣ ــ ٣٦.

(٢٤) حول هذه التقاسيم راجع: لويس ،الحشيشية (بالانكليزية) الفصل الاخير ــ نقل هذا الكتاب الى العربية سهيل زكار تحت اسم (الدعوة الاسماعيلية الجديدة) بيروت ١٩٧١.

الفصل السادس
بلاد فارس في العصر المغولي

المبحث الأول:

المغول .. الايلخانيون في بلاد فارس

يمثل الغزو المغولي لبلاد فارس بداية لعهد جديد في تاريخ المنطقة اذ ادى الى قيام الدولة الايلخانية(١) التي كان لها أثر كبير في تاريخ ايران السياسي وحضارتها اعتبارا من ٦١٨هـ .ولم يكن المغول هو العنصر الأسيوي الوحيد الذي نجح في الاندفاع من شرق اسيا نحو اسيا الوسطى وماوراءها الى ايران ومناطق الخلافة. فالسلاجقة كانوا قد نجحوا قبل المغول بقرنين من الزمن في تكوين دولة كبرى في ايران والعراق بعد تخلص سلاطينهم العظام من حكم كل من الامارة البويهية والغزنوية واخلصوا للاسلام منذ وقت إندفاعهم نحو ايران ؛ وبعد قيام دولتهم وجدوا من لدن الطبقة الادارية في ايران تعاونا كبيرا في جوانب الأدارة والحكم. اما المغول فقد كانت بعض تجمعاتهم القبلية تدين بالمسيحية على مذهب النساطره وبعضها يرى الوثنيه والشامانيه، فكان وضع القبائل المغولية يختلف تماما عن وضع السلاجقة لان تلك القبائل كانت عنصرا مقطوعا من الحضارة الصينيه والبوذية القديمة(٢).

وكان تيموجين (الحداد)، احد رؤساء هذه القبائل قد تمكن من فرض زعامته على مجاميع القبائل المغولية ،ومن ثم الحصول، في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، على اعتراف رؤساء المغول بزعامته تحت لقب جنكيزخان (عظيم الحكام) وقد اجتاحت الجيوش المغوليه تحت زعامته وقياده هولاكو ايران والعراق في دفعتين الاولى في ٦١٨هـ استهدفت دولة خوارزم والاخرى في ٦٥٤ هـ استهدفت قلاع الاسماعيلية ودولة الخلافة.

خصائص الوضع السياسي في ايران: كانت القوى التي تتحكم في ايران قبيل اجتياح هولاكو لها مكونه من دولة خوارزمشاه، وريثه الحكم السلجوقي في ايران وماوراء النهر، واكثر الدول القائمة اهمية ومكانه، والدولة الغورية في مناطق الغور، وشرق ايران ،التي كانت قد توسعت على حساب بقايا الدولة الغزنوية. ثم دولة الاسماعيلية او الباطنية، النزاريين في مناطق قزوين والجبال، وعدد منتشر من الاتابكيات في اذربيجان وفارس وجنوب ايران.

كانت دولة خوارزمشاه تتبع سياسة التوسع في وسط وغرب ايران للتحرش بالخلافة العباسية وكذلك ربط مناطق ايران الشرقية من خراسان بأقليم ماوراء النهر. ولكن هذه الدولة مرت في اعقاب وفاه أرسلان شاه (ت ١١٧٣/٥٦٨) بمدة من الفوضى وعدم الاستقرار امتدت تسع عشرة سنة، ضيع خلالها ولداه كل ماعندهما من طاقات في سبيل تحقيق سياده احدهما على الأخر

من اجل الانفراد بحكم ايران ،ولكن هذه العوامل لم تكن مهمة بالمقارنة مع تقدم الغوريين نحو غزنه بشخص علاء الدين حسين الغوري، الذي يعد واحدا من حكام العالم الاسلامي، قساوة ووحشية، وقد استحق نتيجة لهذه الصفات لقب جهان سوز(٤) ،وبالرغم من ان سنجر السلجوقي كان قد تصدى لتوسعات الغوريين في خراسان ،وفي تكرار هذه المقاومة على يد زعماء خراسان الجدد، الغز ــ التركمان، فأن حاكمين من خلفاء علاء الدين كان قد تمكنا من قهر بقايا الغزنويين واجبارهم على نقل عاصمتهم من غزنة الى البنجاب (١١٨٧/٥٨٣) .اما بالنسبة لخط الحكام الغوريين مع خوارزمشاه فقد كان متعثرا ،وكان انتصار الخوارزميين عليهم في ١٢٠٤/٦٠١ قد جاء على يد خوارزمشاه محمد الثاني، الذي انهى خطر هذه القوة بالنسبة لايران .. وقد بقي الاسماعيلية (٥) في قلاعهم الحصينة في الجبال كقلعة ألموت ولنبسر وكرد ــ كوه وغيرها من القلاع التي كانت تربو على اكثر من اربعين قلعة، ولم يحدث لهم اي توسع يذكر في المناطق الواقعة وراء قلاعهم ومعاقلهم ،وتحول اهتمامهم تدريجيا نحو الداخل حيث كانت المناوشات الكلامية التي تحدث بين مفكري الاسماعيلية هي شغل الحكام الشاغل.

ولذلك لم يكن امام خوارزمشاه بعد ٦٠١هـ /١٢٠٤ اية معارضة تذكر في ايران ،وهذه الإمارة هي التي تحملت مسؤولية محاربة المغول عند اندفاعهم نحو ممتلكات الدولة الخوارزمية في التركستان وايران في ١٢١٩/٦١٧، والتي لم تتمكن من مقاومته، فتمت تصفية ممتلكاتها خلال اربع سنوات من حملات جنكيزخان.

ألقضاء على إمارة خوارزمشاه: اننا نعرف أن المغول كانوا قد قرروا إرسال وفد من التجار الى خوارزمشاه لغرض جمع المعلومات عن حاله البلاد، ولطبيعة هذه المهمة ،فقد تكون الوفد من التجار المسلمين الذين يتحدثون الفارسية. الا ان خوارزمشاه محمد الثاني كان قد شك في مهمة هؤلاء التجار واصدر قرارا باعدامهم وبتنفيذ ذلك فيهم جميعا(٦). وطبق خوارزمشاه محمد الحكم نفسه بحق وفد مغولي اخر من التجار جاء للمهمة نفسها . وقد اتخذ المغول من هذا التصرف ذريعة لمهاجمة خوارزمشاه ،فأجبروا خواروشاه على التخلص بسرعة عن ماوراء النهر بعد ان اوقعوا الدمار بسكانها من اهالي سمرقند وبخارى وخوارزم ،الى حد يفوق الوصف ومايتردد ابن الاثير في ذكر ماعمله المغول في خوارزمشاه وسكانها الا دليل واضح على هول الفاجعة التي ألمت بالعالم الاسلامي من جراء الغزو المغول له(٧).

وهكذا أنهيت امارة خوارزمشاه التي شبه سقوطها وتهاوى مدنها ،احد الباحثين «ببيت من ورق»(٨). وقضي على الاسره الخوارزمية الحاكمة، مع ان احد الخوارزميين ،جلال الدين منكبرتي كان قد تمكن من الهروب من وجه جنكيزخان الى الهند ،بعبور نهر الاندوس سباحة، ثم العودة

فيما بعد الى اقاليم الدولة الخوارزمية حيث استعاد نشاطه موقتا حتى مقتله في ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ،وبذلك اختفت دولة خوارزمشاه كلية.

هولاكو والمرحلة الثانية من فتح بلاد فارس: توقف الاندفاع المغولي نحو ايران موقتا بسبب انشغال المغول في خلافاتهم حول الحكم وبسبب انشغالهم في اخضاع اقاليم جديدة في الصين والاناضول. وكان جنكيزخان قد توفي في ١٢٢٧/٦٢٤ وتأخرت بوفاته خطه فتح ايران حتى مجئ منغوخان الى الحكم في ١٢٥١/٦٤٩ حيث جددت خطه اجتياح الجيوش المغولية لايران وماوراءها (دولة الخلافة) .ولتحقيق هذا الغرض اختير أخو الامبراطور الأصغر، هولاكو ،لانجاز هذه المهمة التي بدأها في ١٢٥٦/٦٥٣، بعد ان حشد جيش كبير جمع من مختلف اقاليم الامبراطورية يقدر بـ ١٢٩٫٠٠٠ ألف محارب مغولي.

وقد تمكن هولاكو من احتلال مناطق ايران الشمالية بدون مقاومة تذكر. ألا ان طائفة الاسماعيليه،او الملاحده، قدمت بعض المقاومة لجيوشه (مثلا قلعة لنبسر تقدم نحوها هولاكو نفسه تركها لاحد قواده بعد ان امتنعت عليه ،وبقيت على هذا الحال سنة، وكذلك مقاومة قلعة كرد ــ كوه)، ألا ان هذه المقاومة لم تصمد كثيرا .ففي الحملة الاولى سقطت بيد المغول لدفعة واحدة اكثر من اربعين حصنا وقلعة اسماعيليه تم تدميرها وابادة سكانها. ثم سقطت في ١٢٥٦/٦٥٤ قلعة ألموت، مركز الاسماعيله الحصين، ثم تبعتها تصفية قلاع الاسماعيلة المتبقية. ولكن هذا العمل بتدمير قلاع الاسماعيلة لم يكن من انجاز جيش هولاكو وحده. اذ حصل على المساعدة من حكام المناطق الايرانية بعد ان وجه لهم هولاكو طلبا باسداء المساعدة له في عملية الغزو(٩). وعلى اثر ذلك ،اخذ العديد من الامراء والاتابكة في فارس والجبال وكرمان بالتسليم لهولاكو طواعية. وكان توجه هولاكو من قزوين الى همدان وهو يأخذ بالاستعداد لتوجيه ضربته الكبرى الثانية، والتي كانت تستهدف مركز العالم العربي الاسلامي نفسه، الدولة العباسية بعاصمتها بغداد .وقد عمل هولاكو في ايران ماقام به جنكيزخان في ماوراء النهر، وكانت الاوامر قد صدرت من الخان الاعظم (الامبراطور) بقتل زعيم الاسماعيلة الكبير ركن الدين ، بعد معامله طيبة في البداية استهدفت استغلاله لانجاز مهمة تسليم قلاع وحصون الاسماعيلية المستعصية. فقتل جميع افراد هذا البيت ولم ينج منهم احد، حتى الطفل الرضيع، تبعها مذبحة شاملة لاتباعه.

هولاكو والايلخانيون: توفي هولاكو في ١٢٦٥/٦٦٣ بعد ان ترك دولة مترامية الأطراف تشمل ممتلكاتها اقاليم ايران والدولة العباسية سابقا والانضول. وقد عرف اولاد هولاكو واحفاده بالايلخانيين، اي نائب الملك (الخان الاكبر) او تابعه.

ابقا (٦٦٣ ــ ١٢٦٥/٦٨٠ ــ ١٢٨٢)

يحتل ابقا منزله الابن الاكبر لهولاكو ،ومرشحه المفضل للعرش الايلخاني. الذي تم اختياره لذلك باجماع مجلس امراء الايلخان .وبسبب اخلاص ابقا لسياسة والده، فقد ابقى هذا الايلخان على معظم رجال الأدارة السابقة، فاحتفظ بشمس الدين الجويني في ديوان الممالك، وبعلاء الدين الجويني على ولاية العراق. ولكنه اختار تبريز محل مراغه، عاصمة لحكمة .

كان محور سياسه ابقا ــ وسياسه خلفائه ايضا؛هو منع اي تغلغل عسكري الى ايران من الجانب الشرقي لاسيا او من مناطق القفقاس . لذلك فقد شهد عهد ابقا منذ اعتلائه العرش مدة من الصراع مع مملكة القفجاق الاسلامية انتهت بانتصاره .وكما اكمل ابقا تصفية القلاع الاسماعيلة الممتنعة عمنهم حتى هذا الوقت من حكم الايلخانين كقلعة كرد ــ كوه، التي امتنعت على جيوشهم لمدة ثمانية عشر عاما. هذا اضافة الى عدد من الحملات التأديبية على معارضي الحكم الايلخاني من حكام المدن المناطق المجاورة مثلا حملته التأديبه على سمرقند في ١٢٧٢/٦٧٠ حيث قام بأباحه المدينة واحراقها، وفي حملته المماثلة على انيلووار في سيستان في ١٢٧٨/٦٧٦ بقيادة ارغون. وقد اعترضت هذه الحملات جهوده الرامية الى اخضاع دولة المماليك في سوريا ومصر بالتعاون مع العالم المسيحي الغربي ــ وقد تمكن المماليك من ايقاع الهزيمة الشنيعة بالقوة التي قادها الامير تكور تيمور.(١٠)

أن حكم كل من ابقا ومن قبل والده هولاكو ،على ما يذكر هاورث **Howorth**(١١). المعنى بشؤون هذه الدولة ،تمثل حقبتين مهمتين في التاريخ الاسيوى للأنجازات العسكرية والسياسية التي تحققت ، والتي كانت تكون مع ماقدمه جدهم جنكيزخان ،دولة الايلخانين في ايران والاقاليم التابعة لها. ولكن لم يكن خلفاء هذا الجيل الحاكم حتى مجئ غازان في ١٢٩٥/٦٩٤ بالشخصيات التي تتمكن من الحفاظ على هذا الانجاز لانها كانت ،كما سنرى شخصيات ضعيفة سياسيا وتفتقر الى قابليات القيادة التي كانت في هذا الجيل.وقد بدأت عوامل الضعف او الانهيار بالظهور فعلا واخذ نفوذ الايلخانين السياسي والأداري بالانحسار تدريجيا نتيجة لتحدي اقاليم ايران لنفوذ الايلخان.

تكودار احمد (٦٨٠ ــ ١٢٨٢/٦٨٢ ــ ١٢٨٤):

توفي ابقا في ١٢٨٢/٦٨٠ بعد افراطه في شرب الكحول وانتخب مجلس الايلخان محله سابع اولاد هولاكو تكودار الذي كان ينافسه اكبر اولاد أبقا ــ المدعو ارغون بدون طائل . وبعد تتويجه في ١٢٨٢/٦٨٠ ترك تكودار لاسباب غامضة ديانه اباثه الايلخانين ودخل في الاسلام، متخذا اسما جديدا له، هو السلطان احمد(١٢) .

ألا ان هذا التحول لم يكن بأول اجراء يخرج فيه تكودار عن تقاليد الايلخانين وانما تبع ذلك تغير في سياسة الايلخانين العدائية تجاه المماليك البحرية المسؤولين عن ايقاف الزحف المغولي على بلاد الشام في عين جالوت. وبهذا الاجراء فقد خالف تكودار سياسة أبقا وهولاكو التي كانت تستهدف الانتقام من هزيمتهم من تلك المعركة . ولكن تكودار كان قدر صرف معظم مدة حكمة البالغة سنتين في نزاع مع ارغون ،الذي تهيأ اتباعه من العسكريين والاداريين لاخذ الحكم منه بالقوة بعد ان اودعه السجن ،مثلا المحاولة الفاشلة التي قام بها الامير قنقور — تاي ،تاسع اولاد هولاكو. ولكن المؤامرة التي دبرها عدد من رجال ادارة تكو دار نفسه تكللت بالنجاح ،وهكذا اصبح للايلخانين سلطان جديد بعد ان أعدم تكودار في همدان (٦٨٣/١٢٨٤) وانتقاما لقتل قنقور تاي عم تكودار. ويرى حوادث هوارث ان اعدام تكو — دار كان بسبب سياسته الدينية المتعصبة للأسلام والتي آثارت حفيظة زعماء المغول وامرائهم سياسيا ودينيا. ولكن عباس العزاوي ،يتبعه بويل، لايريان وجود علاقة مباشرة بين هذا التصرف والمصير الذي آل اليه تكو — دار وينسب سقوطه الى النزاع المحتدم بين الأمراء والايلخانيين حول السلطنه، والى ضعفه كحاكم(١٣).

ارغون (٦٨٣ — ٦٨٩/١٢٨٤ — ١٢٩١)

كان ارغون(١٤) حاكما شابا وقت ارتقائه السلطنه (الايلخانية)، التي كان قد سلبها من عمه بحد السيف عن طريق مساعدة عدد من اتباع — السلطان السابق خاصة بوقا، المسؤول عن الانقلاب والذي تم بتعينه في الوزارة خلفا لشمس الدين الجويني، مكافأة له على دوره اما الوزير السابق ،الجويني ، فقد سلم نفسه لارغون بعد محاولة هرب فاشلة. ويمثل هذه النهاية بنتهي دور احد ركائز الحكم المغولي الذي يقارن عمله بأنجازات نظام الملك وزير السلاجقة المشهور . ثم خلف بوقا في الغزوات بحبك المؤامرة التي اشترك فيها ،طبيب يهودي متنفذ جدا بأسم سعد الدولة، الذي وضع سياسه مالية جديدة للدولة .وكانت الادارة الايلخانية زمن ارغون تشجع استخدام اليهود والمسيحين في اعمالها الادارية وفي بعثاتها الدبلوماسية . ألا ان هذا الوزير بعد مدة من السيطرة «السعدية» لاقى نفس المصير الذي واجهة من قبل وزراء الايلخانين، الجوني وبوقا وغيرهم.

اما بالنسبة للانجازات السياسية والعسكرية التي تحققت خلال عهد ارغون، فقد تمكن هذا الايلخان من انجاز الاعمال الاتية: ١) درء خطر هجمات مملكة القفجاق على حدود الايلخانين في خراسان ومدنها وذلك بأيقاف تهديدهم لخراسان في دفعتين الاولى في ٦٨٦هـ والثانية في ٦٨٨هـ . ٢) قمع تمرد القائد نيروز — ولو موقتا — الذي استمر تمرده خمس سنوات اخرى من حكم الايلخانين بعد ارغون .وكان نيروز هذا هو الشخصية الثانية بعد غازان في ولاية خراسان ،

٣) متابعة الحرب مع المماليك بعد التوقف الذي حصل زمن تكو ــ دار، وذلك بعقد تحالف عسكري ــ سياسي مع الغرب المسيحي ضد المماليك. ولتحقيق هذا الغرض، ارسل ارغون سفارة دبلوماسية في ٦٨٣هـ/١٢٨٥ و ٦٨٥هـ/١٢٨٧ الى البابا وملوك اوربا. ولكن ارغون بسبب تهديد حكام القفجاق واسباب اخرى غير معروفة ترك فكرة الحملة التي كان يعزم القيام بها ضد المماليك وممتلكاتهم في الشام.

ثم دخل ارغون في اواخر ايلخانيته، وهو لايزال في الثلاثين من عمره ، حاله من العزله والتجربة الروحية التي باشرها مع عدد من رجال الدين المقربين اليه ــ داخل قصره في تبريز خرج على اثرها مريضا، ثم توفي في باغ ــ جه ،احد المنتجعات الأيلخانية في ايران. وفي هذا الوقت بالذات ،تمكن عدد من الأمراء المعارضين لسياسه الوزير سعد الدولة من القيام بانقلاب ناجح على اداره ارغون ورجالها انتهت بتصفيتهم جميعا، وعلى راسهم سعد الدولة نفسه.

كي ــ خاتوا وبيدو(١٥): كان كي ــ خاتو ،أخو ارغون ،واحدا من ثلاثة مرشحين لمنصب الايلخان هم كل من غازان ،ابن ارغون الراحل ،وبيدو عمه الحاكم في بغداد ،وكي ــ خاتو نفسه. ولكن الايلخان الجديد خرج منتصرا في هذا الصراع بالرغم من ان الامراء الذين تآمروا على ادارة ارغون كانوا يفضلون تنصيب بيدو عليه.

كان كي ــ خاتو رجلا مسالما لايحب اراقة الدماء حتى مع الاشخاص الذين تآمروا على حكمه شخصيا (بخلاف ارغون الذي تميز لحكمه بكثرة الدماء التي تسبب في اسالتها. لذلك كانت مدة ايلخانيته تمثل عهد سلام واستقرار للايلخانين، مثلا ابرام الصلح مع حكام مملكة القفجاق بناءا على رغبة حاكمها. ولكن كي ــ خاتو كان خانا منغمسا في الملذات، يبحث وراء مباهج الحياة ومتعها،ومولعا بحب النساء وجمالهن. ويبذخ من اجل هذه الملذات مايفوق حد الاسراف والتبذير. ويشير المؤرخون الى هذا بوصفه أحد الاسباب في الاجراء المالي الذي اتخذ من اجل تبديل العملة المعدنية الى العملة الورقية حسب النموذج الصيني المتبع هناك. ويعتقد بويل ان هذا التبديل للعملة جاء نتيجة حدوث تغيرات مناخيه بعد موت ارغون سببت هذا الاضطراب . وكان نظام العملة الورقية هذا قد طبق في العاصمة تبريز وبقي معمولا به مدة شهرين ثم الغي رغم تطبيق عقوبة الاعدام بحق من يمتنع من تبديلها لانه تحول الى كارثة مالية وسياسية بعد توقف كلي لحركة السوق والتجارة.

الا ان سقوط حكم كي ــ خاتو جاء نتيجة لعصيان ناجح قام به بيدو ،الذي يقال إنه كان قد تأثر بسبب سوء سلوك كي ــ خاتو معه في احد مجالس شرب الايلخان. وقد نجح اتباع بيدو من اسر كي ــ خاتو واعدامه وهو من الرابعة والعشرين من عمره.

غير ان بعض امراء البيت الايلخاني رفض الاعتراف بايلخانيه بيدو وعلى رأس هؤلاء غازان، الذي نجح في التخلص من بيدو ومن اصدار الحكم بحقه فأعدم في حديقه خارج تبريز في ١٢٩٥/٦٩٤.

غازان (٦٩٤ ـ ١٢٩٥/٧٠٣ ـ ١٣٠٤)

جاء غازان الى الحكم بعد كارثة اقتصادية المت بايران الايلخانية نتيجة لتطبيق نظام صيني فاشل للعملة الورقية. وقد قرر هذا الايلخان، حفيد هولاكو والبالغ من العمر عند اعتلائه العرش أربعة وعشرين عاما، مواجهة هذا الوضع المتردى بوضع اسس جديدة للاقتصاد الايلخاني واستحق عصره بموجبه لتسمية عصر الأصلاح في الدولة الايلخانيه. ولم يكن هذا الامير المغولي ميالا وحده الى الأصلاح .بل توفرت له شخصيات ادارية كبيرة ساعدت على نجاح هذه العملية ،كان على رأسها طبيب سابق هو رشيد الدين فضل الله، احد اشهر الوزراء الايلخانين (الذي يقترن اسمه ايضا في التاريخ بكتابه جامع التواريخ).

بدأ غازان اصلاحاته باجراء شخصي غير فيه وجه التاريخ المغولي لايران فبعد بضعه ايام من مجيئه الى العرش ارتد غازان عن ديانه ابائه .البوذية .واعلن اعتناقه للاسلام. بعد ان غير اسمه الى محمد ،وبعد ان تلقب بالسلطان عوضا عن الخان الذي كان اسلافه الايلخانيون يستعملون وبهذا العمل فتح غازان الباب امام الامراء والقواد المغول تبني دين سيدهم الجديد لمن لم يأخذ هذه الخطوة بعد، وسبب اختفاء البوذية عن ايران ،بعد ان كانت قد نتشرت انتشارا سطحيا بين سيكانها. ثم جاءت اصلاحات غازان مستهدفه تحقيق الاستقرار الداخلي في ايران ،فقام بالاصلاح المالي ،وضبط العصابات والقوى الخارجه عن النظام التي تعبث في الامن والاستقرار وحد من نفوذ رجالات الدولة ، مما ادى الى تحقيق حاله جديدة من الاستقرار. ولكن هذا الاصلاح لم يكتب له النجاح الكامل لان محركه غازان نفسه كان قد توفي فجأه وهو في ريعان شبابه عن عمر لايتجاوز ثلاثا وثلاثين سنة ودفن في المصلى الذي بناه بنفسه ــ بعد ان نقل جثمانه الى تبريز من قبل مرشحه للايلخانيه،خر بنده بحضور جمع غفير من الامراء (١٠ ألاف).

كان غازان بدون ادنى ريب من اعظم الحكام الذين تواردوا على حكم ايران زمن الايلخانين فأهم مايجب النظر في عصر هذا الايلخان هو اهتمامه الواسع في شتى مجالات العلوم والفنون وسعة افق تفكيره ومهاراته المختلفة مكنَّ له اطلاع واسع في الاداب والعلوم وحدها (مثل التاريخ الطبيعي والطب والفلك وغيرها بل كان متميزا في كثير من الحرف والمهارات اليدوية (مثلا من حرف الصباغة والحدادة والنجارة) .كما كان يتكلم الكثير من اللغات فكان لديه، اضافه الى لغة المغل ، إلمام بالعربية والفارسية والهندية والكشمرية، ولغه التبت والصينة والفرنسية . وبالرغم من اعتناقه الاسلام، فقد كان مهتما بتاريخ وتقاليد اقوامه المغول. ويقال انه بناء على التشجيع الذي تقدم به لوزيره رشيد الدين أقدم على كتابة الجزء الاول من جامع التواريخ.

اوليجاتو (٧٠٣ ــ ١٣٠٤/٧١٦ ــ ١٣١٦)

وهو أخو غازان الراحل ومرشحه للايلخانيه وقد حكم فيها ثلاث عشرة سنة على خطة سياسة اخيه الأصلاحية بأشراف الوزير رشيد الدين فضل الله. اقدم اوليجاتو في بداية حكمه بتصفيه منافسينة لمنصب السلطنة ليقطع على الأمراء المقامرين طريق التمرد عليه. وقام بتغير اسمه الى اوليجاتوا (المحظوظ بلغه المغل). بعد انه كان يعرف باسم (خر بنده) الذي حرفه الى خدا ــ بنده (اي عبد الله).

وكانت ادارته تعتمد سياسة المصالحة مع حكام مملكة القفجاق وتطبق سياسة الايلخانين العدائية مع المماليك ،التي باءت بالفشل ،والتي بها انتهى الصراع المغرلي ــ المملوكي حول تملك بلاد الشام ورغم دعوه الايلخانين الى التعاون مع الغرب الأوربي في حمله مشتركة ضد هذا العدو المملوكي. وباستثناء التصفيات التي قام بها اوليجاتو بحق اعضاء الأدارة الغازانية، فقد ظلت الاوضاع في حكم هذا الايلخان مستقره.ولذلك فقد حول اوليجاتو اهتماماته الى تعمير البلاد .فبنى عاصمة جديدة الى الغرب من قزوين تعرف بالسلطانية لتحل محل مركز الحكم في تبريز، كان قد شرع بها اباه ارغون ولكنها لم ترق الى مستوى المكانه التي كانت تتمتع بها تبريز .ثم اضاف الى ذلك بناء عاصمة اخرى تعرف سلطان ــ اباد عند سفوح جبل بن ستون تسمى «سلطان اباد جمجمال» كما شجع رشيد الدين على تكملة جامع التواريخ، اي الجزء المسمى بتاريخ غازان، الذي يقف فيه تاريخ المغول من بداية ظهورهم حتى زمن غازان .كما حاول اوليجاتو استمالة قوة الاسماعيلية في المناطق التابعة لادارته. مع ان هذا الحاكم كان كثير التحول من مذهب الى اخر.

ابو سعيد (٧١٦ ــ ١٣١٦/٧٣٦ ــ ١٣٣٥)

ابو سعيد(١٧) احد اولاد اوليجاتو كان يبلغ من العمر اثنا عشرة سنة عند اعتلائه العرش الايلخاني. ولكن هذا الفتى الايلخاني اتخذ جملة من الاجراءات السياسية التي تركت أثارا معكوسة على اوضاع الدولة واستقرارها، فقد اختلف اولا مع الوزير .الكبير رشيد الدين واعدمه بعد سنتين من توليه الحكم بتحريض من غريمه علي شاه (ت ١٢١٨/٧١٨) كما غير ابو سعيد سياسة اوليجاتو الدينية وذلك برجوعه الى المذهب الحنفي.

وقد ساءت الأوضاع بالدسائس الكثيرة التي كان يقوم بها رجال البلاط والحريم وتدخلهم في شؤون الحكم .يضاف الى ذلك أن النزاع بين المغول والاتراك من جهة والايرانيين من جهة اخرى قد ادى الى فقدان الايلخان لسيطرته على الاقاليم والمدن التابعة لادارته ،فأخذت المقاطعات تميل الى العصيان على السلطة المركزية والانفصال عنها. ولم يبق من الدولة الأيلخانية التي كانت تجمع عددا من الدول في دولة واحدة (ايران، العراق) اي دولة الخلافة، سلاجقة الروم، (اسيا الصغرى) جورجيا الا عدد من الامراء المتنازعين فيما بينهم على عدد من الاقاليم والمقاطعات التابعة لمناطق حكمهم.

إنهيار الدولة الايلخانية: بوفاة أبي سعيد في ٧٣٦هـ/١٢٣٥م ينتهي حكم بيت هولاكو في ايران ويرتقي الى العرش احد اولاد البيت الملك من فرع اخر هو اربا . كنيون، الذي اتصف حكمه (ولو لمدة قصيرة)، بالمقارنة مع حكم سابقية من الخانات بالقوة والنشاط المتميزين لانتمائه الى افراد هذا الجيل. وكان اربا قد صاهر أبا سعيد وتزوج من اخته الأميرة ساتي ــ بل ،ولكن اربا واجه عددا من المنافسين أشهرهم موسى.الذي انتصر على اربا، والذي كان قد اعلن ترشيحه على بادشاه ،حاكم بغداد. ولكن موسى هذا لم يتمكن من الوقوف بوجه متحد جديد هو شيخ حسن بزرل، الذي اشتهر بزواجه من الاميرة دل ــ شاد، زوجه أبي سعيد المفضلة.

الآ ان أمراء خراسان رفضوا الاعتراف بحكم هولاء الخانات وانتخبوا لهم احد احفاد جنكيزخان خانا لهم بأسم توغا ــ تيمور. مع ان النزاع الحقيقي ظل قائما بين شيخ حسن وخانا اخر يحمل اسم شيخ حسن ايضا ويعرف بأسم شيخ حسن كجك (الصغير) تميزه عن الخان الأول شيخ حسن بزرك (الكبير) الذي فر الى بغداد بعد خسارته للجولة مع الصغير وتمكن من حاكمها جهان تيمور ،ليؤسس حكم الدولة الجلائريه.

ويشكل توغا تيمور ،اخر الحكام «الايلخانين» في ايران. والجلائريون في بغداد وتبريز ،والمظفريون في فارس .القوى السياسة القائمة في ايران حتى زمن تقدم تيمور رلنك الى ايران في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

الخلاصة: حكم الايلخانيون مدة تزيد عن المائه عام ،شهدت بلاد فارس خلالها حقبة من التدهور ، في الوضع الاقتصادي بسبب الغزو المغولي لها وبسبب سياسة الضرائب التي طبقتها الادارة الايلخانية، من ذلك حالة الفوضى والفساد التي كانت تعيشها مناطق ايران نتيجة حاجة المغول الى مناطق واسعة للرعي ونتيجة تحول مجاميع من العساكر المغولية الى فرق محترفة للسلب والنهب، ومن ذلك ادخال نظام التعامل بالعملة الورقية على الطريقة الصينية ٦٩٣/١٢٩٤ الذي كان له اثر كبير على حالة الاقتصاد في البلاد وحدوث الكارثة الأقتصادية التي هيأت لاصلاحات غازان (٦٩٤/١٢٩٥).

وفيما عدا هذا ،فأن الحكم الايلخاني لايران كان قد ترك بعض السمات التي يمكن ان نوجزها بمايلي: ١) لم ينسى المغول بعكس السلاجقة ارتباطهم التاريخي بأرض المغول (مغولستان) وبمجاميع السكان المنشرة هناك، بالرغم من ان المغول كانوا قد فقدوا بالتدريج ارتباطاتهم الدينية التي عرفوا بها (الشامانية والمسيحية والبوذية) لصالح الاسلام. ، وهذا الشعور المغولي .بالارتباط بارض للمغول قد ولد شعورا مماثلا لدى الايرانين ،الذي كان قد تما بوجود حكومة مركزية قوية في ايران وبوجود اعداد متميزة من الايرانين ضمن تشكيلات رجال الادارة . كما ان حلول اللغة الفارسية محل العربية للأدارة والكتابة قد شجع مثل هذا التوجه الايراني، ٢) ان احد مزايا الحكم

الايلخاني لايران هو توسع افق ايران السياسي والتجاري بتعرضها الى كل من الصين واوربا مما شجع تبادل الزيارات بين العلماء الصينين والاوربيين والايرانين ،ونشاطهم في مجال الرسم ،او نشاط التجار الايطالين في تبريز .ولكن التداخل الحضاري هذا جاء الى نهايته بانهيار الحكم الايلخاني من ايران ،٣) كانت الحياة الفكرية قد اصابها التقدم بعد الفوضى والدمار اللذين مرت بهما المنطقة خلال عملية غزو جنكيزخان وهولاكو لايران .فالى هذه الحقبة يرجع جامع التواريخ الذي كتبه رشيد الدين فضل الله باللغة الفارسية السائدة في زمانه ،الذي ذكر فيه ايضا تاريخ العالم المسيحي الغربي لاول مره. كما ينتمي اليها وصاف، احد التواريخ المهمة عن المغول والحكم الايلخاني في ايران، واليها ايضا يرجع الشاعر والاديب سعدي الشيرازي (ت ١٢٩١/٦٩٠) الذي يعكس محتويات ديوانه جوانب من وضع ايران الاجتماعي والديني السائد زمن الايلخانين. كما ظهر في هذه الحقبة واحد من اشعراء التصرف، هو جلال الدين الرود (٦٠٤ ــ ١٢٠٧/٦٧٢ ــ ٢٢٧٣) المعروف بمساهماته في حقل الشعر والذي يعد من اهم نتاجات الأدب الفارسي منذ ايام الشاهنامه.

الهوامش:

١. توجد مجموعتان من المصادر عن تاريخ المغول ـــ الايلخانين ودورهم في العالم العربي ـــ الاسلامي واحده تدور حول رشيد الدين فضل الله (ت ١٢١٨/٧١٨) ،الذي يمثل وجهة نظر الايلخانين الرسمية في كتابة جامع التواريخ (التاريخ الغازاني) الذي وضعه للسلطان غازان. ثم يتابعها تلميذه وصاف في ترجية (تجربة) الأمصار وترجيه الاعصار ،الذي هو بمثابة تكملة لتاريخ علاء الدين عطا ملك الجويني (جهان كشا. والى وأيضا كتاب طبقات الناصرين للجزجاني الغزو المغولي). اما المجموعة الأخرى فتتمثل بالمدرسة التاريخية البغدادية التي يترأسها ابن الاثير ومدرسة التاريخ السوريه ـــ المصريه التي ترى في المغول اكبر خطر واجهه العالم الاسلامي والحضارة العربية الاسلامية. ويأتي الكامل ابن الاثير على رأس هذه المجموعة ثم مصنفات الذهبي اليونيني ،ذيل مرآة الزمان واليوسفي وغيرهم ويمكن اضافة ابن الفوطي اليهم بتحفظ .وقد جمع المرحوم عباس الغراوي نصوصا كثيرة من هذه التصانيف ضمها الى كتابة تاريخ العراق بين احتلالين. وهناك ايضا عدد من المصادر الصينية القديمة (والحديثة) تمثل وجهه نظر الخان الاعظم ومجلس القوريلتاى الاعلى للمغول. وتوجد مجموعة من الدراسات الحديثة تلخص الغزو والمغولي والحكم الايلخاني لايران والعراق اهمها دراسة الاستاذ بويل عن التاريخ السياسي للايلخانين ،التي تعتمد على مساهمات المستشرقين الروس والغربين بهذا الحقل (بلرتولد ، على زاده وغيرهم) ودراسة بتيرو فسكي عن حالة ايران السوسيولوجية والاقتصادية، والاستاذ سبولر المتخصص في تاريخ ايران خلال حكم الايلخانين لها، ودراسة الاستاذ جعفر حسين خصباك عن الايلخانين والعراق.

٢. انظر ماكتبه سبولر **Spuler** عن تاريخ ايران وانحلال الخلافة العباسية في تاريخ كمبرج للاسلام، مجلد **IA**، ص١٦٠ ـــ ١٦١.

٣. سبولر ،المصدر ذاته ،مجلد **IA**، ص١٥٨. كان اللقب الذي يستعمله الخان في المراسلات هو «نائب رب السماء» انظر محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية والأدارية العائدة للعصور العباسية، ص٤٧٣.

٤. في ٥٤٥/١١٥٠ اجتاح علاء الدين غزنه وسباها ثم ذبح جميع سكانها بعد ان اخرجهم من مخابئهم بدعوه الصلاة، فأستحق لقب جهان ـــ سوز الى «محرق العالم».

٥. احسن مايتوفر عن الاسماعيلية هو ماكتبه الأستاذ هوجسون **G. Hodgson** المتخصص في دراسة الاسماعيلة وقلاعهم من خلال اطروحته للدكتوراه عن نظام الاسماعيلة وتاريخهم السياسي.

٦. ارسل جنكيزخان الى خوارزمشاه يستوضحه بحق التجار: هولاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فأن كان امرا امرت به طلبنا بدمائهم والّا فأنت تنكره وتقتص من نائبك، ثم كتب جنكيزخان في المرة الثانية: «تقتلون اصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم، استعدوا للحرب فاني راحل اليكم ..» راجع المراسلات في محمد ماهر حماده ،الوثائقه السياسية والأدارية، ص٤٧٣.

٧. لابن الاثير مقوله مشهورة تخص الغزو المغول بدايتها: «ولقد بقيت عده سنين موضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ... فمن ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ... فيا ليت امي لم تلدني ويااليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله (سبحانه وتعالى) آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فأن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها. انظر الكامل ، م١٢، ص٣٥٨.

٨. سبولير ،المصدر ذاته، م IA ،ص١٦٢ — ١٦٣.

٩. جاء في البيان الذي يورده مؤرخ الايلخانين رشيد الدين فضل الله مايلي: « ..قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة ... فاذا اسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والالات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم .. وستحمد لكم مواقفكم .اما اذا تهاونتهم في امتثال الاوامر واهملتهم فاننا حين نفرغ. من امر الملاحده تتوجه اليكم فيجرى على ولاياتكم مايكون قد جرى عليهم .انظر حمادة، الوثائق السياسية والأدارية ص٤٧٤. وكان هذا يعني الاعتراف بسيادة المغول ودفع غرامه مالية سنوية لهم.

١٠. عن سيره أبقا راجع ماجمعه عباس العزاوي في تاريخ العراق بين احتلالين .م١ ،ص٣٠٠ — ٣٠٢.

١١. كما ذكره بويل في المصدر ذاته م IA ،ص٣٦٤.

١٢. للمعلومات عن تكودار واحمد، والأحداث الخاصة بسلطته راجع عباس العزاوي في المصدر ذاته ،م١ ،ص٣٠٤ — ٣٠٦.

١٣. انظر العزاوي، المصدر ذاته ،م١ ، ص٣٢١؛ بويل من المصدر ذاته ،م٥ ،ص٣٦٨.

١٤. عن سيرته الذاتية يراجع: عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، م١ ،ص٣٥٢ — ٣٥٣ وعن الاحداث الخاصة بسلطته يراجع بويل من المصدر ذاته، ص٣٦٨ — ٣٧٢.

١٥. يراجع عباس العزاوي، المصدر ذاته، م١، ٣٦٣ — ٣٦٧؛ ايضا بويل ،المصدر ذاته، م٥، ص٣٧٤ — ٧٠٩.

١٦. عن سيره غازان يراجع بويل ،المصدر ذاته ،م٥، ص٣٧٩ — ٣٩٧. ايضا سبولر، المصدر ذاته، م IA ،ص١٦٦ — ١٦٧.

١٧. انظر عنه وعن احداث سلطنته عباس العزاوي ،المصدر ذاته، م١ ،ص٤٤٧،٥١٦ وانظر بويل ايضا في المصدر ذاته ،م٥ ،ص٤٠١ — ٤١٣.

المبحث الثاني:

تيمور في بلاد فارس

كان تقدم تيمور(١) من التركستان صوب العالم الاسلامي قد غير من اوضاع ايران بشكل جزءي بحيث أصاب هذا التغير جوانب الحياة السياسية في ايران وتركيب الدولة ، كما أصاب ايضا حياتها الاقتصادية والاجتماعية وحالتها الحضارية.

وكانت ايران في أواخر حكم أبي سعيد الايلخاني دولة مجزأة الاوصال ومهيأه للأحتلال وقبول حالة التغير في الحكم ،ولكن ظل وضعها على حالة من التوازن السياسي لعدم وجود قوة عسكرية من بين الدول المجاورة لها تستطيع قلب حالة التوازن هذه حتى ظهور تيمور على المسرح السياسي، حيث يمثل دخوله لأيران بداية حقبة جديدة في تأريخ هذه البلاد . وكان ظهور تيمور وبخاصة في التركستان حدثا مهما في تأريخ الاقليم جاء في أعقاب التحول الذي أصاب الأمبراطورية المغولية ــ الجغتاي ــ التي كانت قد أنقسمت منذ منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي الى منطقتين رئيستين متميزتين: مغولستان أو أرض المغول التي تتبع حكم الخانات المغول ،ومنطقة التركستان التي يسكنها مغول متتركون تأثروا بالأسلام وتعاليمه ،كان يحكمها منذ منتصف القرن الثامن الهجري زعماؤهم المسلمون الذين حلوا محل خانات الجغتاي في حكم المنطقة؛ وتمثل التركستان هذه القاعدة التي انطلق منها تيمور لتكوين الامبراطورية التيمورية. فمن تيمور هذا؟

ولد تيمور(٢) (الحديد) في ٢٥ شعبان ٧٣٦/٨ نيسان ١٣٣٦ في مدينة كش (المدينة الخضراء) وقضى فيها صباه وكان والده أمير ترغاي شخصية محترمة بين أفراد قبيلة البرلاس وهي القبيلة التي ينتمي اليها تيمور .ويقال إن نسبه يتصل بجنكيزخان ، مع أن تيمور لم يدع مطلقا هذا النسب طيلة حياته. وكل ما كان يعرف به في مدينة سمرقند هو «الامير الكبير» ، أميرى بزرك بالفارسية أضافه الى نعت كوركان ،الذي جاء عن طريق زواجه بأحدى البنات الجنكيزيات والذي جعل منه عضوا من اعضاء السلالة الجنكيزية. وفي هذه البيئة تعلم تيمور الفروسية وكل فنون الحرب التي يحتاجها المحارب الشجاع .وكان يتكلم الى جانب التركية، لغة قبيلته اللغة الفارسية .كما كان قد تأثر بدون غرابة بنوع الأسلام السائد في منطقة سمرقند خاصة الخط الذي يمثله الدراويش والمتصوفه. وقد ظهرت براعة قيادته منذ البداية، وزاد أتباعه نتيجة التوضعات التي قام بها في المنطقة ابتداءا بحروبه في سيستان .كما كان له أثر في اعادة سلطة أمير قزغان وحفيده حسن، بعد أن أذعنت مؤقتا لخان المغول. وفي إحدى هذه الحملات جرح تيمور في يده اليمنى وساقه وعرف من جراء ذلك بلقب لنك اي الاعرج .ثم مالبث ان أختلف مع أمير حسن بعد الزواج من أخته، وسرعان ما أخذ منه بلخ. ثم تخلص من هذا الأخير ليصبح سيد التركستان بدون منازع(٣).

احتلال تيمور لبلاد فارس: لم يكن خروج تيمور الى ايران بأتجاه الجنوب والغرب مرتبطا بهجرة سكانية من التركستان إذ ان تيمور كان قد اعطى مهمته الحربية ضد افغانستان ومناطق ايران العليا كل العناية اللازمة التي تستحقها هذه المهمة. ففي اقل من خمس سنوات فرض تيمور سيادته على القسم الشرقي من ايران وجنوبها الشرقي. واول مقاومة لطموحات تيمور جاءت من امير الكرتيين في هراه غياث الدين پير على، الذي لم يكن بمستوى تيمور وقابلياته العسكرية. وفي ١٣٨٣/٧٨٥ احتل تيمور هراه وتخلص من حاكمها غياث الدين لينهي بذلك مائة وثلاثين سنة من حكم الكرتيين لهراه(٤) .وتقدم بنجاح لاحتلال طوس ويزوارا واسفزار ألا انه لاقى بعض المقاومة في غرب خراسان .ثم اخذ بالتوجه صوب سيستان ومازندران والسلطانية، عاصمة الايلخانيين، بعد محاولة للقضاء على الجلائرين في اذربايجان ..

ثم قام تيمور بحملات اخرى في ايران والتي تعتبر جزء من حملاته الثلاث المشهورة وهي ١) حملة السنوات الثلاث (٧٨٨ ــ ٧٩٠ ، ١٣٨٦ ــ ٨٨) ، ٢) حملة السنوات الخمس (٧٩٤ ــ ١٣٩٢/٩٨ ــ ١١٩٦)،٣) وحملة السنوات السبع التي بدأها في شعبان ١٣٩٩/٨٠١.

كانت طريقة تيمور عند محاصرته لمدينة ايرانية معينة تقضي من ادارة تلك المدينة المحاصرة تسليم شؤونها للأداره التمورية الجديدة والطلب من حاكمها السابق الجلوس للمفاوضات بدافع تقرير شروط التسلم. بما في ذلك فرض غرامه مالية كبيرة على السكان من اجل التأمين على حياتهم الشخصية .وكان اللجوء الى القوة لاحتلال المدينة هوديدون تيمور المستمر بعد فشل كل دفعه من المفاوضات التي يتم عقدها مع غريمه الذي اختار طريق المقاومة المسلحة، وعندما يحدث مثل هذا ،فأن روح الانتقام من سكان تلك المدينة تلغب وتبنى اجراءات قمعية لامثيل لها ضدهم هو اسلوب تيمور المغول عليه في معاملة سكان هذا النوع من المدن ،بدون ابداء ايه رحمه تذكر لهم، اذ ان اقل اشكال العقوبات التي كان تيمور يلجأ الى استخدامها تأخذ شكل المذبحة الجماعية للسكان «وكانت قساوة تيمور والانتقام من السكان امرا مألوفا لتيمور يعبر عنه عاده بأسلوب المنائر البشرية التي كان يأمر ببنائها من جماجم الضحايا خارج ابواب المدينة المنكوبة. وأسوا مثل لهذه المنائر حدث في اصفهان سنة ١٣٨٨/٧٩٠ بعد مهاجمة سكان المدينة لجباة الضرائب من اداره تيمور اذ يذكر حافظا ابرو، احد شهود العيان لهذه الحادثة ،أنه كان قد قام بجولة في مدينة اصفهان في اعقاب المذبحة التي امر بها تيمور لسكانها ،فوجد في احدى مناطق المدينة وحدها ثمانية وعشرين منارة تكون كل واحدة منها من (١٥٠٠) جمجمة، ويرى ،ورمير احد اشهر المختصين في الدراسات التيمورية هذا النموذج الذي عرف به تيمور ربما يكون قد تأثر بطريقة المغول المعروفة لدى اجتياحهم مناطق العالم العربي ــ الأسلامي. ولكن لاشئ مما عمله المغول ،في رأي هذا الباحث ، يساوي ماقام به تيمور ازاء المدن التي كانت ترفض الأذعان والتسليم لادارته(٥).

القضاء على حكم الاسرو المظفريه(٦): كانت هذه الاسره تحكم في مناطق بلاد فارس الوسطى من شيراز واصفهان عقب انهيار الحكم الايلخاني في ايران. التي استمرت في الحكم ثمانين عاما (٧١٣ ـ ١٣١٣/٧٩٥ ـ ١٣٩٣) قدمت خلالها اسهامات سياسية وحضارية . وكان احد حكام الاسرة. الامير زين العابدين علي. قد تأخر في الرد على طلب تيمور بأعلان ولاءه السياسي لسيد ايران الجديد .فما كان من تيمور الا ان تقدم صوب اصفهان وفتحها واستعمل القسوة والوحشية مع اهلها بشكل لايعرف له مثيل في تاريخ الحكم التيموري وهو القتل الجماعي لسكان المدينه. ثم تبعها سقوط شيراز مقر الحكومة المظفريه. ولكن حملات تيمور التأديبية هذه على المظفرين قطعت فجأه بعد ان اضطر تيمور للرجوع الى التركستان لمعاقبه طغ ـ تميش .سيد تيمور السابق في الاراضي التيمورية.

حملة تيمور الثانية على ايران: بين السنوات ٧٩٤ ـ ١٣٩٢/٧٩٩ ـ ١٣٩٧ بدأ تيمور حملة السنوات الخمس على ايران .التي كان من نتائجها القضاء على حكم هذه الاسرو المظفرية.

بدأ تيمور نشاطه الحرب بتصفية حكم «الساوه» في جرجان ومازندران ، التي كانت تحتفظ بروابط دينية وسياسية مع جماعة الحروفين ـ ذو الميول التحريفية .التي تنتسب الى فضل الله أبي الفضل واعدم شخصيا علي يد ميران رشاه، احد اولاد تيمور ، بالقرب من نخجوان . الّا ان نشاط تيمور الحربي كان موجهاً ضد الاسرو المظفريه، بشكل خاص لمعالجه امر منصور شاه احد فرو ع هذه العائلة. وكان منصور شاه قد تحصن بشيراز عندما سمع بتحركات تيمور في الدامغان والري وبروجرود، بينما كان تيمور قد دخل بحلول ربيع الثاني ٧٩٥/ مارث ١٣٩٣ ديزفول وشوشتر استعدادا لملاقاه منصور شاه، الذي حارب تيمور ببسالة ولكن دون جدوى .

وترتب على انتصار تيمور اعدام منصور شاه اولا على يد ابن تيمور الامير شاه رخ ،ثم تبعه اعدام بقيه افراد العائلة بعد ان قدموا ولاء الطاعة لتيمور شخصيا. وهكذا كانت نهاية حكم الاسرو المظفرية في فارس. التي ظهر من خلال حكمها لهذا الأقليم عدد من الشخصيات الأدبية على رأسهم الشاعر حافظ الذي حظي برعاية رأس الاسره، شاه ـ شجاع. ويعد حافظ من أكبر الشعراء الذين ظهروا في تاريخ اللغة الفارسية.

ان الشئ الواضح في تاريخ هذه الاسره هو انهم فشلوا في انقاذ ايران من فوضى الحرب الاهلية التي اعقبت سقوط الحكم الايلخاني. كما ان حكام هذه الاسرو قدموا البلد لقمه سائغه لتيمور الذي لم يبذل اي مجهود يذكر لتحقيق الانتصار . ومع ذلك فأن هذه الاسره كانت قد خدمت ايران من حيث انها شجعت على الازدهار الفكري.

تيمور والجلائريون(٨): لم يبق من منافس لتيمور في ايران بعد استئصال المظفرين الا الجلائريين، اتباع السلطان احمد الجلائري، الذي كان يحكم فوق مناطق تمتد ما بين آذربايجان والعراق، بما في ذلك بغداد التي سلمها لتيمور ،في مناسبتين الاولى في ١٣٩٣/٧٩٥ كان قد استعادها بعد مرور عام من سقوطها .والأخرى في ١٤٠١/٨٠٣ ولكن السلطان احمد ظل طليقاً، ولم يتمكن تيمور منه الى ان وقع بيد امير القرا ــ قويتلو قرا ــ بوسق، الذي اعدمه قبيل غزوه لبغداد في ١٤١١/٨١٤.

كانت اهم نتائج حمله السنوات الخمس بالنسبة لتاريخ ايران هو،ان هذه البلاد اصبحت جزء لايتجزأ من دائره النفوذ التيموري. ولم يكن اي من اعداء تيمور ،احمد او قرا ــ بوسق ، له تطلع نحو ايران يتمكن من ان يقدم ايه مقاومة تذكر لهذا النفوذ او تحديه، على العكس من ذلك ،كان هم هولاء الحكام هو الاحتفاظ بقابلياتهم على البقاء مفضلين العيش خارج ايران او بالمنفى من الموت المحقق على يد تيمور.

اعمال تيمور الاخرى: قام تيمور بتصفية كل المناطق التي تؤثر في حكمه في ايران ،فمثلا قام بتصفية القواعد الواقعة على دجلة كتدمير لقلعة تكريت، وحملته في ١٣٩٥/٧٩٩ ضد القفجاق، حملته على الهند ضد سلطنه دلهي (١٣٩٨/٨٠١) ،ثم حملته على سوريا في (١٤٠٠/٨٠٣) انتهت بتسليم حلب ودمشق اليه لأسباب تتعلق بعضها بتأييد المماليك البرجية لاحمد الجلائري، عدو تيمور وغيره ؛ ثم اعد حملته في الانضول (حملة السنوات السبع) ،عند سلطان العثمانيين بايزيد يلدرم (١٤٠٢/٨٠٤)، ليعود الى سمرقند في بداية ١٤٠٤/٨٠٧ ويتهيأ لحمله غير مكتمله على الصين عندما توفي وهو يقارب التاسعة والستين.

كان حكم تيمور قد جاء بالويلات والدمار لايران فقد كانت المدن الايرانية التي كان تيمور يتصدى لفتحها تشهد مذابح جماعية ودمارا شاملا لم تشهد لها مثيل في تاريخ هذه البلاد بالمقارنة مع الاعمال الوحشية التي كانت قد شهدتها هذه المدن خلال اجتياح المغول لها زمن جنكيزخان وهولاكو .ولذلك كانت استعادة هذه المدن الايرانية لانفاسها قد جاء تدريجيا. ولم يحدث اي تطور حضاري يذكر لها مجددا الا تدريجيا ايضا وفي زمن احفاده التيموريين ،خلفاء تيمور في ايران.

وكان تيمور يتميز بقابليات عسكرية فالانتصارات التي حققها في حروبه بالطرق والوسائل التي كان يحقق بواسطتها هذه الانتصارات لانجد لها ما يوازيها في تاريخ العالم، بما في ذلك القساوه والوحشية التي اتصفت بها هذه الانتصارات(٩).

ولقد قيل الكثير عن تيمور وعن سلوكه الدموي مع سكان المناطق التي استهدفها بحملاته العسكرية بعد رفضها الاعتراف بحكم تيمور. كما وصف بانه واحد من اشد الاعداء الذين

خضعت لهم الحضارة الأسلامية ،بالرغم من اعتقاده بالاسلام. والواقع انه كان جزارا لايرحم ،يذبح عشرات الالوف من الناس الابرياء ،بدون رحمه وبكل انواع القسوة التي يمكن له ان يستعين بها على رأسها اسلوب بناء المآذن والاهرامات البشرية من جماجم الضحايا ولم يكن للمدن المنكوبة الّا حظ الانتظار طويلا حتى نستعيد انفاسها من هول الدمار الذي حل بها وبأهلها.

والحقيقة ان تيمور كان تركيا من منطقة التركستان ورجلا عسكريا ، ولكنه كان يحترم التقاليد المغولية والاسلوب الذي اتبعه المغول من قهر شعوب العالم الاسلامي. ولم تكن طريقته القاسية في الحرب مختصه به وحده .ولكن مايميزه عن غيره من امراء وحكام تلك الحقبة هو قابلياته العسكرية قائدا عسكريا وفي حظه اللامحدود في المعارك التي خاضها ضد اعدائه والتي كانت تتميز بالانتصار الى اخر ايام حياته(١٠).

الامارة التيمورية بعد تيمورلنك:

كانت البلاد التي خلفها تيمور في اعقاب وفاته مكونه من أقاليم واسعة جدا من ايران وماوراء النهر والاناضول ولكن النقص الواضح في خصائص هذا الكيان بأنها كانت تفتقر الى نظام عملي للوراثه ومسألة الحكم، واي تنظيم سياسي ثابت يجمع بين أقاليمها المترامية التي شرعان ماأخذت بالتفكك والانفصال عن مركزها من سمرقند وهراة، والتي أقترنت برجوع حكام الدول التي كانت تسيطر على كل من سوريا والعراق قبل قيام الغزو التيموري لها الى مناطق حكمهم. ومع ذلك، فقد بقيت مساحات كبيرة من ايران ماوراء النهر (التركستان) يحكمها خلفاء(١٢) تيمور واحفاده والذين تقاسموا الاقاليم والولايات التيمورية فيما بينهم .إلا أن اهم ماشهدته ايران خلال حكم التيموريين من تطورات هو التغير في الوضع الفكري، الذي أخذ التيموريون بتشجيعه هناك على خلاف، مدة تيمور ذات الطابع العسكري الذي تميزت به .وكان نصيب ايران من هذه التطورات السياسية والحضارية نصيبا كبيرا أخذ شكلا واضحا تجاه نهاية القرنين التاسع والعاشر الهجريين/الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ويذكر. أن حكم التيموريين في ايران قد امتد من سنة ٨٠٧هـ الى ٩١٣/١٤٠٥ ـــ ١٥٠٧ شهدت بداياتها خلافات حادة بين اولاد تيمور حول مَنْ مِنْ هؤلاء الذكور يتمكن من السيطرة على العرش التيموري الشاغر.

سلطنة شاه رخ(١٣) (٨٠٩ ـــ ١٤٠٧/٨٥٠ ـــ ١٤٤٧)

نجح رابع اولاد تيمور المدعو شاه رخ من مد نفوذه فوق معظم أجزاء ايران خاصة خراسان وتركستان ،بالرغم من ان والده لم يكن قد رشحه لوراثة الدولة التي ظل يدير شؤونها من هراة ،مركز عمله عندما كان حاكما على خراسان طليلة اربعة عقود من الحكم ايران . فقد أفلح في

فرض سيطرته على القسم الشرقي من امبراطورية تيمور وفي مد نفوذه على أجزاء ايران الوسطى والجنوبية بعد التخلص من منافسيه على العرش التيموري هم كل من خليل سلطان، احد اولاد ميران شاه بن تيمور الذي أخذ منه سمرقند في ١٤٠٩/٨١١، وسلطان حسين حفيد تيمور من أحدى بناته.

ولكن شاه رخ لم يكن موفقا في حملاته على ممتلكات القرا ــ قونيلو في اذربيجان(٤١) والعراق ،فقد ظل هذان الاقليمان تحت حكم أمير القرا ــ قونيلو قرا يوسف بعد أن تخلص من تهديد جلائري قاده سلطانها أحمد الجلائري لاحتلالهما. وقد حاول الشاه رخ معالجة الخطر التركماني الجديد (اي خطر القرا ــ قونيلو) بالوسائل السياسية والحربية التي لديه ،إلا انه لم يحقق إلا نجاحا جزئيا ،وفي أذربيجان وحدها: فبعد ثلاث حملات قادها شاه رخ بنفسه ضد القرا ــ قونيلو، كل من قرا يوسف وأبنه قرا أسكندر في ١٤٢٠/٨٢٣ ، و ١٤٢٩/٨٣٢ ، ١٤٣٤/٨٣٨ كان الخطر التركماني في نهاية هذه الحملات كان لايزال قائما. وكانت الحملة الاولى في زمن قرا يوسف ،وفيها دخل شاه رخ تبريز مركز أذربايجان ومدن الأقليم الاخرى بدون صعوبة .ولكن شاه رخ رجع مرة أخرى لقيادة حملة جديدة على تبريز بعد استعادة قرا أسكندر لها .ولم ينجح شاه رخ في حل مشكلة القرا ــ قونيلو حتى بعد تعيين أبي سعيد احد حلفائه من أمراء القرا ممثلا له في تبريز .ولذلك فقد ظل الوضع على هذه الحالة حتى زمن حملة شاه رخ الثالثة التي لم تحل مشكلة اندفاع التركمان نحو حدود ايران حلا نهائيا، مع أن هذه الحملة وضعت الى حين حدا لاخطارهم الانية لما تبقى من حكم شاه رخ ،اي بتعيين جيهان شاه أخي قرا أسكندر حاكما تيموريا في تبريز.

وهكذا تمكن شاه رخ خلال حكمه الذي دام أربعة عقود من الزمن من وضع معظم أقسام الامبراطورية التيمورية تحت حكمه المباشر خاصة تلك الاقسام التي كانت تتكون منها ايران والتي كان قد تحسن فيها الوضع الاقتصادي والحضاري تدريجيا بعد انتهاء حكم تيمور لها.

إلا أن هذا التحسن في الحالة الاقتصادية والحضارية لم يكن من تدبير شاه رخ او من نتائج سياسته الأدارية شخصيا لأن هناك حالة من عدم الاتفاق بين المؤرخين حول مهارته السياسية كرجل دولة بالمقارنة مع والده تيمور. غير أن من المؤكد أن عددا من رجال البلاط التيموري في هراة قد أسهموا في هذا التطور خاصة ماقدمته زوجته الاولى كوهر شاذ ، التي تولت تمشية أمور الدولة وتوفير الأمن والأستقرار للناس بالتعاون مع اولادها، وعدد من رؤوساء الدواوين في الادارة ،التي كان يديرها بجدارة أشخاص يتميزون بقدرات غير اعتيادية .كما أن هذا النفر من الاداريين الذي ظل محتفظا بوظيفته مدة طويلة من الزمن قد اسهم في تحقيق حالتي الامن والاستقرار التي شهدها حكم شاه رخ ،مثلا قائد الجيش جلال الدين فيروز شاه كان قد بقي في وظيفته بدون انقطاع لمدة ٣٥ عاما، أو غياث الدين مير على خوافي ،الذي ظل محتفظا بمنصبه في ديوان الأمارة

الاعلى لمدة ثلاثة عقود ونيف من الزمن، والأمير عليك كور كلتاش رئيس للادارة المالية الذي ظل يشغل منصبه مدة ثلاث واربعين سنة.

لقد كان شاه رخ رجلا ذا دين وحاكما اسلاميا متحمسا للشريعة، بعكس والده تيمور الذي كان قد ألتزم بالتقاليد المغولية إلى الحد الذي اطلق على نفسه لقب كوركين (١٥) بينما كان شاه رخ يستعمل لقب «بهادر» وهو لقب مغولي محرف. كما تميز عهد شاه رخ بظهور عدد من رجال الفكر والادب والتصوف منهم شاعر التصوف قاسم الانوار، وشاه نعمه الله ولي والفلكي غياث الدين جمشيد بن مسعود، بالرغم من أن هذه المدة لم تخل من معارضة لحكمه كتلك التي أبداها الشيخ المتصوف خواجه أحرار في سمرقند.

سلطنة اولغ بك(١٦): لم يسم شاه رخ خلفا له من بين اولاده، بالرغم من إنه كان يفضل أن يرى محمد جولي، حاكم بلخ المتوفى في حياة والده، وريثا للعرش التيموري من مقعد حكومته في هراة إلا أن العرش الشاغر هذا أصبح من نصيب ولده محمد تراغي المعروف اولغ بك، وهو الأبن الوحيد الذي ظل على قيد الحياة، والذي كان يحكم بالنيابة عن والده في سمرقند. وكان اولغ بك شخصية ضعيفة سياسيا وعسكريا، ولذلك سرعان ما أتضح بأنه لم يكن بمستوى الحاكم الذي يتمكن له من الحفاظ على وحدة الدولة عن طريق أدارة مركزية موحدة يقف هو على قمة ادارتها؛ كما كان الحال زمن والده شاه رخ. وبعد سنتين من الفوضى أعقبت مقتل اولغ بك بدأ عصر جديد في تأريخ التيموريين هو عصر أبي سعيد.

سلطنة أبي سعيد(١٧) (٨٥٥ – ٨٧٣/١٤٥٢ – ١٤٦٩)

وهو أحد أحفاد تيمور من ولده المعلول ميران شاه، الذي تمكن عن طريق أستعمال القوة التي تميز بأستعمالها بها من أن يفرض سيطرته على اقسام مهمة من ايران وان ينجح في حكمها لمدة ثمانية عشر سنة اتسمت بالأمن والاستقرار. حتى انه احتفظ بهذه الحالة وقت ظهور اوزون حسن (حسن الطويل) ،امير الأق – قونيلو الذي جاءت على يده نهاية أبي سعيد عند دخول اوزون حسن تبريز في (١٤٦٩/٨٧٣).

كانت الدولة التيمورية زمن أبي سعيد تتكون من أقليم ماوراء النهر التي تم توحيدها مع شرق ايران، ومن خراسان ومازندران واقسام من افغانستان الحالية أضافة الى مناطق الجبال وأصفهان وفارس وكرمان التي استقلت بعد انتصار اوزون حسن على ابي سعيد ،الذي أنهى حكم التيموريين في مناطق ايران الغربية والجنوبية. وكان ابو سعيد قد نجح في ان يحتفظ بحكم التيموريين طيلة عهده باعتماده على قبائل الارغون التركية ولكن هذا الحكم يبقى يمثل حقبة تغلغل القرا –

قونيلو والآق ـ قونيلو الى اذربايجان وغرب ايران وقد حاول ابو سعيد أن يستغل فرصة غياب اوزون حسن في الانضول ليأخذ أذربايجان منه الّا ان هذه الفرصة اودت بحياته اذ لاقى مصرعه على يد غريمه زعيم الأق ـ قونيلو .وتجدر الأشاره إلى أن أبا سعيد كان كثير الاهتمام بعلماء الدين والمتصوفه ويستأنس بأرائهم عند تمشية أموره السياسية والأدارية، وكانت تربطه علاقة روحية قوية بالشيخ خواجه عبيد الله احرار ذي السطوه والنفوذ في سمرقند ،والذي قاوم من قبل حكم شاه رخ. وكان خواجه احرار قد أقنع أبا سعيد في أعادة تطبيق الشريعة فيما وراء النهر بعد توقف العمل بها.

ابو منصور حسين بيقرا(١٨): (و ٨٢٠ ـ ت ١٤٣٨/٩١١ ـ ١٥٠٦م) وهو حفيد عمر شيخ، احد اولاد تيمور .كان قد فقد اباه وهو لايزال في السابعه من عمره وظل يعيش عيشة الفروسية والمغامره بين مازندران وخوارزم حتى وقت وفاه أبي سعيد عندما آل العرش التيموري اليه.

فمنذ سنة ١٤٦٩/٨٧٣ دخل حسين بيقرا في صراع مع عدد من المنافسين(١٩) له على رئاسه العرش التيموري حتى تمكن من تصفيتهم، خاصة المنافسة المتمثلة بأولاد أبي سعيد ،وكان يادكار محمد ، الذي أشرف على قتل أبي سعيد بالتعاون مع سيده اوزون حسن قد أعلن أنه هو الوريث الشرعي للعرش التيموري المتنازع عليه. ألا ان حسين بيقرا في هذه المدة من حكمه كان قد تمكن من دحر يادكار محمد، منهيا بذلك حكم آخر احفاد شاه رخ، كما أنهى بذلك احلام اوزون حسن بالسيطرة على خراسان ،اذ كان يأمل ان يقوم بضمها الى مناطق نفوذه لاهميتها الجغرافية والسياسية عند التيموريين، ولكن اولاد أبي سعيد نازعوا حسين بيقرا على السلطة ولم يستقر الامر بينهم إلا باحتفاظ اولاد ابي سعيد بحكمهم في سمرقند ،وفي سيادة حسين بيقرا على خراسان .اما في المرحلة الثانية من عهد حسين بيقرا فقد كانت هناك جملة اصطدامات قادها اولاد حسين بيقرا انفسهم في المدن الايرانية الرئيسية التي كانت تمثل تحديا لسلطة حسين بيقرا، مع انها لم تتمكن من تهديد السلطة المركزية ذاتها، مثلا حالة التمرد التي قادها ابنه الأكبر بديع الازمان في بلخ، والتي باءت بالفشل.

لقد تميز عهد السلطان حسين بيقرا بنهوض فكري وادبي ، فالى هذه الحقبة ينتسب الشاعر الصوفي جامي (٨١٧ ـ ١٤١٤/٨٩٨ ـ ١٩٢)، صاحب كتاب نفحات الأنس في التصوف، والمؤرخ مير ـ خواند (٨٣٦ ـ ١٤٣٣/٩٠٣ ـ ١٤٩٨) ،صاحب تاريخ روضة الصفا، الذي اعتمد على أبن الأثير ، وحفيد مير ـ خوند ،المؤرخ خواند ـ مير، الذي له من التراث التاريخي (حبيب السير ودستور الوزراء).

وتميزت ادارة حسين بيقرا بشخصية الوزير علي شير نوائي (٨٤٣ ـ ٩٠٧/١٤٤٠ ـ ١٥٠٢)، التركي الأصل الذي كانت تجمعه بحسين بيقرا صداقه قديمه ترجع إلى أيام حداثة السلطان ،الذي كان يأتي في المرتبة الثانية بعد حسين بيقرا في ديوان مجلس الامارة الاعلى (ديوان بزركى امارت)(٢٠).

لم يبق حسين بقرا على قيد الحياة ليرى انهيار الامارة التي حكمها بحاله من الأمن والاستقرار لمدة سبع وثلاثين عاما اذ وافته المنيه في ذي الحجة ٩١١/ مايس ١٥٠٤ في أثناء زحفه على الأوزبك. وكانت وفاته بداية لعهد جديد في تاريخ ايران اذ لم يتمكن اولاده من مقاومة القوة الجديدة القادمة من التركستان الاوزبك، إلا أن المثوه الجديدة النامية في آذربايجان التي أخذت التحكم في شؤون ايران ،نعني بذلك قوة الصفويين النامية هي التي بدأت بالمجابهة.

كان حسين بيقرا حاكما وسياسيا لامعا، كما كان رجلا مثقفا في حقول الادب والفكر والفن، فكان ينظم الشعر بالتركية والفارسية وله ديوان في التركية وصل الينا، كما ترك رسالة مختصرة تحوي على افكاره وارائه.

ظهير بابور: لم ينه احتلال الاوزبك لخراسان في ٩١١/١٥٠٦ حكم التيموريين في مناطق اسيا الغربية والوسطى لأن ظهير الدين بابور كان لايزال حاكما في كابل، أحدى المناطق المرتبطة بتأريخ ايران في هذا الوقت. والحقيقة ان فكرة اعادة الحكم التيموري الى ايران ظلت ماثلة في شخصه. ولكن قوة الصفويين من جهة والاوزبك من جهة أخرى أجبرت بابور على أن يجرب عمله العسكري في منطقة أخرى غير ايران ،وهي الهند التي كون فيها هو واحفاده أمبراطورية جديدة باسم امبراطورية المغول على أثر انتصاره على سلطان دلهي، أبراهيم لوذى في معركة بانى بت (رجب ٩٣٢/ نيسان ١٥٢٦).

وكان بابور قبل ذلك قد رضي بأن يصبح تابعا للصفويين بعد التفاهم الذي حصل بينه وبين ممثل الشاه أسماعيل والذي بموجبه أصبح من حق بابور أن يحتفظ بكل الاراضي التي يمكن له أن يأخذها من الاوزبك في التركستان شريطة تحول بابور الى مذهب الصفويين وان يذكر أسم الصفويين (الشاه أسماعيل) في الخطبة ،وفي العملة الورقية المتداولة ، فأذعن لذلك ،وقد أثار عمل بابور هذا حفيظة سكان ايران من أهل السنة لأنه عرض حياتهم وأرواحهم للخطر وللمسارعة بعد دخول القوات الصفوية هراة في ٩١٨/١٥١٢، وهكذا ترك الباب مفتوحا أمام حاكم ايران الجديد، الدولة الصفوية ، للتحكم في شؤون ايران.

الخلاصة: كانت الدولة التي تركها تيمور لخلفائه التيموريين كما يذكر بارتولد مكونه من عناصر ترتبط بالنظام الحربي السائد بين المغول — والاتراك من جهة، وبالحضاره الاسلامية من جهة أخرى. ولكن العمل بهذه النظم كان يختلف من أقليم الى آخر وطبقا لميول واهواء الحاكم ذاته .وكانت مشكلة التيموريين الرئيسية هي قضية التركمان العائدين من أنضوليا بأتجاه ايران خاصة اذربايجان، إذ لم يتمكن التيموريين من ايجاد حل لخطر إمارات التركمان من القرا — قونيلو ثم الأق — قونيلو. إلا أن أفراد البيت التيموري كانوا يتمتعون بحرية سياسية في أقاليم الحكم التابعة لرئاستهم وفي المدن المتكونه منها على حساب سلطة الحاكم المركزية. لأن التيموريين كانوا يؤمنون بأن الدولة هي ملك الفاتح ويجب أن توزع ممتلكاتهم عليهم. وكان الاقطاع هو الأساس الذي تستقر عليه العسكرية التيمورية الذي هو من خصائص تطوير الاقطاع (سورغال) السائد في زمن البويهيين والسلاجقة، بينما كانت الدولة تفتقر إلى منصب الوزير الذي كان موجودا بمعنى رئيس الادارة المالية لا بمعنى الوزير التقليدي عند العباسيين. واعلى قسم من الدولة هو ديوان بزرك أمارت الذي يتكرر بأسم ديوان أمارت تواجيان، المسؤول عن الشؤون العسكرية ،وكان الأمراء يعرفون بأسم بك وفيها ديوان بكي. بينما كان الجيش مكونا من عناصر تركية وعناصر مغولية مشتركة.

وعلى المستوى الديني كانت ايران زمن التيموريين تمر في حقبة تحول مهمة تتعلق بالوضع الذي ساد فيها زمن الصفويين. وكان هذا التحول يجري على حساب سكانها من أهل السنه التي كانت تكون الغالبية العظمى، مع أن هناك بعض المناطق التي كان سكانها من الشيعة الاثني عشرية كجيلان ومازندران وقم وسبزوار وغيرها.

هوامش الفصل السادس

١. هناك الكثير من المصادر عن تيمور والتيموريين بالفارسية والتركية ،على رأس هذه المصادر الفارسية ميرخواند روضة الصفا ،حفيده خواند مير، حبيب السير،وكليهما رجع الى مركز حكم الاسرة التيمورية في هراة، وبالعربية، التاريخ الغياثي لعبد الله البغدادي. كما ان تاريخ العراق بين احتلالين يحتوى على نصوص كثيرة تخص الحقبة رتبها وعلق عليها بكل عناية مؤلفه الواسع الاطلاع عباس العزاوي. وتنفع مصنفات ابن عربشاه وعبد الرزاق السمرقندي وحافظ ابرو في متابعة سيرة تيمور الذاتية والتيموريين من وجهة نظرا التيمورية. والوثائق لهذه الحقبة التيمورية كثيرة جمعها مع وثائق تخص التاريخ الايراني بعض الباحثين.

ولكن اهم دراسة حديثة استفاد منها كاتب الفصل هي الدراسة التي تقدم بها مؤخرا رومر Roemer عن تيمور والتيموريين في تاريخ كمبرج لايران.

٢. تجد خلاصة لسيرة تيمور ومواجهاته العسكرية والسياسية في مقالة رومر عن تيمور في تاريخ كمبرج لايران، م٦، ص٤٤ ومايتبعها.

٣. رومر ،المصدر ذاته، م٦، ص٤٥ — ٤٦.

٤. للاطلاع على موقف امراء هذه العائلة براجع الوثائق الخاصة بها في ثابتي، اسناد ونامهاى تاريخ ص٢٧٣ — ٢٧٥.

٥. انظر ملاحظاته في المصدر ذاته، م٦، ص٥٤ — ٥٥.

٦. هناك كتاب عن تاريخ هذه الاسرة بعنوان تاريخ آل مظفر لمحمد كتبي، نشر في طهران ١٩٥٦. وقد زار ابن بطوطه مركز المظفر بن في شيراز ودون بعض ملاحظاته عنهم في رحلته تحفه النظار.

٧. رومر، المصدر ذاته، م٦ ،ص٦٣ — ٦٤.

٨. عن الجلائرين وتاريخهم السياسي يراجع نوري عبد الحميد العاني ،العراق في العهد الجلائري بغداد ،١٩٨٦.

٩. رومر المصدر ذاته، م٦ ،ص٨٦ ومايتبعها.

١٠. رومر ،المصدر نفسه ،م٦ ص٨٦،٩١،١٧٠

١١. هناك مجموعة من المراسلات بين تيمور وحكام هذه الحقبة محفوظة من ثابتي ، اسناد وكامهاى تاريخي ، ص٣١٤ — ٣٦٣.

١٢. اولاد تيمور هم كل من جهانكير الذي توفي في ١٣٧٥/٧٧٧، وعمر شيخ في ١٣٩٤/٧٩٦ ثم ميران — شاه ، الذي كان يعاني من لوثه عقليه بعد اصابته بحادث وشاه رخ المذكور آنفا. وكان مرشح تيمور للعرش هو بير محمد بن جهانكير ولكن وزيره قتله في ١٤٠٧/٨٠٩ ،اضافة الى عدد من البنات والأحفاد.

١٣. عن سلطنه شاه — رخ وتحليل للاحداث الخاصة بها براجع رومر ،المصدر ذاته، م ،ص١٠١ — ١٠٥.

١٤. انظر اسفل ص١٥٤ — ١٥٥ . وعن وثائق .ومراسلات فترة سلطنه شاه رخ ثابتي. المصدر ذاته ص٣٦٤ — ٣٧٦.

١٥. اي الذي له ارتباط من ناحية الزواج بأسرة جنكيزخان.

١٦. انظر حوله واحداث سلطنته رومير ،المصدر ذاته ،م٦ ،ص١٠٥ ــ ١١٠.

١٧. عن سيره ونشاطات أبي سعيد انظر ملاحظات موئين في المصدر ذاته ،م٦ ص١١١ ــ ١١٨

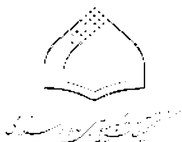
١٨. هناك تحليل جيد لاحداث سلطنه حسين بيقرا في رومير، المصدر ذاته، م٦ ،ص١٢١ ــ ١٢٥.

١٩. عن مراسلات هذه الحقبة ووثائقها يمكن مراجعة ثابتي، اسناد ونامهاى تاريخي، ص٣٨٨ ــ ٤١٦.

٢٠. انتقل في الوظائف بين ديوان الحاكم وديوان يتي ثم لنيابة مجلس الأمارة الاعلى. ولكن في النهاية توترت العلاقات بين نوائي وحسين بيقرا نقل على اثرها حاكما لاستراباذ.

٢١. رومير، المصدر ذاته ،م٦ ص١٢٧ ــ ١٣٢.

٢٢. كذلك، م٦ ،ص١٣٦ ــ ١٣٨.



الفصل السابع
بلاد فارس على مشارف التاريخ الحديث

الدويلات التركية
القرا ـــ قونيلو والاق ـــ قونيلو

كان للدويلات التركية خلال احداث القرنين الثامن والتاسع الهجريين ـــ الرابع عشر وا لخامس عشر الميلاديين أثر ظاهر في تأريخ ايران لاسباب سياسية وحضارية ودينية وعائلية وكان لأثنين منهما هما : القرا قونيلو والاق قونيلو ارتباط وثيق بتأريخ ايران والدولة العثمانية.

أصل القرا قونيلو والاق قونيلو: ظهرت دراسات حديثة(١) عن أمارتي القرا قونيلو(٢) والاق قونيلو(٣) تخص تاريخهما السياسي والحربي، ولكن الأصل الذي تنتمي إليه قبائل هاتين الامارتين لايزال غامضا ،والذي يبدأ بذات الاسم الذي تحمله كل منهما. فالقرا قونيلو تعني بالتركية (قبائل الخروف الاسود) ،والأق قونيلو (قبائل الخروف الابيض)(٤) .وربما تثير هاتان التسميتان الدهشة في الوقت الحاضر، إلا إنها كانت بدون شك ذات دلالات ومعان واضحة بين تجمعات هذه القبائل في حينه.

كانت القرا قونيلو والأق قونيلو في الأصل مجموعة متحدة من قبائل بدوية أنفصلت تدريجيا بفعل عوامل سياسية وجغرافية واقتصادية معينة. ويحتمل أن يرجع تكوين الامارتين إلى تشكيل واحد من القبائل التركمانية التي أنفصلت فيما بعد لتكوين أتحادين من القبائل المستقلة تحت قيادة عائلتي بهارلو وبانيدر(٥) والتي ترجع بداياتها إلى أحداث القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي قبل سقوط سلاجقة الانضول أو بعد ذلك ،ومستغلة الضعف الذي أصاب المغول لتنتشر في مناطق انضوليا الشرقية وديار بكر لتنطلق في هجرة معاكسة إلى ايران خلال النصف الثاني من القرن الثامن/الرابع عشر الميلادي مكونة أمارات سياسية مستقلة: القرا قونيلو في أر جيش على الساحل الشمالي من بحيرة وان إلى حدود أرضروم شمالا والموصل جنوبا، والأق قونيلو في ديار بكر من قاعدتها في آمد. ولم تكن مناطق نفوذ هاتين الدولتين في البداية تشمل عنصرا فارسيا بل كانت تحكم جماعات يتكون غالبيتهم من الارمن ولأكراد، ثم أمتد حكمهم إلى ايران ليشمل معظم سكانها بأستثناء شرق ايران قاعدة التيموريين. وقد تميزت حقبة ظهور هاتين الامارتين بنزاع مستمر بين أمراء القرا قونيلو والأق قونيلو وحكام المناطق. والأقاليم المجاور لمنطقتي نفوذهما، وبخلافات ومنافسات محتدمة فيما بينهم كذلك أنتهت بانتصار الأق قونيلو على القرا

قونيلو تحت زعامة أوزون حسن. وبالرغم من بعض الاختلافات القائمة بين القرا قونيلو والأق قونيلو إلا أن هناك الكثير من الخصائص المتشابهة بينهما على المستوى العرقي والسياسي والتاريخ مما يفضل معه أستعراض علاقة هاتين الدولتين بأيران سوية.

ينتسب القرا قونيلو في الزعامة إلى قرا محمد الذي كان يعاصر اثناء زعامته رئيس الآق قونيلو قرا يولغ عثمان ،والذي كانت قد بدأت رئاسته لها في ١٣٨٩/٧٩١، بعد رئاسة أحمد بك .ثم خلف قرا محمد في الزعامة رئيس تركماني اخر هو قرا يوسف الذي حافظ على الصراع مع الأق قونيلو. ثم أصيب القرا قونيلو بنكسه قوية على أثر ظهور تيمور في ١٣٩٩/٨٠١ في الانضول ،الذي طلب من زعيم القرا قونيلو التسليم دون جدوى، مما أضطره إلى الهرب من وجه تيمور في الوقت الذي وقف الأق قونيلو لأسباب واضحة إلى جانب تيمور وأستغلوا هذه الفرصة لتحقيق توسعات أقليميه على حساب ممتلكات القرا قونيلو.

ولكن موت تيمور في ١٤٠٥/٨٠٧ وغياب خلف متمكن لرئاسة الأمبراطورية التي تركها لحكم أبن شاه رخ وخلفائه لمدة مائة عام، أعطى فرصة لزعماء القرا قونيلو بأستعادة دورهم السياسي والعسكري في المنطقة ،بحيث لم ينجحوا في صد خطر التيموريين فحسب بل افلحوا أيضا في ضبط خطر حليفهم قرا عثمان وذلك في ثلاث محاولات غير موفقة على أذربايجان قام بها شاه رخ وحليفه قرا عثمان. وقد تمكن قرا يوسف وخلفه قرا أسكندر من احتوائها جميعا في ١٤٢٠/٨٢٣ ، ١٤٢٩/٨٣٢ و٨٣٨ و١٤٣٤/٨٥٩ و١٤٣٥ وقد ساعدت هذه الانتصارات القرا قونيلو على أن تتحول إلى اهم قوة سياسية في شمال غرب ايران وانضوليا الشرقية(٦).

وكان الجلائريون الذين ظهروا على أثر زوال النفوذ الأيلخاني من الانضول والعراق هم القوة الثانية التي كانت تقف بوجه توسع القرا قونيلو والتي كانت مناطق نفوذها تنحصر مابين ارجيش والموصل منطقة التوسع الطبيعي للقرا قونيلو .وقد ظهر القرا قونيلو في البداية حلفاء للجلائريين ثم تخلصوا منهم فيما بعد ،وكان مخطط هذه السياسة هو قرا محمد، الذي يعد بمثابة المؤسس لحكم هذه العائلة التركمانية ،والذي توج أعماله بأخذ تبريز في ١٣٨٨/٧٩٠ ثم حدث ان لقي مصرعه في ربيع السنة التي تلتها أثناء متابعة نزاعه المحتدم مع منافسين من رؤساء التركمان في الانضول.

تابع قرا يوسف هذه السياسة بالتخلص من حليفه السابق احمد جلائر، الذي كان قد أحتل تبريز خلافا للاتفاقية القائمة بين الزعيم الجلائري. لذلك قام قرا يوسف بحمله على تبريز لأستعادتها توجت بقتل أحمد جلائر في ٨١٣/ ١٤١٠ وقد استفاد القرا قونيلو من زوال الحكم الجلائري لايران فقاموا بعدد من الحملات مكنتهم من أستقطاع مناطق مهمة من ايران كانت ضمن نفوذ الحكم الجلائري، من ذلك مدينة السلطانية عاصمة الايلخانيين ومدن قزوين

وأصفهان وفارس والتي تحققت بقيادة قرا ــ يوسق، بالرغم من انها في النهاية اودت بحياته بعد ان وضعته وجها لوجه امام شاه ــ رخ التيموري .وبالرغم من صعوبة الحادثة التي المت بالقرا ــ قونيلو ،إلا أن هذه الامارة أستمرت في الحكم ولم تصب بنكسه كبيرة كما يحدث عادة عند وفاة زعيم كبير من زعمائها بسبب ماقام به قرا يوسف من انجازات سياسية وعسكرية وادارية رسخت من حكم القرا قونيلو.

جيهان شاه(٧) والعصر الذهبي للقرا قونيلو: حكم جيهان شاه مايقرب من ثلاثين سنة وصلت فيها القرا قونيلو الى اعلى حد للتوسع في حدودها الاقليمية في الانضول والعراق وايران والتي وضعته وجها لوجه أمام أعدائه التيموريين من جهة والأق قونيلو من جهة أخرى.

كانت حملات جيهان شاه ضد التيموريين موفقه ،اذ اضافة إلى المكاسب المادية التي تحققت من جراء هذه الحملات ،فأنها تظهر في الوقت نفسه دور القوة التركمانية في سياسة ايران وفي نمو هذا الدور واتساعه اذ يمكن القول أن أهم ماكان جيهان شاه قد تمكن من تحقيقه أضافه إلى (احتلال بغداد) هو التغير الذي أحدثته سياسته بخصوص مناطق النفوذ التيموري في أعقاب موت الشاه رخ في ١٤٤٧/٨٥٠ حيث أخذ بالتوسع على حساب ممتلكاتهم فأستقطع اولا قزوين وأصفهان في ١٤٥٠/٨٥٤ ثم أستحوذ على فارس وكرمان بما في ذلك هراة قاعدة الحكم التيموري (١٣٥٨/٨٦٢). وبعد هذه السلسلة من الهجمات لمواجهة الجهود التي كان يبذلها زعيم التيموريين الجديد أبو سعيد أضطر جيهان شاه إلى قطع حركاته والرجوع إلى مركز حكمه في غرب إيران لنقضاء على العصيان الذي قام به ولده حسن في أذربيجان (بما في ذلك عصيان أبن بير بوداق في بغداد في ١٤٦٦/٨٧٠).

إن هذه الانتصارات التي جققها جيهان شاه خلال حكمه قد كونت من القرا قونيلو أمبراطورية مترامية تمتد من بحيرة وان إلى الصحارى التي تفصل فارس عن خراسان ومن بحر قزوين إلى سواحل الخليج العربي وفي هذه المناطق يمثل القرا قونيلو الوريث الشرعي للجلائريين ،الذين كانوا يتمتعون بحق وراثة الأليخانيين ونظمهم السياسية المغولية.

إذا كان جيهان شاه قد أشتهر بأنتصاراته السياسية والعسكرية فأن له اسهامات حضارية ايضا ميزته عن سابقيه من الأمراء التركمان ممن غلب عليهم الطابع العسكري وحب الغزوة والانتصار ،فمن ذلك بنائه عدد من المساجد التي أمر بتشييدها جيهان شاه في المدن الأيرانية خاصة تبريز، كالجامع الأزرق في المدينة ،وتشجيعه الشعراء والكتاب بتقديم العطايا المجزية لهم. كما ينسب إلى جيهان شاه مجموعة من الشعر الفارسي / التركي تعرف «بحقيقت» تدلل على ذوق جيهان شاه الأدبي وعلى مستواه الثقافي. وعلى الرغم من هذه السمة الثقافية كانت حروبه تتسم بالوحشية. وقد أورثته الاعمال التي ارتكبها خلال هذه الحملات سمعه سيئه تقوم على صفات الأستبداد والوحشية والتغير المفاجئ في المزاج، بما في ذلك القسوه البالغة مع المخالفين من أمراء جيشه. كما

كسب شهرة الميل إلى تناول الأفيون والشراب واعمال الفسق وتجاهل تعاليم الشرع حتى أطلق عليه رجال البلاط العثماني احتقارا له أسم (الخفاش). ونجد مثل هذه النعوت والصفات مذكورة في سيرته الذاتية الموجودة في معظم أدبيات الحقبة(٨).

وكما يصعب الحكم على شخصية وتصرفات جيهان شاه السياسية،فأنه يصعب ايضا تقويم سياسته الدينية: فهو يوصف أحيانا بأن يمثل السلف للتشيع الفارسي، كما تنظر إلى دولته على أنها السلف الحقيقي للصفويين الذين جعلوا من التشيع الفارسي عشرية أساسا لنظامهم السياسي .والتي بموجبها تقرر مصير ايران إلى الوقت الحاضر. وقد كان لزعماء للقرا قونيلو توجها شيعا ذا سمة فارسية إلا إن هذا التوجه كما يتمثل في شخص جيهان شاه يصل إلى حد التعصب(٩).

كان جيهان شاه موفقا في حملاته ضد التيموريين والجلائريين ولكنه لم يتمكن من معالجه موضوع الأق ــ قونيلو ووضع حد نهائي لقوتها في الأنضول .والتي جاءت منها الضربة القاضيه لحكمه.

اوزون حسن(١٠) وحكم الأق ــ قونيلو:

كان اوزون حسن (حسن الطويل) قد تمكن من حل المشكلة الرئيسية التي كان يعاني منها زعماء الأق ــ قونيلو من قبل، وهي قضية النزاع المستمر بين أمراء الأق ــ قونيلو أنفسهم والتي عاشتها هذه الامارة منذ وفاة قرا عثمان بعد ان تحسنت قليلا زمن جهانكير بن علي بك .وكان اوزون حسن قبل اغتصاب السلطة من اخيه جهانكير قد ساعد أخاه في تصفية أنصار القرا ــ قونيلو مبتدءا بخاله شيخ حسن .

سقوط القرا ــ قونيلو: لم يساعد حكم اوزون حسن في نهوض الاق ــ قونيلو وحده بل يعرف رئيسه اوزون على انه كان من أنجح الأمراء الذين شقوا طريقهم إلى حكم هذه الامارة التركمانية(١١) وقد جاء سوء الطالع لجيهان شاه والنهاية المحزنة له ولبيته في ١٤٦٧/٨٧٢ بعد أحتلال بغداد ،وكان جيهان شاه قد خرج قبل سنة من ذلك الى ملاقاة اوزون حسن ومعاقبته إلا أن اوزون حسن ظل يتابع حركاته الى أن تمكن منه وهو يغط في نومه بعد ليله مفرطة من الشراب. وقد ذهب في هذه الحملة كل من جيهان شاه وولداه محمد وأبو يوسف.

وقد كانت هزيمة القرا ــ قونيلو والنهاية المحزنة التي أنتهى اليها جيهان شاه وولداه بمثابة هزيمة تامة لهذه العائلة لانها وضعت حدا لحكم القرا ــ قونيلو في ايران ولم تثمر جهود ولده الأخر حسن علي لأنعاش دور القرا ــ قونيلو في سياسة المنطقة ،ففضل الانتحار في شوال ٨٧٣/نيسان ١٤٦٩. وبأختفاء هذا البيت أختفى ايضا أسم هذه الامارة والاتحاد الذي كانت تتكون منه، والذي كان للأق ــ قونيلو شرف الاستيلاء على ممتلكاتها.

حصلت القرا ــ قونيلو بسياسة جيهان شاه العسكرية وقابليته الدبلوماسية على امبراطورية مترامية تمتد الى داخل الاراضي الايرانية وتشهد على قيام حركة حضارية فيها. وإذا كان هذا الأمير التركماني يمثل العصر الذهبي لحكم القرا ــ قونيلو، فأن حكمه يحمل ايضا عوامل ضعف واضمحلال هذه الدولة.

اوزون حسن والعصر الذهبي للأق ــ قونيلو: وهكذا أصبح اوزون حسن سيدا مطلقا على أمبراطورية جيهان شاه في ايران، وللتدليل على هذا التحول المفاجئ في مكانة الأق ــ قونيلو نقل اوزون حسن مركز حكمه من أمد في ديار بكر الى تبريز عاصمة أسلافه من الجلائريين والايلخانيين ليتابع سياسة توسع الأق ــ قونيلو داخل ايران والتي تتمثل بالهجره التركمانية الثانية.

لم يحكم أوزون حسن ايران بعد انتصاره على جيهان ــ شاه اكثر من احد عشر عاما ولكنه تمكن بهذه السنوات القليلة في تكوين امبراطورية اكبر سعة من تلك التي ورثها من جيهان ــ شاه واستحق صفة الحاكم المصلح نتيجة لقوانينه الأدارية والمالية. وكان توسع اوزون حسن داخل ايران قد ادى الى وضع الأق ــ قونيلو وجها لوجه امام التيموريين حلفائهم سابقا: فقد وجد ابو سعيد ،حفيد تيمور الفرصة مواتيه لاستعاده مافقده من أراضي لجيهان شاه، ولمتابعة سياسة التوسع غربا من مركز قاعدتهم في هراة. ولكن اوزون حسن بعد أمتناع شديد تمكن من دحر أبي سعيد وقتله (٨٧٣/١٤٦٩) ولم يتمكن التيموريون بعد هذه الهزيمة من تشكيل اي خطر حقيقي على أمبراطورية اوزون حسن.

كما كان على اوزون حسن أن يواجه التحدي العثماني في الأنضول متمثلا بشخص السلطان محمد الثاني (الفاتح) الذي توجه نحو الانضول لمتابعة طموحات اوزون حسن فيها. وكانت انضوليا بالنسبة للأق ــ قونيلو تشكل القاعدة الأساسية لتحركات القبائل التركمانية .وبالرغم من أن أهتمام العثمانيين لم يكن موجها في وقته نحو الشرق إلا أن الفرصة التي سنحت للسلطان العثماني في ٨٧٨/١٤٧٣ تحولت الى أنتصار عثماني، بعد النجاح الذي حققته قوات اوزون في البداية على القوة العثمانية.

أما الصفويون، فقد كانوا في بداية تكونهم السياسي ولم يكونوا قد تحولوا بعد الى قوة تهدد حكم الأق ــ قونيلو التي كانت تحتفظ بعلاقات طيبة معهم .إلا أن هذا الوضع الخاص بالصفويين قد تغير بعد ٨٨٢/١٤٧٨ حيث تمكنوا من دحر جملة من أحفاد اوزون حسن واستمر الحال هكذا حتى أنتهاء حكم التركمان قبيل ٩١٣/١٥٠٧.

« لقد أصبح قيام الكيان الصفوي في ايران مع بداية القرن ١٦ الميلادي ايذانا ببدء جهود كبيرة من اجل تأكيد الخصائص الفارسية سياسيا ودينيا. ورغم ان الصفوية تعد في جذورها حركة صوفية مغالية عقائديا وتركمانيه بشريا فقد تقمص زعماؤها كل خصائص الهوية الفارسية وعقدها تجاه الاسلام .

ورغم تظاهر الشاه اسماعيل (١٥٠١ ــ ١٥٢٤م) بالتشيع واعلان هذا المذهب مذهبا رسميا لايران التي كان غالبية سكانها من أهل السنة ،فقد سخر هو وأسرته عددا من علماء الدين لكتابة المؤلفات التي حرفت التشيع الحقيقي بإخراجه من طبيعة العربية ــ الاسلامية الى مذهب أخر ذي صفة فارسية تحريفية هدفه هدم التشيع الأصلي ومخالفة الاجماع . ويطلق الباحثون المحدثون امثال الدكتور علي شريعتي والاستاذ محمد البنداري عليه اسم «التشيع الصفوي» الذي يختلف تمام الاختلاف عن التشيع العربي ويتناقض مع مفهوم الأئمة (رض) عن التشيع العلوي. ولاتزال اثار السياسة الصفوية تنعكس على اوضاع ايران الداخلية وعلاقاتها الخارجية بالعالم الاسلامي،(١٣)

الهوامش:

١. ظهرت مؤخرا في التركية والانكليزية دراسات حديثة عن الدويلات التركمانية ودورها في كل من ايران وتركيا والعراق اهمها دراسة الاستاذ رومير عن القرا ــ قوينلو والأق ــ قوينلو في تاريخ كمبرج لايران ،التي اعتمدنا عليها وعلى المصادر المتعلقة بها لكتابة هذا الفصل. ومن المصادر المهمة ايضا تاريخ العراق بين احتلالين ،الذي تشكل نصوصه المتنوعة الاساس في دراسة رومير التي قام بجمعها وتنسيقها من مصادر الحقبة عباس العزاوي.

٢. وتعرف ايضا بالدولة البارانية، نسبة الى باران، احد احفاد «اوغوز» (اوغز). انظر عباس العزاوي، المصدر ذاته ،م٣ ،ص٢٣.

٣. وهي تعرف ايضا بالدولة البايندرية نسبة الى بايندر المنحدر من «اوغوز» .العزاوي ،المصدر ذاته ،م٣، ص٢٠٤.

٤. وتفسر على انها نوع من الطوطم ولكن رومير يرفض هذا التفسير ويرجح الرأي الذي يرى بأن التعبير في معناه اشاره الى اللون الذي كان يميز هاتين الجماعتين ، او الى اللون السائد بين قطعان كل منهما ،انظر رومير، «الدويلات التركمانية» في تاريخ كمبرج لايران ،م٦، ص١٥١. ولوجهه النظر السائدة انظر سبولر Spuler في المصدر ذاته ، م EA، ص١٧١ ــ ١٧٢.

٥. رومير ،المصدر ذاته ، م٦، ص١٥٢ .ويرى رومير بأن اصل هذا الاسم الاول هو بهادر وبأنه ذا صله بمنطقه بها ،وشمال همدان. وانظرا اعلاه ،هـ٢ ، هـ٣.

٦. للتفاصيل انظر رومير، المصدر ذاته، م٦، ص١٥٨.

٧. عن جهان ــ شاه وسيرته والظروف التي رافقت مقتله انظر النصوص التي جمعها عباس العزاوي في المصدر ذاته، م٣، ص١٧٦ ــ ١٨٤. ؛ وعن سياسته انظر رومير، المصدر ذاته، م٦، ص١٦٣ ــ ١٦٦.

٨. يستثنى من ذلك اقوال عبد الرزاق السمرقندي، مؤرخ البلاط التيموري ،في مطلع السعدين، اذ يمدح عدالة جهان شاه واستقرار حكومته ومعاملته للرعايا. ولكن هذه الملاحظات تفسر على انها رد لحسن المعاملة والجميل الذي قام به جهان شاه بحق السمرقندي.

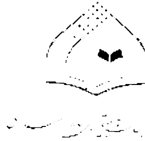
٩. رومير ،المصدر ذاته، م٦ ،ص١٦٧ ــ ١٦٨ (للتفاصيل) وينبه رومير على موقف جهان ــ شاه من تمرد الحروفين في تبريز وتنفيه للشيخ جنيد الصفوي عدة مرات وعلاقة هذه الاجراءات بتوجهاته السياسية. ولالقاء الضوء على سياسة جهان ــ شاه الدينية وعلاقة ذلك بأنتشار التشيع الفارسي في ايران لابد من التنويه بأن كيفيه ،انتشار التشيع بين الايرانين لم تدرس لحد الأن .ولكن من المؤكد ان مدة حكم الايلخانين ،من ايران ،شهدت في القرن الثامن الهجري الرابع الميلادي ظهور حركات تحريفيه مختلفة في المناطق التي كانت تحكمها هذه الدولة.

١٠. عن سيرة حسن الطويل وحروبه في ايران انظر عباس العزاوي، م٣، ص٢٢٣ ــ ٢٢٥، ص٢٤٥ ــ ٢٤٨، ص٢٥٢ ــ ٢٥٦؛ وعن سياسته العسكرية والأدارية انظر رومير، المصدر ،م٦، ص١٦٨ ــ ١٨٢.

١١. بسبب الظروف التي ظهر بها اوزون حسن على مسرح ايران ــ انضوليا السياسي، والثروات الكبيرة التي وقعت تحت تصرفه، كذلك الى قيادته العسكرية ،والى شخصيته كرجل دولة.

١٢. هرب جهان ــ شاه اولا ولكن جنود لوزون حسن أمسكوا به وقتلوه ومعه ولي العهد محمد. اما ابو يوسف فقد ظل بعد ان سملت عيناه ،ثم فقد حياته بعد محاولة تثبيت نفسه في فارس.

١٣ ــ كتب هذه الفقرة د. فاروق عمر .كذلك راجع: موسى الموسوي، التشيع والتصحيح .ــ محمد البنداري ،التشيع بين مفهوم الائمه والمفهوم الفارسي.



المصادر والمراجع

(١) المصادر العربية

ابن الاثير ــ الكامل في التاريخ ،طبعة ليدن الاوربية ١٨٥١ ــ ١٨٧٦

الازدي ــ تاريخ الموصل ،القاهرة ١٩٦٧.

ابن اسفنديار ــ تاريخ طبرستان ترجمة انكليزية، لندن ١٩٠٥

الاصفهاني ــ الاغاني بولاق ١٢٨٥هـ

البغدادي ــ الفرق بين الفرق القاهرة ١٣٢٨هـ

البلاذري ــ فتوح البلدان ليدن ١٨٦٦ والقاهرة ١٩٠١

انساب الاشراف الاجزاء المحققة والمخطوطة

البغدادي ــ دولة آل سلجوق القاهرة ١٣١٨هـ

البيهقي ــ تاريخ البيهقي الترجمة العربية القاهرة ١٩٥٦

الثعالبي ــ غرر سير ملوك الفرس ، باريس (مع ترجمة فرنسية) ١٩٠٠

الجاحظ ــ الحيوان ،القاهرة ٣٨ ــ ١٩٤٥.

البيان والتبيين ،القاهرة ٤٨ ــ ١٩٥٠

رسائل الجاحظ السندوي القاهرة ١٩٣٣

الجهشياري ــ الوزراء والكتاب القاهرة ١٩٣٨

ابن الجوزي ــ المنتظم حيدر أباد ١٣٥٨

ابن حزم ــ الفصل في الملل والنحل بيروت

جمهرة انساب العرب القاهرة ١٩٦٢

الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد القاهرة ١٩٣١

ابن خلكان ــ وفيات الأعيان القاهرة ١٩٢٨

خليفة باخياط التاريخ بغداد ١٩٦٧م.

الدينوري ــ الاخبار الطوال القاهرة ١٩٦٠م

الذهبي ــ دول الاسلام حيدر اباد ١٣٣٧هـ

تاريخ الاسلام دار المعارف بالقاهرة

رشيد الدين فضل الله ــ التاريخ الغازاني (مخطوط)

الزبير بن بكار،الاخبار،الموفقيات بغداد ١٩٧٢م

ابن سلام (ابو عبيد) ــ الاموال،القاهرة ١٣٥٣هـ

الصابي ــ تحفه الامراء في تاريخ الوزراء القاهرة ١٩٥٨